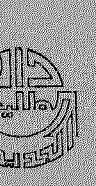
وليم فولكنر

غريب في المقبرة

رواية



تر...
علي صرفوش





غريب في المقبرة

الطبعة الأولى - 1995

دار الطليعة الجديدة

سوريا - دمشق - ص.ب: 34494

هـ: 7775872

تصميم الغلاف: جمال سعيد

غريب في المقبرة

تأليف: وليام فوكنر

ترجمة: د. محمد علي حرفوش



تمهيد

القارئ العزيز:

أثارت رواية «غريب في المقبرة»، حين صدورها، جدلاً واسعاً بين تأييد ومعارضة. فنظر إليها البعض على أنها عمل باهت، واعتبرها آخرون عملاً متميزاً. والرواية بغض النظر عن ذلك كله تحتوي على كافة الخصائص الفكرية والفنية لفوكنر. فهي كغيرها من أعمال فوكنر تركّز على الحياة في الجنوب الأمريكي المتمسّك بالتقاليد، الخائف من زحف الشمال المادي الذي يكتسح في طريقه ما تبقى من أصالة الحياة الإجتماعية. كما أنها مكتوبة بأسلوب فوكنر المعروف الذي يجمع ما بين السرد حسب طريقة الضمير الغائب والمتداخلة مع تداعي الأفكار، والجمل المعترضة، والسرد في حالة الوعي، أو اللاوعي أو ضمير المتكلم، حتى تبدو الكتابة بحد ذاتها أشبه بصورة تمزّقت إلى أجزاء عديدة وتوزّعت هنا وهناك. فقام الكاتب بتجميعها كيفما اتفق ـ حسبما تبدو للقارئ.

في ترجمتنا هذه هناك محاولة للحفاظ على كافة الخصائص الأسلوبية الواردة أعلاه وإبرازها، وفي مواضع كثيرة أضفنا تعليقات وهوامش وتفسيرات لما هو وارد في الترجمة، فجملة واحدة من جمل فوكنر قد يبلغ طولها صفحة أو صفحتين، تقطعها بعض الجمل الإعتراضية، أو الجمل

المكتوبة بالأحرف المائلة Italics التي استبدلناها بالأحرف قاتمة اللون في الترجمة العربية. كما أبرزنا الخطوط المميزة للجمل الإعتراضية أو للأقواس المتداخلة لتسهيل مهمة القارئ في متابعة سياق السرد.

في بعض المواضع يستعمل فوكنر النقطتين المتعامدتين(:) في عملية أشبه بالتقطيع السينمائي للمشاهد المتعاقبة أو المتداخلة التي قد يقطعها في بضع الأحيان سرد أو حوار أو تداع في الأفكار. أما الأمور المغرقة في محليتها عن نمط الحياة في الجنوب الأمريكي - وهي من السمات الأساسية لأعمال فوكنر - فقد حاولنا قدر الإمكان إيجاد تفسير لها وتقريبها إلى حد كبير من تذوق القارئ العربي.

هذه الترجمة إذن محاولة لنقل عمل هام، لكاتب هام، إلى اللغة العربية، نأمل أن تكون موفقة في إيصال هذه المهمة الشّاقّة إلى بر الأمان. لأن الترجمة مغامرة مليئة بالعقبات، محفوفة بالمخاطر، ومشقة لا يمكن تفادي تبعاتها، لأن المؤلف باللغة الأصلية يتعرض للمديح في حال نجاح الترجمة، أما إذا فشل العمل المترجم، تعرض المترجم للذم. فويل للمترجمين من هاتين النهايتين.

يلاحظ القارئ في هذه الترجمة، استعمال ضمير الغائب (هو). إن الشخص المشار إليه بضمير الرفع الغائب ذاك، هو تشارلز ماليسون بطل الرواية، الذي يؤثر فوكنر ألا يذكر اسمه إلا في مواضع قليلة، ويميل إلى الاكتفاء بِسَرْد تحركاته وأفعاله فحسب.

أما عنوان الرواية فهو ترجمة بتصرف للعنوان الأصلي Intruder in the Dust الذي من المكن ترجمته بعدة طرق مثل «متطفل في الغبار»* وهي ترجمة حرفية، لا تعبر عن مضمون الرواية، أو «دخيل في التراب»**، أو «دخيل تحت الثرى». الترجمتان الأخيرتان قريبتان جداً للعنوان الأصلي،

---

* - يورد هذه الترجمة غالب هلسا في كتاب «فوكنر» المترجم عن مؤلفه مايكل ملجيت.

** - خالد عيسى في مجلة عالم الفكر.

غير أنهما لا تبدوان في العربية بالواقع نفسه للعنوان الأصلي في الإنكليزيــة. نرجو ألا يكون تصرفنا * *في ترجمــة العنــوان أثــر سلبياً علــى تلقــي القــارئ للرواية.*

محمد علي حرفوش

شيفلد ـ بريطانيا

تموز 1987

---

* ـ العنوان مستقى من الحدث الأساسي في الرواية وهـو العثور علـى شـخصين في قـبر واحد. إذا أحب القارئ العزيز معرفة المزيد عن الرواية والكاتب، يمكنه (يمكنها) قراءة الدراسة التي أدرجناها في ختام هذا الكتاب، حرصاً منا على عدم وضـع أي وسـيط بـين العمل الفني والقارئ ما لم تدعُ الضرورة الملحة إلى ذلك.



الفصل الأول

قبيل ظهر يوم الأحد ذاك، وصل الشريف إلى السجن مصطحباً لوكاس بوشامب معه رغم أن البلدة عن بكرة أبيها (المقاطعة برمتها كذلك الأمر) علمت بإقدام لوكاس على قتل أحد البيض منذ ليلة خلت.

سبق الجميع في الوصول، وقف متكاسلاً محاولاً أن يبدو بمظهر المتسكع أو البريء على أقل تعديل، كان ينتظر على مقربةٍ، تحت سقيفة أمام حانوت الحداد المغلق في الجانب الآخر من شارع السجن حيث احتمال رؤية الخال له أقل إذا ما اجتاز الساحة أو بالأحرى عندما يعبرها متجهاً إلى مكتب البريد لاستلام المراسلات في الساعة الحادية عشرة.

أمّا مَرَدُّ ذلك الانتظار فهو معرفته بلوكاس المشهور بين جميع البيض. ربما عرفه أكثر من الجميع باستثناء كاروثرز إدموندز الذي سكن لوكاس في قريته الواقعة على بعد سبعة عشر ميلاً من البلدة، وذلك لأنه تناول وجبة طعام في بيته. حدث هذا في ربيعه الثاني عشر، قبل أربع سنوات، في أوائل الشتاء، إذ سارت الأمور على النحو التالي: جاء إدموندز ـ أحد أصدقاء خاله في نفس الكلية من جامعة الولاية، حيث تابع الخال تحصيله العالي في القانون بعد أن عاد من هارفرد وهايدبرج إلى حد خوّله أن يكون محامياً للمنطقة ـ ليرى الخال بشأن بعض قضايا المنطقة وأمضى الليلة معهم، وقال له على طاولة العشاء في ذلك المساء: «غداً تخرج من البيت

معي ونذهب لصيد الأرانب». وتوجه إلى أمه بالقول: «أعيده بعد ظهر يوم الغد وأرسل خادماً معه عندما يخرج بالبندقية».

وأردف قائلاً له: «مع الولد كلب مميز».

أجاب الخال: «سيكون هو برفقة الولد إذن».

أردف إدموندز قائلاً: «هل يتصيد الولد أرنباً أيضاً».

قال الخال: «نعد ألا ينافسك على الطرائد».

في صبيحة اليوم التالي ذهب برفقة ألك ساندر وإدموندز إلى البيت كان الجو بارداً ذلك الصباح، في أول فترة مفاجئة من الطقس الشتوي الرديء، وكانت خطوط السياج مكسوّة ومتصلّبة بالصقيع، والماء الراكد في أقنية الصرف على جانب الطريق يكتسي بطبقة خارجية رقيقة من الثلج، وحواف المياه الجارية في القناة البالغ طولها تسعة أميال تومض وتتلألأ بسرعة خاطفة كآنية زجاجية برقة الطيف، ومن فناء أول مزرعة اجتازوها والمزارع التي تلتها تناهت رائحة دخان الخشب الحادّة إليهم من كل حدب وصوب، وشاهدوا في الباحات الواقفة خلفهم قدوراً حديدية سوداء يتصاعد منها البخار، ونساء يرتدين قلنسوات نسائية واقية من الشمس كانت تلبس في الصيف، أو قبعات قديمة من اللباد ومعاطف رجّالية طويلة، يذكين النار تحت القدور، ورجالاً يرتدون مآزر فضفاضة واقية مربوطة بسلك فوق السروال، وقد شهروا السكاكين وراحوا يجوبون الحظائر، حيث أخذت الخنازير تشخر وتنخر، غير مجفلة تماماً، أو منتبهة للهجوم المباغت، بل محترسة من الخطر الوشيك كأنها تحسّ في ذلك الحين ولو بشكل مبهم، مصيرها الغيبي المحتوم. وفور حلول الظلام كان وجه الأرض يزدان بأجساد الخنازير المذبوحة المفعمة بالشحم السميك الشبيه بطين أجوف ملون،وقد ثُبِتَتْ أعقابها كأنها في وضعية ركض مسعور لتهبط بسرعة نحو باطن الأرض.

لم يعرف كيف وقعت الحادثة، كان ابن أحد أجراء إدموندز، أجسم من ألك ساندر، الذي كان بدوره أجسم منه، رغم أنهم جميعاً في نفس العمر، ينتظر عند باب البيت مع الكلب. أما الكلب فقد كان كلباً من

الطراز الأول للأرانب بكل ما في الكلمة من معنى، كلب صيّاد، للطرد، والقنص، بالغ الضخامة، من سلالة الردبون، أسود اللون، أسمر ضارب إلى الصفرة في بعض أجزائه، وإلى لون مرق اللحم في بعضها الآخر، كلب زنجي بحيث يمكن بطرفة عين مشاهدة صلة قرابة حميمة تربطه بالأرانب شبيهة بالتي قال الناس إنها تربط الزنوج والبغال. في ذلك الوقت تناول ألك ساندر سهمه وهو واحد من اللوالب الثقيلة التي تثبت قضبان السكك الحديدية إلى بعضها تمتد إلى طول ينقص عن طول قبضة المكنسة، من الممكن أن يرميه فيدور رأساً على عقب في إثر أرنب راكض على مسافة قريبة، فيحقق إصابة دقيقة مثل إصابة البندقية ـ مضى ألك ساندر وخادم إدموندز حاملين الأسهم، فيما حمل هو البندقية، وعبروا الحديقة مجتازين المرعى إلى مجرى مائي، حيث دّلهم الصبي على معبر فوق شجرة مقطوعة..

لم يعرف كيف وقعت الحادثة، في منتصف الجزء المقطوع، التي من المحتمل أن يبرر حدوثها مع أي شخص وليكن فتاة لا غير دون أن يفكر بها وهو الذي اجتاز أعلى حاجز في السياج يبلغ ضعفيها طولاً، مراراً وتكراراً، كما لم يعرف كيف انقلبت الأرض الشتوية رأساً على عقب فجأة، ليجد نفسه منبطحاً ووجهه في الأرض، فيما كان مستمراً في حمل البندقية مندفعاً غير بعيد عن الأرض وإنما بعيداً عن السماء الساطعة؛ تذكر الرنين الناعم الخافت الصادر عن الثلج المتكسّر وعدم إحساسه بصدمة الماء وإنما بالهواء فقط عندما نهض ثانية وأسقط البندقية، فكان عليه علاوة على ذلك أن يغطس ويغوص باحثاً عنها من جديد، ويعود من الهواء الثلجي إلى الماء دون أن يشعر بالبرودة أو بانعدامها على حد سواء كما لم يشعر بزيادة في وزن ملابسه المشمّعية أو جزمته وبنطاله السميك ومعطفه المخصص للصيد المشبع بالماء ـ بل شعر ببطء في التحرّك بها، وأوصل البندقية إلى أعلى فالتقطها شخص ما اتضح فيما بعد أنه الخادم بعد أن اهتدى هو إليها إذ غاص إلى القعر ومن ثم صعد إلى الضفة مستعملاً يداً واحدة في إزاحة الماء وأخرى في التشبث بجذع الصفصاف، آنذاك مد ألك ساندر لوحاً خشبياً أشبه بذراع خشبي إليه، فأصاب أخمص قدمه لدى أول محاولة، فأحنى رأسه إلى الأسفل ثانية بحيث كاد يكسر غصن الصفصاف الذي كان يتشبث

به إلى أن علا صوت يقول: «أزح لوح الخشب من طريقه ليتمكن من الخروج».

كان مجرد صوت، لا لأنه صوت شخص آخر غير ألك ساندر خادم إدموندز بل لأن معرفة صاحب الصوت أمر عديم الأهمية: تسلق خارجاً من الماء بكلتا يديه بين أشجار الصفصاف، وقد رنّت طبقة الثلج وخشخشت على صدره، وبدت ثيابه مثل رصاص ناعم بارد لا يتحرك فيها وإنما يرفع جسمه ليملأها وكأنه يرتدي نبشاً[1] أو عباءة أو مشمعاً: ما إن وصل أعلى الضفة حتى شاهد قدمين ترتديان بوطين من مادة الغوما لم تكونا قدمي أيّ من الخادم أو ألك ساندر. إضافة إلى رجلين يعلوهما رداء سروالي، وتابع صعوده وانتصب قائماً فشاهد رجلاً أسود يحمل معولاً على كتفه ويرتدي معطفاً من جلد الخروف وقبعة لبادية كبيرة باهتة اللون شبيهة بالتي اعتاد جده أن يلبسها. كان ينظر إليه. هذه كانت أوّل مرّة شاهد لوكاس بوشامب فيها حسبما يتذكر أو بالأحرى هي أول مرة لأنك لا تستطيع أن تنسى لوكاس. عندئذ فقط شعر بصدمة الماء البارد وهو يلهث ويرتعش، تطلع إلى الوجه الذي كان للتو يراقبه، دونما إشفاق أو مواساة أو دهشة أو أي شعور آخر سوى الاكتفاء بمراقبته، والذي لم يؤاتِ صاحبه بأي حراك في سبيل مساعدته على الخروج من المسيل المائي سوى الإيعاز لألك ساندر عمداً بالكف عن مد اللوح الخشبي كخطوة تؤدي إلى الإنقاذ يمكن لأي شخص أن يقوم بها ـ كان وجهاً دون الخمسين حسب تقديره بل دون الأربعين لولا القبّعة والعيون وما في داخل الجلد الداكن اللون، وهذا كل ما استجمعه طفل في الثانية عشرة يرتعد برداً ويلهث من جرّاء الصدمة والإجهاد، لأن ما بدا عليه لم يكن على الإطلاق مميزاً بمادة ملونة قد لا توجد في وجه إنسان أبيض، لم يكن متكبّراً ولا هازئاً بل كان عنيداً رابط الجأش فحسب. بعدئذ قال خادم إدموندز شيئاً ما للرجل ناطقاً باسم شخص ما: باسم السيد لوكاس أو شيء من هذا القبيل فعلم هو آنذاك من يكون الرجل وتذكر تتمة القصة. التي كانت أنموذجاً أو جزءاً من ماضي الريف الذي كان خاله

(1) ـ نوع من الملابس.

بين القلة القليلة من العارفين به على أكمل وجه: كما تذكّر كيف لم يكن الرجل مجرّد عبد لأحد أبناء آل مكاسلن عبيد كاروثر العجوز جد إدموندز العظيم بل كان إبناً له أيضاً: عندئذ وقف متمايلاً في مكانه لمدّة بدت له دقيقة كاملة والرجل يرمقه دون أن يعلو وجهه أي تعبير. بعد ذلك استدار الرجل ولم يتحدث ولو شزراً، ومشى في تلك اللحظة، دون أن ينتظر حتى يرى إن كانوا قد سمعوه، تاركاً إياهم للانصياع من تلقاء أنفسهم وقال: «تعالوا إلى بيتي». ردّ هو: «أنا أذهب إلى بيت السيد إدموندز».

لم يلتفت الرجل ولم يحرر جواباً. قال: «احمل بندقيته يا جو».

سار وراء الرجل مع خادم إدموندز يتبعهما ألك ساندر في رتل أحادي بموازاة المسيل المائي باتجاه الجسر والطريق. على حين غرة توقف مرتعداً. كان متبرّداً ومبتلاً تماماً، ومعظم هذه الأمور تتبدد في حال استمراره بالحركة. اجتازوا الجسر، فبدا مدخل بيت مواجهاً الطريق الذي يخترق الحديقة والمؤدي إلى منزل إدموندز على بعد مسافة ميل منه .

كان يدور في ذهنه أنه سيلتمس الدفء ويجفف نفسه بشكل كلّيّ تقريباً فور وصوله في حال الولوج من المدخل الرئيسي، وبغض النظر عن معرفته بعدم حصول شيء من هذا القبيل أو وروده بحيث يغدو خلف البوابة قبل هذه اللحظة، استمر مقتنعاً في أعماقه أن سبب ذلك قد يكون رفض إدموندز السماح له بالخروج ثانية من البيت بحيث يتمكن من العودة إلى أمه، بالرغم من أن إدموندز عازب ولا امرأة في بيته، ظل يقنع نفسه بهذا حتى بعد أن عرف السبب الحقيقي بشكل أوضح وهو أنه كان عاجزاً أن يتصور في نَفْسِه القدرة الكافية في أي حال من الأحوال على الاستمرار في تحدي الرجل الذي تجاهله قدر استطاعته هو تجاهل جده، لا بسبب الخوف أو حتى التهديد بالإنتقام وإنما لأن الرجل الذي تخطّاه كان كَجَدّه عاجزاً عن أن يتصور نفسه إزاء ولد قادر على التحدي والمشاكسة.

لم يدقق النظر بالمدخل عندما عبروه، ولم يعره التفاتة، حيث ساروا في ممر غير مطروق يؤدي إلى سكن الخدم والأجراء موسوم بآثار الأقدام وهو مجرد شرخ، نصفه أخدود مليء بمياه الأمطار، ونصفه الآخر طريق يصعد التلة. كما شاهد البيت والحجرة بعدئذ في حالة رسوخ ووحشة متفردة،

وتذكر بقية القصة الأسطورة: وهي أن والد إدموندز نقل بشكل مطلق إلى ذلك الزنجي الذي وضعه بمنزلة أقرب ورثته، ملكية البيت والأكرات العشر من الأرض المحيطة به ـ وهذه القطعة مستطيل محدد من الأرض في منتصف الألفي أكر من الأراضي الزراعية أشبه بطابع بريدي في وسط المُغَلَّف. كان بيتاً خشبياً، غير مطلي الأركان والسياج، بوابته غير مثبتة بوتد فتحها الرجل بضربة من ركبته مستمراً في مشيته دون توقف أو التفات إلى الخلف ولو مرة واحدة، فيما لحق به هو يليهما كل من ألك ساندر وخادم إدموندز، وخطوا جميعاً خطوة واحدة داخل فناء الدار؛ وهو قطعة من الأرض خالية من الأعشاب حتى في فترة الصيف، تخيلها جرداء تماماً لا شوك فيها ولا أية فرعة خضراء، كما تخيل بعض النسوة من بني قوم لوكاس يكنسن الغبار، بعناية كل صباح بمكانس مصنوعة من قضبان الصفصاف المثبتة إلى بعضها بسلسلة متشابكة من لفافات حلزونية وعقد متداخلة تنطمس تدريجياً أثناء النهار وببسطه بروث البهائم وزَرَق الدجاج الثلاثي الأبعاد (يتذكّر الآن وهو في السادسة عشرة من عمره) كبقعة في رسم منمنم يعبر عن عصر الزواحف العملاقة. استمروا هم الأربعة في مشيتهم، في مكان لم يكن مميزاً لأنه اكتسى بروث البهائم أيضاً بل كان مجرد مسلك ضيق ممتد كخط عمودي على استقامة واحدة بين صفين من صفائح التنك والزجاجات الفارغة وقطع الخزف الصيني والأواني الخزفية الملقاة على الأرض، وصعدوا درجات السلم والشرفة غير المطلية التي توضّعت بمحاذاة حافتها صفائح أكثر عدداً وأكبر حجماً ـ قوامها سطول فارغة سعة الواحدة منها غالون كانت تحتوي فيما سبق على دبس السكر أو طلاء أو ماء مستعمل، إضافة إلى سطول حليب وصفيحة واحدة بسعة خمسة غالونات من الكيروسين منزوعة الغطاء، ونصف المطبخ الحالي (مطبخ إدموندز بلاشك) كان فيما سبق عبارة عن صهريج ماء حار بالغ التعرّج شديد الشبه بالموزة[1] ـ تخرج منها أزهار متعربشة نمت في الصيف الماضي مازالت تنحدر وتتدلى منها سويقات ميتة وحوالق معرّشة يابسة، ومن ثم انتصب هيكل البيت،

(1) ـ تعود إلى صفائح أكثر عدداً.

بنياً باهت اللون بفعل العوامل الجوية دون أن يبدو عديم الطلاء كأنه من الصعوبة التخلص منه، ولم يكن البيت مجرد امتداد للطريق العسير الشاق غير المطروق بل كان تاجاً بالنسبة إليه، كذلك الأمر أشبه بنقوش أوراق شجرة الإيلنطس فوق أحد الأعمدة في العاصمة الإغريقية.

لم يتوقف الرجل بل صعد الدرج، وعبر الشرفة، وفتح باباً يفضي إلى حجرة معتمة، فدخل هو في إثره يليهما ألك ساندر وخادم إدموندز، بدت الغرفة معتمة للقادم من ضوء النهار خارج الباب، واستطاع أن يشم تلك الرائحة التي كان يتقبّلها دون تساؤل طيلة أيام حياته لكونها الرائحة المميزة للأماكن التي يسكنها الزنوج، تماماً مثلما تقبل أن كل الذين يحملون إسم ماليسون هم منهجيو المذهب[1]، تليها غرفة النوم وهي عبارة عن غرفة عارية نظيفة تماماً غير مطلية لا فرش فوقها، في إحدى زواياها سرير ضخم مغطّى بلحاف كبير مزركش بقماش زاهٍ من المحتمل أن يكون قد ورثه من بيت كاروثرز مكاسلن العجوز وخزانة غراندر ابدْس رخيصة الثمن معطوبة الأدراج، لاحظ بعدئذ لبرهة أو أكثر بقليل ـ تذكر أنه شاهد فيما بعد ـ رفّ الموقد الخالي من الترتيب وقد انتصب فوقه مصباح يعمل بالكيروسين يُزَيِّنه نقش يدوي على هيئة وعاء زهور مملوء بلفائف ورقية من صحف مجعلكة وفي أعلى الموقد نقش حجري من رزنامة مضى عليها ثلاث سنوات يظهر فيها بوكونتاس وهو زعيم سيوكي أوتشوبي مرتدياً جلد غزال مزيّن بهداب من ريش القنفذ واقفاً على درابزين من رخام إيطالي مشرف على حديقة قوامها أشجار سرو منسّقة وفي الزاوية المظلمة المقابلة للسرير بدت لوحة يظهر فيها شخصان مصنوعة من الكروم مؤطرة بالخشب المذهب الثمين معلقة على حامل مطلي بالذهب.

لم يشاهد شيئاً من هذا القبيل لأنها كانت خلفه بل كانت النار كل ما وقعت عليه عينه آنذاك وهي تومض من قرمة تدخن باشتعال ناقص محفوفة بالرماد في الوجاق الحجري المطلي بالغضار، إضافة إلى كائن حي

(1) ـ الميثودي أو المنهجي هو أحد أتباع الحركة الدينية الإصلاحية التي قادها في أكسفورد (عام 1729) تشارلز جون ويزلي محاولين فيها إحياء كنيسة إنكلترا...

على الكرسي الهزاز ظن بأنه طفلة قبل أن يشاهد الوجه، بعدئذ أمعن النظر إليها لأنه كاد يتذكر أمراً آخر يتعلق بلوكاس بو شامب أو يخصّه سبق للخال أن أعلمه به، تحقّق بعد أن نظر إليها مليّاً من مدى تقدم الرجل في العمر، ومن أنها امرأة متناهية في الصغر بحجم الدمية. لونها أكثر قتامة من لون الرجل، ترتدي شالاً ومئزراً، رأسها ملفّع بقماش أبيض ناصع تعلوه قبعة قش ملونة عليها بعض الزركشة. لكنه لم يتذكر ما الذي قاله الخال أو أخبره به وبعدئذ نسي أنّه تذكر ما الذي قيل، واستوى على الكرسي بشكل جانبي مقابل المدفأة حيث كان خادم إدموندز يذكي النار بقطع حطب صغيرة وشظايا الصنوبر، بينما كان ألك ساندر جاثماً يشيد بقوة البوط والبنطال المبلّلين، ويتخلص بعدئذٍ من المعطف والقميص، والكنزة الصوفية الغليظة بعد أن انتصب واقفاً، فكان على كل منهما أن يتفادى المكان الذي وقف لوكاس فيه مباعداً بين قدميه حيال الموقد وماحوله، وقد أدار الأخير ظهره للنار مرتدياً بوط الغوما والقبعة والمعطف المصنوع من جلد الغنم، بعد ذلك غابت المرأة العجوز التي تقل عنه وتماثل ألك ساندر طولاً رغم أنهما في الثانية عشرة من العمر، وعادت إلى جانب الرجل حاملة شراشف زاهية مزركشة على ذراعيها.

قال الرجل: «انزع ملابسك».

قال هو: «لن أنزعها».

أعاد الرجل قوله: «انزع ملابسك».

وهكذا نزع الطقم المبلّل أيضاً وعاد إلى الجلوس على الكرسي مرة ثانية أمام النار التي كانت تضطرم وتتقد، وقد تدثر باللحاف مثلما تتدثر الشرنقة، وأحيط من كل جانب برائحة الزنوج المميزة وهي رائحة لو لم تكن إشارة لأمر سيقع له وشيكاً وبالتحديد في مدىً منظور بالثواني لكان قد نزل قبره دون لحظة تفكير أو تأمل بأنها رائحة لا تميز عرقاً بشرياً في حقيقة الأمر، وليست مقترنة بالبؤس عملياً بل هي دليل على وضع: فكرة: اعتقاد: تسليم، تسليم سلبي لأبناء ذلك العرق من تلقاء أنفسهم بالفكرة القائلة أن من غير المفترض أن ينالوا ما يساعد على الاغتسال كما

ينبغي أو أن يستحموا دون أن تتاح لهم أية تسهيلات طالما أنهم زنوج؛ بالأحرى هذا ما كان يحول دون قيامهم بالاستحمام. من جانب آخر لم تكن الرائحة لتعني شيئاً آنفاً أو لاحقاً، هذا ما كان بعد ساعة من حصول الحادثة وقبل أن يتأكد من مضاعفاتها بعد انقضاء أربع سنوات، وربما بلغ سن الرجولة دون أن يتيقّن مما نابه منها ألا وهو الإقرار بقبول تلك الحقيقة.

على هذا النحو فحسب استنشق الرائحة وصرف النظر عنها لأنه بدأ اعتيادها، لقد استنشقها وسوف يستمر باستنشاقها طوال حياته: وهو الذي أمضى ردحاً من عمره في فناء مقصورة بارالي والدة ألك ساندر الواقعة خلفهم حيث كان وألك ساندر يلعب في الطقس الشتوي عندما كانا صغيرين بينما تنهمك بارالي بطبخ وجبات كاملة لهما في الأوقات الفاصلة بين الوجبات في البيت، فيتناولها مع ألك ساندر، كان طعم الأكل واحداً بالنسبة لكليهما لم يخطر له في بال أن تختفي الرائحة من الكون إلى غير رجعة. لقد شمّها دائماً، وسوف يشمّها إلى الأبد، إنها جزء من ماضيه الذي يستحيل تجاهله، وجانب خصب من تراثه كإنسان جنوبي؛ يجب عليه ألا يغض الطرف عنها، بالنسبة إليه لم يعد الأمر مجرد استنشاق بل غدا مثل مدخن غليون، لم يعد ضباب الغليون البارد بالنسبة له مجرد عملية استنشاق وإنما جزء لا يتجزأ من ملابسه كالأزرار والعراوي، سمع ألك ساندر وخادم إدموندز ينهضان من مجثمهما إزاء الجدار ويغادران الغرفة، في عفن اللحاف الحار جلس يغالب النعاس بعض الوقت آخذاً قسطاً من النوم، مندسّاً في نتانة اللحاف الدافئ الكريه الرائحة، وبعد هنيهة وقف الرجل فوقه مستديراً بظهره إلى النار عاقداً يديه خلف الظهر تماماً مثلما شاهده لأول مرة عندما تطلع خارجاً من المسيل المائي لكن دون الأيادي المتشابكة والفأس والمعطف المصنوع من جلد الغنم، كان يرتدي حذاء غوما ورداءً سروالياً باهت اللون كالذي يرتديه الزنوج، إضافة إلى ساعة ذهبية من طراز رفيع فوق الجزء العلوي من الرداء السروالي، وقد أحسّ بعد أن دخلوا الغرفة على الفور بالرجل يستدير ويأخذ شيئاً ما من رفّ الموقد المتراكم ويضعه في فمه، تأكد فيما بعد أنه مسواك أسنان ذهبي كالذي يستخدمه جدّه؛ أما القبعة فكانت لفاعاً بالياً يدويّ الصنع مثل التي دفع جده ثلاثين

أو أربعين دولاراً ثمناً للقطعة الواحدة منها، لم تكن مركّزة بل مائلة قليلاً فوق الوجه المصبوغ كوجه الزنجي على أنفٍ عالٍ معقوفٍ قليلاً من قصبته دون أن يبدو الوجه خلفه ومن خلالها أسود أو أبيض، متغطرساً أو هازئاً البتّة إنما كان وجهاً ملولاً صلباً راسخ القسمات فحسب.

بعدئذ عاد ألك ساندر بالثياب التي جفّت وبقيت محتفظة ببعض من دفء الموقد فارتداها وأدخل قدميه في البوط المتيبس بينما كان خادم إدموندز يجثم إزاء الجدار من جديد مستمراً في تناول ما في يده من طعام، فقال هو: «سأتناول طعامي عند السيد إدموندز».

لم يفصح الرجل عن رفض أو قبول ولم يظهر أية ردة فعل، بل لم يعر التفاتة إليه ، بل اكتفى بالقول في فظاظة وبرود: «أعددت الطعام ووضعته في الصحون».

واتّجه نحو السيدة العجوز التي توقفت إلى جانب الباب كي تسمح له بالمرور إلى المطبخ: كانت الطاولة الموضوعة في الجزء المعرّض للشمس عند نافذة مطلة على الجنوب مغطاة بقماش زيتيّ اللون ـ لم يعرف كيف ميّزها لعدم وجود إشارات أو دلائل أو أدوات مائدة قذرة تدل عليها ـ كان خادم إدموندز وألك ساندر قد تناولا طعامهما من قبل، فجلس وتناول بدوره ما اتّضح أنه عشاء لوكاس ــ المؤلف من أوراق الملفوف الخضراء، وشريحة مقليّة من لحم الفخذ ومغمّسة بالطحين، وقطعة فطائر باهتة اللون كبيرة ومسطحة مشويّة غير ناضجة، وكأس من العيران: إنه طعام زنوجٍ أيضاً، فرضي به وغضّ الطرف عنه، كذلك الأمر لأنه كان مثلما توقع تماماً، وهذا هو غذاء الزنوجٍ الذي أحبوه واختاروه على ما يبدو (في سن الثانية عشرة، كان رجلاً بالغاً قبل أن يخوض في أول سؤال حول الشّكّ في هذا الأمر) وذلك ليس من خارج تاريخهم بل هو كل ماواتتهم الفرصة أن يتعلموا إشتهاءه من صنوف الطعام باستثناء أولئك الذين كانوا يأكلون خارج مطابخ الزنوج. إنما اختاروا هذا من بين كل أنواع الطعام لأنه يشكل ذوقهم في الأكل ويماشي تكوين خلاياهم فيما بعد.

لدى مرور عشر دقائق، وبعدئذ طوال السنوات الأربع التالية ظل يحاول إقناع نفسه أن ذاك الطعام هو الذي كوّنه بسرعة وسهولة على أنّه عرف

على نحو أفضل ما دام على قيد الحياة خطأه الأساسي الكامن في سوء محاكمة تلك المسألة، إذ لا داعي أن تثيره رائحة البيت واللحاف كي ينجو مما بدا (ليس ممّا انعكس على): فقط مما بدا علي. وجه الرجل، فينهض في النهاية ويحمل النقود ويضع نصف الدولار في يده ومن ثم يتجه إلى الغرفة الأولى: حيث شاهد للمرة الأولى صورة جماعية مؤطرة بإطار ذهبي موضوعة على حاملها المذهب لأنه تصادف أن يواجهها الآن فيتجه إليها، وينحني ليمعن النّظر في زاويتها المظلمة حيث كانت صفيحة ذهبية رقيقة تلمع بجلاء، وذلك قبل أن يدرك ما هو فاعل. كان من الواضح أن الاستنتاج إيّاه أكثر إقناعاً، فمن وراء قبة الزجاج البرّاقة الدائرية التي تبدو للرائي ككرة من الكريستال بدا له الوجه الأسود المتجهّم ثانية، وتحته ياقة منشاة، دون ربطة عنق، مربوطة إلى قميص أبيض موشى بأزرار ياقة على هيئة رأس الأفعى وبحجمها تقريباً، إضافة إلى سلسلة ساعة مثبتة على قماش من الجوخ داخل معطف جوخ، مع غياب مسواك الأسنان فحسب، وبجانبه امرأة ضئيلة أشبه بالدمية ترتدي قبعة ملوّنة أخرى من القش وشالاً، لابد أن تكون هذه امرأة رغم أنها لا تشبه أي شخص سبق له أن شاهده، وبعدئذ تحقق من أن المسألة لم تتوقف عند هذا الحد: بل كان الأمر المتعلّق بها مروعاً ومغلوطاً إلى درجة كبيرة: رفع بصره عندما تحدثت وبقي الرجل مباعداً بين قدميه أمام النار وعادت المرأة للجلوس مرّة ثانية على الكرسي الهزاز في مكانها المعهود، في الزاوية تقريباً، دون أن تنظر إليه، بل تأكد أنها لم تنظر إليه البتّة منذ أن عاد ودخل حيث قالت: «هذا نذر يسير من أعمال لوكاس». وردّ هو قائلاً: «عم تتحدثين؟».

أجاب الرجل: «موللي لا تحب هذه اللوحة لأن المصوّر أزاح غطاء رأس موللي». كان هذا كل ما في الأمر، إذ بدا شعرها مثل شعر جثة منتفخة ينظر المرء إليها من تحت غطاء كَفَن محكم الربط. وخطر في ذهنه موللي. بالطبع لأنه تذكر في تلك اللحظة ما أخبره الخال عن لوكاس أو عنهما فبادر إلى القول: «ولِمَ نزع غطاء الرأس؟».

أجاب الرجل: «أنا أمرته بذلك لأنني لم أرغب في وضع صورة أي حقل فاحم في البيت».

عندئذ اتجه نحوهم وقد أعاد وضع الكف الممسكة بنصف الدولار في جيبه وجرف بواسطتها الدايم والنكلتين[1] ـ كل ما يملك ـ إلى راحة كفه وقال: «أنا من المدينة. خالي المحامي جافن ستيفنس يعرفك».

ردّت المرأة: «أتذكر أمّك أيضاً. إنها السيدة ماجي دانبريج».

ردّ هو قائلاً: «تلك جدتي. أما إسم والدتي فهو ستيفنس أيضاً».

مد يده بالنقود، وعرف في لحظة لا يمكن نسيانها إلى الأبد أنه قد تأخر ولن يَنْسى ما دام حياً إبان الثانية التي عُلم فيها أنها ستأخذ النقود وقفة لوكاس والدم يغلي في عروق رقبته ووجهه غليان الثواني نفسها، وفي كفه أجزاء تبعث على العار من المعدن المصهور المصكوك، إلى أن أظهر الرجل في النهاية ما يمكن اعتباره طقساً من الشفقة في الحد الأدنى.

أجاب الرجل: «لِمَ هذا؟» دون أدنى حراك، بل دون أن يدير الوجه نحو الأسفل للنظر إلى ما كان على كفه: طوال فترة أخرى بدت دهراً تدفّق الدم الحار تماماً في النهاية ليجعله قادراً على الاحتفاظ بماء الوجه وتأمل راحة يده وهي تميل دون أن تكتفي برمي النقود بل أن تقذف بها بعيداً لتتدحرج محدثة الصدى على الأرض العارية، فتزيد واحدة من القطع المعدنية المتدحرجة بعيداً في منحدر مائل محدثة صوتاً ضئيلاً قاسياً مثل صوت انطلاق فأر صغير. وتناهى إليه صوت يقول: «التقطها».

لم يحدث ما يستحق الذكر بعدئذٍ، ولم يتزحزح الرجل، بل أبقى يديه مشبوكتين. خلف ظهره، دون أن يوجه نظره وجهة محددة. اندفاع الدم الحار السميك أخرج النداء الذي لم يكن موجهاً إلى أحد: «التقطوا نقوده» سمع ألك ساندر وخادم إدموندز ورآهما يصلان ويعودان بين الظلال القريبة من وجه الأرض. أردف الصوت قائلاً: «أعيدوها له». وشاهد خادم إدموندز يرمي قطعتيه النقديتين في كف ألك ساندر كما شعر بيد ألك ساندر تلتقط القطع الأربع وتلقي بها داخل راحة يده المترنحة. وعاد الصوت إلى القول:

«اذهب الآن. تصيَّد الأرانب. ولا تعد للسقوط في تلك الساقية».

---

(1) ـ الدايم: واحد من عشرة من الدولار، والنكلة من أصغر أجزاء الدولار.

الفصل الثاني

من جديد كانوا يسيرون في جو خفيف البرودة (رغم أن الوقت ظهراً ومن المحتمل أن الحرارة في أعلى معدل لها هذا اليوم) عائدين عبر الجسر القائم فوق الجدول (وعلى حين غرة: تلفتوا حولهم بعد أن ساروا مسافة نصف ميل تقريباً بمحاذاة الجدول دون أن يتذكر شيئاً من هذا القبيل) طارد الكلب أرنباً في أجمة متشابكة من الورد البري على طرف أحد حقول القطن فاضطره إلى الخروج ثانية من كثرة نباحه الهستيري ولأول وهلة بدا كتلة صغيرة داكنة السمار مطعمة ببقع صفراء كروية الشكل متقاربة مغلقة مثل كرة الكريكيت ولوهلة أخرى أشبه بأفعى خارجة من الدغل أمام الكلب، وقد تعرج خط ذنبه القصير بين هيكل صفوف القطن كشراع قارب للّعب في بركة هائجة، ومن خلال الأجمة صاح ألك ساندر: «أطلق النار عليه! أطلق النار عليه!».

وأعاد القول: «لم لا تطلق النار عليه؟».

فيما بعد استدار دونما إبطاء ومشى بثبات نحو الجدول وأخرج قطع العملة الأربع من جيبه وألقى بها في الماء: في تلك الليلة علم دون أن يغمض له جفن، أن ذلك الطعام ليس أفضل ما لدى لوكاس فحسب بل كان ما يمكن أن يقدمه لوكاس. في ذلك الصباح لم يخرج في زيارة إلى إدموندز بل في زيارة إلى مزرعة كاروثرز مكاسلن القديمة التي عرفها لوكاس قبله فتفوق

لوكاس بذلك عليه، ووقف مباعداً بين قدميه أمـام الموقـد، وتنـاول سنتاته السبعين ورماه بهم دون أن يحرك يديه المشبوكتين خلف ظهره، فيما كـان هو يفكر وقد تملّكه بعض الغيظ بالرجل الذي لم يشاهده سوى مرة واحـدة. وبتلك الساعات الاثنتي عشرة الماضية فقـط، وقـد اكتشـف بعـد ذلـك بعـام واحد أن كل أبيض في تلك البقعة من قاصيها إلى دانيها كان مشـغول البـال بذلك الشخص، ولمدة سنوات على النحو التالي: *لا بد أن ندع ذلك الزنجي يعرف حدوده. لا بد أن يقرّ بأنه مجرد زنجي وضيع. في ذلك الحال فقط نقبل به مثلما يطيب لـه أن يعتبر نفسه*. وذلـك لأنـه بـدأ علـى الفـور يكتشف كثيراً من الأمـور الـتي تخـصّ لوكـاس. وهـو لم يسـمع بهـا، بـل تعلّمها، لأن أي شخص عرف ذلك الجزء من البلاد قادر على التحدث عن الزنجي الذي يقول «يا ست» تماماً مثلما يقول الأبيض ويقول لك «يا سـيد» أو «يا أفنذي» إذا كنت أبيض دون أن يشغل اهتمامـه بمـا يـدور في خلـدك بغض النظر عن احتمال معرفته له، ولم يكن ينتظـر، ليسـمح لـك بـالإقدام على ردّة فعل، لأنه لم يكن يبالي، ومـن الممكـن ذكـر الواقعـة التاليـة علـى سبيل المثال.

منذ ثلاث سنوات خلـت، وبعـد ظهـر أحـد أيـام السـبت. اعتـاد كـل المستأجرين أو المؤجرين أو الملاّكـين مـن البيـض أو السـود في الجـوار علـى الأقل أن يمرّوا ويتوقّفوا بشكل اعتيادي، في مخزن واقـعٍ علـى بعـد أربعـة أميال من دار إدموندز في فترة بعد ظهر السبت. وكثـيراً مـا كـانوا يشـترون بعض الحاجات. بعد أن يربطـوا الخيـول والبغـال المسرجة المعقـورة وسـط أشجار الصفصاف والبتولا والجميز في الوحل المداس بالأقدام تحـت النبـع، فيما كان راكبوها يحتشدون مالئين المخزن برمّته على مقعـد أمـام المخـزن، ويتنـاولون زجاجـات الكـازوز وينفثـون الدخـان واقفـين أو مقرفصـين علـى أعقابهم. والذيـن يدخّنـون السـجائر يتقدمـون إلى الأمـام بسـرعة ويقدحـون أعواد الثقاب في غليونات معدة للاستعمال. في ذلك اليوم أمّ المكان ثلاثة من الشبان البيض العاملين في المنشرة القريبة عُـرف أحدهـم بـالميل إلى الشـجار والعنف، بعد أن لعبت الخمر في رؤوسهم بعض الشـيء. كمـا جـاء لوكـاس مرتدياً بدلة بالية من الجـوخ اعتـاد ارتداءهـا في طريقـه إلى المدينـة في أيـام

الأحد مع قبعة جميلة بالية وسلسلة ساعة ثقيلة ومسواك وحصل ما حصل. لم تذكر القصة أو توضح ما هو سبب الحادثة الذي قد يكون طريقة لوكاس في المشي، إذ دخل دون أن يتكلم إلى أحد، وذهب إلى طاولة البيع، واشترى حاجته، التي كانت كرتونة من فطر الزنجبيل بقيمة خمسة سنتات، واستدار، ومزّق نهاية الكرتونة مزيحاً مسواك الأسنان واضعاً إياه في جيب صدره، وهزّ واحدة من فطائر الزنجبيل بكفه وازدردها، ومن المحتمل ألا يكون هذا سبباً كافياً للشجار إلا أن الرجل الأبيض انتصب فجأة واقفاً على قدميه وقال للوكاس: «يالك من أسود نتن! متيبس الرقبة! شعرك كالشوك! يا إدموندي يا ابن العاهرة».

مضغ لوكاس فطائر الزنجبيل وابتلعها. مرة ثانية مالت الكرتونة فوق يده الأخرى أدار يده ببطء شديد، ونظر إلى الرجل الأبيض لبرهة ثم قال: «لست من أزلام إدموندز. ولا أنتمي للأقوام الجدد. أنا من القدامى. أنا لست من آل مكاسلن».

ردّ الأبيض قائلاً: «إذا ما عدت للاقتراب من هذا المكان، وبهذه الهيئة، فلن تكون إلا طعاماً للغربان».

طوال دقيقة أخرى أو نصف دقيقة على أقل تعديل نظر لوكاس إلى الأبيض، وتفحّصه برمّته. تمايلت الكرتونة، ببطء أيضاً، في إحدى يديه وسقطت فطيرة أخرى في يده الثانية، آنذاك مصّ أحد أسنان فكه الأعلى، محرّكاً شفته، محدثاً أصواتاً صاخبة في الصّمت الذي هيمن فجأة، دون أن يعلوه أي انفعال من سخرية أو اهتمام أو رفض، دون مبالاة أو أية ردّة فعل أخرى على الإطلاق سوى الذهول، عاد إلى مصّ سنّه، مثلما يفعل من يأكل فطائر الزنجبيل في عزلة على مسافة مائة ميل وبادر إلى القول: «سمعت بشيء من هذا القبيل سابقاً. لاحظت أن الذين يؤمنون بها لا يتحدّرون من الإدمونديين إطلاقاً».

عندئذ ارتد الرجل الأبيض إلى الخلف، وصل كيفما اتفق إلى نصف دزينة من أخشاب المحاريث موضوعة خلفه على طاولة البيع، وانتزع واحدة منها. في نفس اللحظة قفز ابن صاحب المحل، وهو بدوره شاب

شديد البأس، إلى طاولة البيع، ومن فوقها أمسك بالخشبة بحيث انسابت عبر المشى، دون أن تحدث ضرراً، وتحطّمت على الموقد البارد، ومن ثم بادر شخص آخر إلى الإمساك بالرجل أيضاً.

قال ابن صاحب المحل بلهجة آمرة: «اخرج من هنا يا لوكاس».

ظل لوكاس ساكناً بلا حراك، بهدوء تام، دونما استهزاء ولا حماس ــ الكرتونة الملونة مازالت متوازنة في يده اليسرى وقطعة الكعك الصغيرة في اليمنى ـ بل اكتفى بالمراقبة، بينما قام ابن صاحب المحل وأحد الزبائن بإمساك الرجل الأبيض الذي كان يرغي ويزبد. عاد ابن صاحب المحل إلى القول: «اخرج إلى الجحيم من هنا أيها الأحمق اللعين!».

عند هذا الحد تحرّك لوكاس، دونما إسراع، مستديراً، خارجاً باتجاه الباب ببطء، رافعاً يده اليمنى إلى فمه بحيث منحهم فرصة مشاهدة مقدرته الفائقة على المضغ وهو يغادر المكان.

ذلك النصف دولار سبب المشكلة. المبلغ الفعلي سبعون سنتاً بالطبع مؤلف من أربع قطع، مضت فترة طويلة على تلك الأعشار من الثانية التي استُغْرِقتْ في استبدالها إلى قطعة نقدية واحدة صحيحة في الحجم والوزن لاتناسَب بينها وبين قيمتها القابلة للتحويل؛ في بعض الأحيان كان يقول في نفسه، بعد أن استُنْفِذت طاقته الحيوية على الطوى والأسى وأي أمر آخر وسكنت في لحظة كان يقول في نفسه: *معي نصف دولار، على الأقل لدي شيء ما* لأن بطل خطيئته ـ الرجل، الزنجي، الغرفة، اللحظة، اليوم بحد ذاته ــ لا خطيئته والعار الناجم عنها فحسب قد تصلّبوا جميعاً وتلاشوا في نقش العملة الدائري وبات يتجلّى بينه وبين نفسه مستلقياً يرقب دون شعور بالأسى والندم ودون حد أدنى من الاطمئنان، القطعة النقدية، وهي تتعاظم يوماً بعد يوم إلى أن بلغت الحد الأعظمي لها، لتتدلى أخيراً وإلى الأبد في سرداب كربه المظلم مثل قمر شاحب باهت، ويرقب نفسه بظله الضئيل المحدود المتناهي في الصغر، وقد بات بالمقابل بالغ الهياج في فترة من فترات انحساره العبثية: كان مغتاظاً يائساً لا يعرف التعب سبيلاً إليه لأنه لن يتراجع، كما أنه لا يستطيع البتة أن يتجاهل من لم يكتف باحتقار رجولته فحسب بل احتقر كل بني قومه.

في فترة بعد الظهر عقب دوام المدرسة من كل يوم، ويوم السبت بكامله، كان يذهب إلى مكتب الخال، ما لم تجر مباراة كرة أو يذهب إلى الصيد أو يضطر إلى القيام بأمر يتوجب عليه إنجازه، فيردّ على الهاتف وينقل رسائل شفهية تتشابه فيما بينها من حيث المسؤولية إن لم تتشابه فيما بينها من حيث الضرورة، فكان هذا على أقل تعديل جزء من استعداده الذاتي لتحمّل جزء مما يقع على عاتقه. شرع بذلك عندما كان طفلاً. ونادراً ما كان يتذكّر ذلك الانقياد الأعمى المطلق نحو شقيق أمه الوحيد الذي لم يحاول إيجاد مبرر له، فمارس العمل إيّاه منذ ذلك الحين، وفيما بعد في سن الخامسة والسادسة والسابعة عشرة، راح يفكّر بقصة الولد وعجله المدلّل الذي كان يرفعه فوق سياج المرعى كل يوم، ومرت السنون فأوجدت رجلاً ناضجاً وثوراً ضخماً يقفزان فوق سياج المرعى يومياً. وتخلّى الولد عن عجله. على مدى الأسابيع الثلاثة التي سبقت عيد الميلاد وفي كل يوم سبت وطوال فترة بعد الظهر عقب انتهاء المدرسة كل يوم، كان يذهب إلى الساحة أو إلى مكان يتمكن فيه من المشاهدة والمراقبة.

طوال يوم أو يومين ظلّ الجوّ بارداً، بعدئذٍ تحسّن، إذ هدأت الرياح، وغابت الشمس الساطعة، وهطل المطر ذات يوم وهو يمشي أو يتوقف في الشارع أمام واجهات المحلات المليئة بالدمى وببضائع عيد الميلاد والمفرقعات والأضواء الملوّنة والنباتات الدائمة الخضرة والبهرجات، ومن خلف واجهة الصيدلية المشبعة بالبخار أو من وراء واجهة صالون الحلاقة، راح يراقب وجوه الريفيّين وصرّتين تحتويان على أربع لفائف سيجار يبلغ ثمن زوج منها ربع دولار، للوكاس إضافة إلى عبوة من السعوط لزوجته مغلّفة بورق الميلاد اللمّاع في جيبه، بعدئذٍ التقى إدموندز وأعطاها له ليسلّمها للوكاس في صبيحة الميلاد. هكذا على وجه التحديد ردّ دين السبعين سنتاً، بفائدة مضاعفة؛ بعد أن غدا ذلك الدين مجرّد قرص مدور مسطح خامد متدل في لجة سوداء من الهياج والعجز: *ليته كان مجرد زنجي وضيع بادئ ذي بدء لمدة ثانية واحدة فقط، ثانية ضئيلة متناهية في الصغر.*

في شهر شباط بدأ يوفر ماله البالغ خمسة وعشرين سنتاً يعطيها له الوالد كخرجية في كل أسبوع وخمسة وعشرين سنتاً يدفعها الخال له

كراتب لقاء عمله في المكتب. إلى أن توفر لديه في شهر أيار مقدار وافر من المال فاختار بمساعدة أمه فستانا حريرياً تقليدياً مزيناً برسوم الزهور وأرسله بالبريد إلى موللي بوشامب على عنوان كاروثرز إدموندز عميد الأسرة الفعلي. وشعر أخيراً بشيء من راحة البال لأن الغيظ قد ولّى، وظل الأسى والعار أبعد من أن يطالهما نسيانه، كما بقي القرص الدائري معلقاً في السرداب الأسود، غير أن ما يقارب العام مضى الآن على الحادثة، وبذلك لم يكن السرداب بحد ذاته على قدر من السواد مع دائرة القرص الذي كان باستطاعته النوم تحته كنومه لفترات يقطعها الأرق تحت قمره الشاحب الآخذ بالأفول في خاتمة المطاف.

وجاء شهر أيلول، فيما بعد، وحلّ أوان دوام المدرسة في ظرف أسبوع.

ذات يوم وصل إلى البيت بعد الظهر وكانت الأم بانتظاره.

قالت: «هذا الغرض لك». كان ذاك الغرض دلواً بسبعة إنش مكعب من دبس السرغوم[1] الطريّ محلّى بالسكر ومصنوع منزلياً، فعلم الجواب على الفور قبل أن تكمل كلامها بكثير.

أردفت قائلة: «أرسله إليك أحد الأشخاص من مزرعة السيد إدموندز».

قال بصوت عال يصل حدّ الصراخ: «إنه لوكاس بو شامب. منذ متى ذهب؟ ولماذا لم ينتظّرني؟».

أجابت الأم: «لم يحضره بنفسه، بل أرسله مع أحد الأولاد البيض على البغل».

هذا كل ما في الأمر. عادوا تماماً من حيث أتوا. وهذا كل ما يمكن عمله من جديد، وهذا أسوأ مما سبق لأن لوكاس في هذه المرة استخدم أحد البيض في إعادة المال وتسليمه له. تأكد بعدئذٍ أنه لا يستطيع أن يقدم على ذلك ثانية لأنه إذا ما أخذ صفيحة الدبس وأعاد قذفها أمام باب لوكاس

(1) - SORGHUM السرغوم: عصير الذرة السكرية والسرغوم عبارة عن نبات الذرة يستخرج من بعض أنواعه (الذرة السكرية) عصير سكّري وتتخذ من بعضها الآخر (ذرة المكانس).

سيكون ذلك بمثابة نقود يأمر لوكاس أحد الأشخاص بالتقاطها وإعادتها، ولا يستطيع أن ينوّه عن اضطراره إلى ركوب فرس شتلاند القزم الذي رعاه - كان خجلاً من ذلك عدا عن أن أمه لم توافق على أن يمتلك حصاناً بالحجم الطبيعي أو على الأقل أي نوع من الخيول بالحجم الطبيعي الذي كان يرغب به ووعده الخال باقتنائه - سبعة عشر ميلاً من أجل الوصول إلى الباب ورمي الصفيحة أمامه. من المفترض أن يحصل هذا، لأن ما يشعره بالحرية كان أبعد من متناول يده ووراء آفاق بصره. وكل ما في وسعه هو انتظار مجيء الفرس أو التصرف بدونه إذا لم يأت.

بعد مرور أربع سنوات شعر بالحرية طوال ثمانية عشر شهراً تقريباً وتذكّر باقي تفاصيل الحكاية: العجوز موللي ماتت وانتقلت ابنتها وابنة لوكاس المتزوجة إلى ديترويت برفقة زوجها، وسمع أخيراً بالصدفة عن طريق إشاعة بعيدة ومتأخرة أكثر مما ينبغي أن لوكاس كان يعيش وحده في البيت، منعزلاً عنيداً دونما أنسباء، ومن الواضح أنه لم يكن من غير أصدقاء، حتى من بني قومه، فحسب بل كان فخوراً بذلك. كما شاهده مرات ثلاثاً إضافيات، في ساحة البلدة وليس دائماً في يوم السبت - في حقيقة الأمر مضى عام منذ آخر مرة شاهده فيها قبل أن يتأكد أنه لم يعد يشاهده البتة في البلدة يوم السبت وقت قدوم جميع الزنوج الآخرين ومعظم البيض من الريف، وقبل أن يتأكد أنه لم يمض على المناسبات التي شاهد فيها لوكاس سوى سنة وأن سبب مشاهدته لم يكن تصادف حضور لوكاس مع مروره هو عبر الساحة بل تلازم مروره مع زيارات لوكاس السنوية والضرورية - بل في أيام الأسبوع الأخرى عدا الأحد على طريقة الملاّكين لا المزارعين البيض، الذين كانوا يرتدون ربطات عنق وصداري كالتي يرتديها التجار والأطباء والمحامون. أما إذا تواضع أو تنازل ولو عن القليل من هذا السلوك الذي هو أبعد ما يكون عن سلوك الزنوج الريفيين تحديداً وسلوك الزنوج عموماً، فكان يرتدي دائماً بدلة سوداء من الجوخ تبدو أنها كانت غالية الثمن في يوم من الأيام من نوع القماش المستعمل في لوحة مخملية مثبتة على مسند ذهبي، مع قبّعة جميلة مخدشة وقميص أبيض مجعلك مغسول بالغلي منذ زمن جده وقبّة بلا ربطة عنق وسلسلة الساعة الثقيلة

والمسواك الذهبي الذي اعتاد جده أن يحمله في جيب صدّارته الأعلى: المرة الأولى التي شاهده فيها كانت في الشتاء التالي، حيث بادر هو إلى الكلام وتذكره لوكاس على الفور، وشكره هو على دبس السكر فأجابه بنفس الطريقة التي كان يتبعها جده دونما تغيير في الكلمات والتعابير:

«كان الدبس جيداً هذا العام. عندما صنعته، كثيراً ما خطر في بالي كيف يشتهي الولد أن يحرك ضرسه بالدبس الجيد».

واستمر قائلاً بلهجة آمرة: «لا تعد للسقوط في السواقي مرة أخرى هذا الشتاء».

بعد ذلك شاهده مرتين أخريين ـ كان يرتدي الطقم الأسود، والقبّعة، وسلسلة الساعة لكن من غير المسواك في المرة التالية، إذ نظر لوكاس مباشرة إليه، بالتحديد إلى عينيه من مسافة خمسة أقدام، ومر به، ففكر هو في نفسه *لقد نسيني، لم يعد يتذكرني بأي شكل من الأشكال* وعندما حلّ العام التالي قال الخال إن الزوجة العجوز موللي قد توفيت منذ عام مضى. لم يكترث بالأمر، فحدا هذا به إلى التساؤل بعدئذٍ كيف تصادف أن يعلم الخال بأمر الوفاة (من الواضح أن إدموندز أخبره) لأنه كان يأخذ ما مضى بعين الإعتبار، وخطر له بشعور من التبرير والاطمئنان والانتصار تقريباً: *توفيت إذن. لذلك لم يشاهدني. ولذلك لم يحمل المسواك*: وفكر بنوع من الذهول: *كان في الحِدَاد. لستَ معذوراً في عدم التعزية حتى لو لم تكن زنجياً*.

بعدئذ استسلم للانتظار، مكثراً من التردّد على الساحة، مثلما كان يفعل قبل سنتين خلتا عندما ترقّب إدموندز ليعطيه هديّتي عيد الميلاد كي يسلّمها لهذا الأخير، ومثلما كان يفعل أثناء الشهرين أو الثلاثة أو الأربعة التي سبقت اللقاء بلوكاس بالمصادفة في البلدة مرة كل عام في شهري كانون الثاني وشباط، وللمرة الأولى عرف السبب فيما بعد وهو مجيء لوكاس لدفع الضرائب السنوية المترتبة على أرضه. حصل ذلك بعد ظهر أحد أيام كانون الثاني المنصرم الباردة.

كان واقفاً على زاوية المصرف في الشمس المنعشة، فشاهد لوكاس خارجا من سراي الإقليم عابراً الساحة باتجاهه مباشرة، مرتدياً الطقم الأسود وقميصاً بلا ربطة عنق والقبّعة القديمة الجميلة الأنيقة المائلة، وقد سار

منتصب القامة بحيث لامس المعطف كتفيه من المكان الذي يتدلى منه فقط. وشاهد آنذاك شيئاً يبرق للأسفل قليلاً تبيّن أنه المسواك الذهبي، وكان بوسعه أن يشعر بعضلات وجهه، فانتظر، ليتطلع لوكاس ملياً، ومرة ثانية نظر لوكاس إلى عينيه مدة تقارب ربع دقيقة، ومن ثم نظر بعيداً وجاء في خط مستقيم، بعد ذلك خطا قليلاً بشكل جانبي، ومرّ به متابعاً طريقه، دون أن يلتفت إلى الخلف بتاتاً، تاركاً إياه واقفاً على حافة الحاجز الحجريّ في الشمس الدافئة المعتدلة قائلاً بينه وبين نفسه *(لم يكلف نفسه بتذكّري هذه المرة. لم يعرفني. لم يكترث حتى بنسياني)* وهو يفكر بنوع من الطمأنينة (انتهى الأمر). *هذا كل شيء* لأنه كان حراً، وهكذا خرج الرجل الذي ظل طيلة ثلاث سنوات هاجساً يؤرق حياته في اليقظة والمنام من دائرة اهتمامه.

بالطبع شاهده مرة ثانية؛ مما لا شكّ فيه أنهما سيعبران أحد شوارع البلدة في مرة كهذه كل عام مادام لوكاس حياً لكن الأمر انتهى، وغدا الشخص الذي كان رجلاً مجرّد شبح عندما أمر اثنين من الأولاد والزنوج بالتقاط نقوده وإعادتها إليه شيئاً مختلفاً كما بقيت ذكرى الطفل، الذي قدّم النقود ورماها بعدئذٍ، والذي ظلّ يحمل شعوراً بالمهانة، إلى سن الرجولة، ممزوجاً بالمرارة والسّخط وحب الإنتقام والثأر لا لشيء سوى لإعادة اعتباره وإعادة وتأكيد ذكورته وبكل بساطة نقاء دمه الأبيض.

ذات يوم لن يعود الرجل ذلك الشبح الذي أمر بجمع النقود، أو الآخر الذي شعر بالعيب والمرارة مجرد ذكرى واستعادة بل همسة ونفثة أشبه برائحة متأرجحة بين الحلاوة والمرارة والحدّة لنبات الحماض تناوله ولد أثناء طفولته المنصرمة، إذ يتذكرها في لحظة التذوق، وينساها قبل أن تأخذ مكانها وتدخل الذاكرة من جديد، تهيأ له ذلك كلّه كأن رجالاً مسنين، في أرذل العمر، يلتقون في نقطة ما، من ذلك العذاب الواقع على نهايات الأعصاب المكشوفة بلا تخدير، ويتمنى الناس لهم البقاء على قيد الحياة، لأنه لايوجد تعبير أفضل من ذلك، وهو عذاب غير مميّز، كأن خمسين عاماً من حالات التناقض بينهم لا يمكن عدّها أو إحصاؤها، وتشبه حبات الرمل في كومة فحم وتخيّل نفسه يقول للوكاس *(أنا ذلك الولد الذي حاول*

دفع ثمن نصف العشاء الذي قدمته لـه بقطعـة نقدية مـن فئـة السـبعين سنتا. وألقيتها على الأرض حفظاً لماء الوجه. ألا تذكر؟ فيرد لوكاس *أكـان ذاك أنا؟* أو العكس بالعكس فيأتي دور لوكاس ويقول *ذاك الرجـل الـذي لم يلتقط نقودك عندما ألقيتها على الأرض هو أنـا. وأنـا أيضـاً مـن استدعى ولدين زنجيين فالتقطاها وسلّماها لك. ألا تتذكـر؟* فيـأتي دوره هـذه المـرة ويقول: هل كان ذلك الشـخص أنـا؟ وينتهـي الأمـر في تلـك اللحظـة. أدار وجنته الأخرى وقبل كل شيء وبات حرّاً.

بعد ذلك عبر الساحة في وقت متأخر بعد ظهر أحد أيام السبت (عندمـا كانت مباراة البيسبول تجري في ملعب المدرسة الثانوية) حيث سمع بمقتـل فنسون جوري على يد لوكاس في مخزن فريزر، كما سمع أن الشريف تلقّـى الخبر حوالي الساعة الثالثـة عـن طريـق خـطّ الهـاتف العمومـي الموصـل إلى الناحية المقابلة من المقاطعـة حيـث كـان في مهمـة صباحيـة مـن الممكـن أن تجعل لقاء حامل الرسالة به وارداً في وقـت مـا بـين تلـك اللحظـة وشـروق الشمس: وهذا لا يغير في الأمر شيئاً أما في حال وجود الشـريف في المكتـب فقد يتأخر الخبر كثيراً، باعتبـار أن مخـزن فريـزر واقـع في منطقـة «بيـت فور»، عدا عن أن مقاطعـة بوكناباتاوفـا مكـان لا يلائـم إقـدام زنجـي علـى إطلاق النار على رجل أبيض عند الظهر، فحادثة كهذه حتى لو حصلت في مقاطعة يوكناباتاوفا فإنها غير واردة بتاتاً في منطقة «بيـت فـور» لا بالنسـبة لزنجي ولا لأي غريب آخر كائناً ما كان لونه، بغض النظـر عـن السـبب، خاصة إذا كان المستهدف بإطلاق النار من الأمام أو الخلف على حـدّ سـواء أي شخص من أسرة جوري.

آنذاك غادرت آخر سيارة مليئة بالرجال والشبّان، بعضهم ليسوا شـبّاناً بكلّ معنى الكلمة، مرتدين ملابس عملهم ـ المخصصـة لكـل أيـام الأسـبوع لالبعد ظهر يوم السبت فحسب ـ وقد خرجوا من صالات البلياردو وصـالون الحلاقة، ومنهم من له علاقة غامضة بمـزادات القطـن والعربـات والسـلع، ومنهم من يعمل بالمراهنة على مباريات[1] الملاكمة التكسبية وموائـد شـرب

(1) ـ مباراة ملاكمة تجري بين ملاكمين محترفين ويدفع المشاهدون رسماً لدخولها.

البنش[1] ومباريات البيسبول، انطلقت السيارة من الساحة هارعة بمن فيها مسافة خمسة عشر ميلاً، لتتوقف بمحاذاة الطريق العام أمام دار المسؤول عن الأمن، حيث كان الخفير يحتجز لوكاس، وتحكي الرواية أنه كبّله بالكلبشة إلى إحدى أرجل السرير، وهو الآن جالس فوقه وفي يده بندقية خردق (حضر إدموندز بالطبع الآن، من المفترض بأي شرطي أحمق يتمتع بقليل من التفكير أن يرسل في طلب إدموندز الموجود على بعد أربعة أميال فقط، قبل أن يبادر بالصياح للشريف) في حال قرّر آل جوري وأقرباؤهم عدم انتظار الانتهاء من دفن فنسون أولاً. كان إدموندز هناك بالطبع، ولو أن إدموندز حضر إلى المدينة اليوم لشاهده في وقت ما خلال فترة الصباح بل أن يذهب إلى ملعب البيسبول باعتبار أنه لم يشاهد إدموندز في البيت الواقع على بعد أربعة أميال فقط إذ من الممكن وصول رسول إليه ومن الممكن أن يكون إدموندز موجوداً في دائرة الأمن قبل أن يخطر في ذهن الرسول الآخر إعلام الشريف عن طريق الهاتف بالواقعة التي يتوجب عليه الإبلاغ عنها، فيستقل السيارة إلى أقرب هاتف يمكن استعماله ــ للحظة خاطفة حدث ما شتت انتباهه مرة أخرى ـ إذا كان إدموندز والشرطي اثنين فإن عدد آل جوري وإنجرم ووركيتس لا يعلمه إلا الله عز وجل، إضافة إلى احتمال أن يكون إدموندز مشغولاً بتناول طعام الصباح أو بقراءة الجريدة أو إحصاء أمواله فيكون الشرطي لوحده مع بندقية الخردق.

بعدئذٍ اعتمد على نفسه، توقّف بصعوبة بالغة، واتجه على الأقدام إلى ناصية الشارع مستديراً باتجاه البيت دون أن يشعر بحرارة الشمس المرتفعة، أو يحسّ بالفترة التي مضت من بعد الظهر على بقائه في الشارع، كما استدار متتبعاً آثار خطواته لعدة ياردات قبل أن يعرف لِمَ لَمْ يقطع الساحة شبه الخالية فوراً بغض النظر عن العوائق بحيث يصل الدرج الخارجي الموصل إلى المكتب.

رغم أنه لم يكن يستبعد وجود الخال في المكتب حتى هذا الوقت المتأخر من بعد ظهر يوم السبت، فقد تنحّى عن هذه الفكرة للوهلة الأولى على

(1) ـ شراب مسكر مؤلف من كحول وعصير ليمون وتوابل وشاي وماء.

الأقل فيما كان يصعد الدرج، ومع أنه بالمصادفة كان يرتدي حذاءً مطّاطياً ذاك اليوم فإن السلالم الخشبية راحت تهتزّ وتطقطق كلما وضعت رجلك على الحافة الملاصقة للجدار: دار في ذهنه كيف أنه لم يفضّل الأحذية المطّاطية من قبل وكيف لا يوجد ما يجاريها في إعطاء المرء وقتاً كافياً لما هو عازم عليه، كما شاهد باب المكتب مغلقاً رغم أن الوقت مبكر جدّاً على إشعال الخال الأضواء، إلى جانب ذلك تبيّن أنّ الباب مقفل إلى حدّ لا يجدي معه حتى استخدام النعول القاسية فبادر إلى فتح الباب بمفتاحه ومن ثم أغلقه بالسّقّاطة واتجه إلى الكرسي الأسطواني الدوّار الثقيل الذي كان من أملاك جدّه قبل أن ينتقل إلى خاله، حيث جلس خلف الطاولة المكسوّة بأغراض مبعثرة استعملها الخال بدلاً من المكتب[1] ذي الغطاء اللفّاف العائد إلى أيام جدّه الماضية والذي مرّت فوقه قضايا المقاطعة القانونية لفترة أطول من أن يتذكّرها، منذ أن بدأت ذاكرته بالعمل أو منذ بدأ وعيه يتشكّل، متأمّلاً الطاولة المعطوبة والأوراق الصفراء البالية التي تجسّد عواطف ورغائب المقاطعة الخاضعة للقانون، الملتزمة به وتبدو كلاً لا يقبل التجزيء، مع آخر ما تبقّى من أشعّة الشمس بعد مرورها عبر شجرة التوت واجتيازها النافذة الواقعة خلفه على الطاولة المكسوّة بأوراق مكدّسة مبعثرة، ومحبرة صينية، وشكّالات، وريش أقلام صدئة تعلوها مواد دخيلة، ومنظّف غليون وغليون مصنوع من أكواز الذرة منقلب متناثر رماده إلى جانب فنجان قهوة، وصحن مبقّعين غير مغسولين، وكوز أسطواني ملوّن من السكن الجامعي في هايدلبرج مليء بقصاصات مجعلكة من الجرائد تستعمل في إشعال الغليون شبيه بوعاء الزهور الذي كان موجوداً على إطار الموقد في بيت لوكاس، فنهض قبل أن يدرك الأمر أو يفكر به، ووجد الفنجان والصحن، واجتاز الغرفة والتقط الغلاّية وركوة القهوة قبل أن يدخل الحمّام حيث أفرغ الثفل ونظّف الرّكوة والفنجان وملأ الغلاّية وأعاد وضعها مع الرّكوة والفنجان والطبق على الرف من جديد، من ثم رجع إلى الكرسي وجلس مرة أخرى بعد غياب لا يكاد يذكر، وقد تبقّى متسع من

(1) ـ منضدة كتابة ذات غطاء لفّاف مؤلّف من أضلاع خشبية متوازنة.

الوقت لمراقبة الطاولة وكل ما عليها من أشياء مبعثرة غير مرتبة مألوفة متلاشية برمتها في غفلة ليلة واحدة بينما أخذت أشعة الشمس بالأفول: خطر في ذهنه وتذكّر قول الخال أن الوقت هو شغل الإنسان الشاغل لأنه يفصل بين الإنسان والموت الذي يخشاه ويشمئزّ منه إذ يمضي الإنسان نصف الزمن الذي يحياه في استنباط وسائل تخوّله الحصول على نصف الزمن الذي مضى: على حين غرّة تذكّر أن ما استولى على تفكيره لم يكن من مصدر محدّد: لم يكن إدموندز في البيت ولا في ميسيسبي، بل كان في إحدى مشافي مدينة نيو أورليانز يخضع لعملية حصى صفراوية في المرارة.

لدى نهوضه أحدث الكرسي المثقل قعقعة مدمدمة على الأرض الخشبية أشبه بصوت عربة تعبر جسراً خشبياً، بعدئذٍ وقف إلى جانب الطاولة حتى تلاشى الصّدى كلياً ولم يعد يسمع سوى صوت نفسه: لهذا تصرف من تلقاء ذاته: من ثم غادر المكان: ذلك لأن أمه كانت على علم بوقت انتهاء مباريات البيسبول ولو أنها لم تسمع الهتاف من الجانب الآخر لطرف البلدة وبالوقت الذي يمضيه من فترة الشفق في رجوعه إلى البيت، إذ يغلق الباب خلفه ومن ثم يصعد الدرج، وعندما يهيمن الغسق على الساحة يأتي أوّل ضوء من الصيدلية (منها يخرج الناس متجهين إلى صالون الحلاقة وصالة البلياردو وبعد أن يفتح البوّاب وماسح الأحذية الأبواب ويتخلّصوا من الشعر وأعقاب السجائر في الساعة السادسة من الصباح) وأوّل أضواء من المحال التجارية أيضاً بحيث تنتظر المنطقة برمّتها، باستثناء بيت فور، إلى أن تصل إشارة من محل فريزر بأن كل شيء على مايرام فيوقفون المركبات والعربات والسيارات والبغال في الشوارع الجانبية والأزقة، ويعودون إلى منازلهم ليرقدوا في أسرتهم: كان يدور هذه المرّة حول ناصية السجن، الذي بدا أكبر من حجمه الحقيقي، بسبب انعدام الإضاءة تقريباً لولا المستطيل ذي الخطوط العريضة في جدار الواجهة الأعلى للسجن، حيث كان لاعبو الكرابس[1] وباعة الوسكي المتجوّلون ورماة الأمواس من الزنوج ينادون على فتياتهم ونسائهم الواقفات تحتهم في الشارع، وحيث يقبع لوكاس منذ

(1) ـ لعبة قمار تلعب بنردين ـ المترجم ـ

ثلاث ساعات خلت (محتمل جداً أن يكون الآن يخبط على الباب المعدني بعنف منادياً من يأتيه بالعشاء أو يكون قد تناول العشاء للتوّ وتذمر من نوعيّته لأنه يعتبر الحصول على طعام وسكن كالذي تشتهيه نفسه حقاً بديهياً من حقوقه) لقد ارتأى الناس على مايبدو أن يكون هدف قانون حكم الشعب للشعب يقضي لا محالة باختيار رجل كالشريف هامبتون الذي يتمتّع بوعي سليم في الحد الأدنى وشخصيته تؤهله لإدارة شؤون المقاطعة ومن ثَمَّ لتعيين أقاربه وأنسبائه، الذين فشلوا بكسب قوتهم عن أية طريق سبق لهم أن سلكوها، في كافة المناصب. من جانب آخر أحسّ بالانطلاق وبأن السيل قد بلغ الزبى وأدرك ماذا سيفعل بغضّ النظر عن عدم حصول شيء ملموس لأن الوقت مازال في صالحه وإن غداً لناظره قريب. في ذلك المساء لم يتعيّن عليه سوى تقديم دلوين إضافيّين من الشوفان للحصان هاي بوي استعداداً ليوم الغد ظنّاً منه أن هذا الأخير يتضوّر جوعاً أو يكاد بعد لحظة، فيما كان يجلس كالمعتاد في الغرفة وسط الأثواب الكتّانية الفضيّة اللون وكؤوس الماء وأصص النرجس والغلاديولي وغيرها من الورود.

قال الخال: «يبدو أن صديقك بوشامب قد أقدم على فعلته في الوقت الراهن».

ردّ على الخال بالقول: «نعم سيعاملونه كما يعاملون الزنوج مرّة واحدة في حياته على أية حال».

«تشارلز» جاء نداء أمه، فيما كان يأكل بسرعة، ونهم، ويتحدّث بسرعة، مكثراً من الكلام عن مباراة البيسبول منتظراً أن يجوع في أية لحظة أو ثانية إلى أن عرف فجأة أن الوجبة بالغة الدّسامة رغم خفتها لأن مضغها وبلعها وهضمها يستغرق بعض الوقت.

على الفور قال: «أنا ذاهب إلى السينما».

قالت الأم: «لم تنه طعامك» وأردفت: «لا يبدأ العرض إلا بعد حوالي ساعة من الآن» وتابعت: «أنا لا أريده أن يذهب إلى المدينة الليلة. لا أريد» وكأنها تتوجه بالقول لا إلى خاله أو والده وإنما بكل زمان ومكان منذ المسيح وحتى ألف وتسعمائة وثلاثين أو أربعين أو خمسين لا على التعيين،

في النهاية ندت عنها صرخة: «تشارلي!» مصحوبة بنشـيج طويـل إلى الأب تعبيراً عن تشوش ذهنها، الآتي عن تسلّط المخاوف والهواجس على تفكير النساء عموماً والأمهات خصوصاً، بحيث يبدو السمة المميزة لحياتهن.

نهض الخال مزيحاً الفوطة وقـال: «لـك الحريـة في منعـه لكـني أريـده القيام بمهمة لصالحي بكل حال من الأحوال».

بعد أن خرجا وباتا أمام شرفة البيت الأمامية في جوّ بارد تكتنفه الظلمة قال الخال بعد هنيهة: «ماشي الحال؟ انطلق».

فأجابه: «ألن تأتي معي؟».

وأردف قائلاً: «لكن لماذا؟ لماذا؟».

ردّ الخال: «وما تأثير ذلك؟».

وتابع ما كان قد سمعه سـابقاً لـدى مـروره قـرب صـالون الحلاقـة منـذ ساعتين خلتا قبل هذه اللحظة: «لا أحد يمت للوكـاس بصلـة خـارج بيتـه الآن». خطر له ذلك، ليس قبل أن يتحدث الخال فحسب، بل حتى قبـل أن يحضر أي شخص أمام صـالون الحلاقـة قبـل ساعتين مـاضيتين، ومـن أجل هذه الغاية أيضاً: «إن السبب الحقيقـي للحـادث هـو أنّ الأزمـة الـتي واجهها خلال حياته لم تعد تطاق إلى حـدّ جعلـه يطلـق عيـاراً ناريـاً علـى رجل أبيض من الخلف. لكن لماذا استهدف واحداً من آل جوري بـين كـل البيض ليطلق النار عليه؟ ولماذا اختار حيّ بيت فور مـن بـين كـل الأحيـاء ليكون مسرحاً لجريمته؟. تابع! لكن لا تتـأخر. عـامل والديـك بلطـف مـن حين إلى آخر».

من المؤكد أن إحدى السيّارات التي يعرفها أو جميع السـيارات عـادت إلى صالون الحلاقة وصالة البلياردو ومـن الواضح أن لوكـاس مـايزال مقيّـداً بالأصفاد مربوطاً بأمان الله إلى ساق السرير بينما يجلس الشرطي فوقه (ربما على كرسي هزاز) حاملاً البندقيـة البـاردة، ومـن المحتمـل أن تعـدّ زوجـة الشرطي طعام العشاء لهما فيلتهم لوكاس بشهيّة عظيمة وجبة دسمة أعـدت خصيصاً له طالما أنه لن يدفع ثمنها، لأن المرء لا يصوّب النار على الغير في كل أيام الأسبوع.

أخيراً جرى ما جرى وتلقّى الشريف النبأ وأبلغ أنه سيعود إلى البلدة في وقت متأخر هذا المساء على أن يأتي بلوكاس صباح الغد الباكر.

كان عليه أن يقوم بعمل ما، بعد أن مضى الوقت، إلى أن حان موعد العرض السينمائي، وبات بوسعه الحضور، إلاّ أنه اجتاز الساحة إلى فناء دار الحكومة، وجلس على مقعد في الظلام البارد، في عزلة مطلقة وسط الظلال المتقطّعة، كانت الأوراق النضرة لا تعرف السكون بفعل الرياح، قبالة السماء المرصعة بالنجوم وراح يراقب السرادق المضاء أمام دار السينما. قد يكون الشريف مصيباً بإجراء اتصالات مطوّلة مع آل جوري وآل إنجرم وآل ووركتس وآل مالكولم ليقنعهم بالتصويت له كل ثماني سنوات، فيتسنّى له أن يعرف بالتالي وبشكل تدريجي ما هم فاعلون بموجب المعطيات المتوفّرة لديه، أو قد يكون الناس في صالون الحلاقة على صواب بزعمهم أن ينتظر كل من آل إنجرم وآل جوري ووركتس حتى الانتهاء من دفن فنسون غداً، لا لشيء سوى لأن يوم الأحد آت بظرف ثلاث ساعات من الآن وهم لا يميلون للعجلة بحيث يفرغون من عملهم دون أن ينتهكوا حرمة يوم الأحد(1).

لاحت بعدئذٍ طلائع حشد متدفق تحت السرادق وهم ينظرون بدهشة إلى الضوء ويزبدون بعض الشيء للحظة أو دقيقة أو اثنتين، مرجعين بقية متلاشية من أحلام القلوب الشجاعة الشبيهة بالفيلم إلى حيز الواقع. بات بإمكانه الرجوع إلى البيت بل توجب عليه ذلك في حقيقة الأمر، سيما وأن أمه تعرف بالغريزة المجردة وقت إنتهاء العرض بحيث تتصرف مثلما فعلت عندما انتهت مباراة البيسبول إذ فكّرت أنها لن تصفح عنه البتة حتى يغدو قادراً على تزرير أزراره وغسل ما وراء أذنيه على الأقل، ومن ثم قبلت بالأمر وتابعته بنفسها وأرسلت الوالد في إثره.

مع نهاية العرض السينمائي سلك الشارع الخالي، إلى أن وصل إلى البيت، ودخل زاوية الفناء على وجه التحديد، بينما كان الخال يخرج من جانب السياج حاسر الرأس يدخّن الغليون المصنوع من أكواز الذرة.

---

(1) - SABBATH يوم الأحد (بوصفه يوم راحة وعبادة عند المسيحيين).

قال خاله: «اسمع. تحدّثت إلى هامبتون في «فيلد أولدتاون» وأجرى إتصالاً مع سكوير فريزر فذهب فريزر نفسه إلى دار سكيبورت وشاهد لوكاس مكبّلاً إلى ساق السرير. كل شيء على ما يرام. الليلة تنتهي الأمور هناك. وغداً صباحاً يحتجز هامبتون لوكاس في السجن».

قال هو: «على حد علمي لن يسحلوه قبل منتصف ليلة الغد، بعد الانتهاء من دفن فنسون يوم الأحد».

صمت لبرهة. عاد إلى القول: «بالنسبة لي كل شيء واضح، لم يكن على لوكاس أن يفعل ذلك بهذه الحدّة حتى يبدو زنجياً حقيراً في نظري».

في السرير، في الغرفة الباردة المعتادة، في الظلمة الباردة المعتادة، كان يشعر بالرضى، وذلك لأنه عرف ما هو فاعل لا سيما بعد أن نسي أن يأمر ألك ساندر بتقديم علف إضافيّ للحصان هاي بوي استعداداً للغدّ، وعلى كل حال يمكن أن يقوم بذلك غداً، طالما أنه نائم هذه الليلة باعتبار لديه ما هو أسرع بعشرة آلاف مرّة من ذلك الأبله على العدو فعلياً، سينام بسرعة بالغة، قد لا تسمح له بوقت كاف للعدّ من واحد إلى عشرة، وقد تملّكه استياء شديد، وعذاب لايطاق من مدى الحنق والغيظ.

من بين جميع الرجال البيض قاطبة، كان المستهدف بإطلاق النار من الخلف أصغر الأبناء لعائلة مؤلفة من ستة أشقّاء، أمضى أحدهم عاماً كاملاً في السجن الفيدرالي لعصيانه المسلّح وفراره من الجيش، وأمضى فترة عقوبة أخرى في مزرعة لصناعة الوسكي تابعة للدولة.

الأقارب والأنسباء متشعّبون يغطون ناحيه برمتها من المقاطعة ـ لايمكن حصر عددهم جميعاً بمن فيهم الأجداد والعمّات العوانس اعتباطياً ـ إنهم شرذمة من المشاكسين والمزارعين وصيادي الثعالب وتجّار الأخشاب والأدوات المستعملة في آن معاً، وهم في أي حال من الأحوال لن يسمحوا بقتل أحد أبنائهم العديدين في أي مكان على يد أي شخص كان في المنطقة، طالما أنهم متكاتفون ومتداخلو القرابة مع مشاجرين آخرين وصيادي ثعالب وصانعي وسكي، ليسوا من صنف عشيرة أو قبيلة عادية إنما هم قوم وفصيل جعلوا تلّهم حصناً منيعاً رغم أنف المقاطعة والحكومة

الفيدرالية أيضاً، قبل فترة طويلة لم يسكنوا بأمان ولم يفسدوا في الأرض فحسب، بل حوّلوا التلّة بما يشبه السحر، حيث تبرقعت منطقة التلال الصنوبرية المعزولة بشكل هزيل بمزارع صغيرة مستملكة ومناشر متنقلة وغلايات وسكي محظورة، بحيث لا يذهب رجال الأمن إلى هناك إلا بعد أوامر صارمة كما لا يجرؤ أي من البيض على التجوال بعيداً عن الطريق العام في الليل أما الزنوج فلا يجرؤون على الإقتراب في أي وقت كان من ذلك التلّ إلى حد دفع أحد مثقفي المقاطعة إلى القول: «إن الغريب الأوحد القادر على وطء المكان هو الله جل جلاله وذلك يوم الأحد فقط وفي رابعة النهار». وقد غدا التل - بيست فور - مرادفاً للإستقلال والعنف ومعروفاً بحدود محسوسة على هذا النحو معزولاً متفرداً أشبه بالحجر الصحي إتقاء للوباء حصراً من بين كافة أرجاء المقاطعة، وهو المكان الذي عرفه الناس في أواسط العشرينات مخبأً لشيشر وإلينويز ومن لفّ لفّه وأعمالهم أكثر من معرفتهم بما كان يجري في شيكاغو أو اكتراثهم به.

كل هذا ألا يبرر عدم إمكانية حصول لحظة يتمتع فيها رجل أبيض أو أسود وليكن إدموندز مثلاً من بين كل سكان مقاطعة يوكناباتاوفا أو ميسيسبي أو أمريكا أو العالم بأكمله أيضاً بالرغبة في القوة والتسلط - ضحك وهو على وشك النوم. تذكر أن استنتاجه في محله: «لو كان إدموندز في البيت لتغيّر مجرى الأحداث».

استعاد في ذهنه الوجه من خلف قبعة مائلة. استعاد وقفة الرجل مباعداً قدميه مثل بارون أو دوق أو زير نساء أو عضو في الكونغرس قبل أن تشتد النار خلفه، وإيعاز الرجل لولدين زنجيين بالتقاط النقود وإعادتها إليه دون أن يعيرهم التفاتة، إلا أنه لم يستعد تذكير الخال له دائماً بأنه قد نضج بما يكفي ليفهم عدم وجود ما يحول بين المرء وقدره، لأن الخال لم يتعلم في هارفارد وهايدلبرج أن يقدم النصح اعتباطاً ووهماً للرجل بما يكفي تماماً للحيلولة بين - القادِرَيْن[1] على الحيلولة بين لوكاس والمصير القاتم، لاسيما وهو جاثم على ظهره في غرفة العمليات بإحدى مشافي نيو أورليانز،

(1) - تعود إلى القوة والتسلط الواردين قبل الجملة الإستطرادية - المترجم -

ولايمنع أيضاً اختيار لوكاس الزمان والمكان والضحية، في يوم سبت آخر، وفي فترة بعد الظهر وفي الحانوت ذاته الذي سبق أن تشاجر فيه مع أحد البيض.

اختار أول سبت ملائم ممكن في فترة بعد الظهر، واختار مسدساً إفرادياً قديماً كان بحوذته من ماركة كولت لم يعد قيد الصنع لا مثيل له في المقاطعة برمتها، تماماً مثل المسواك الذهبي الذي تركه في الحانوت - المكان الوحيد الذي يمر به سكان أطراف المقاطعة عاجلاً أو آجلاً بعد ظهر يوم السبت - منتظراً ظهور الضحية ليرديه قتيلاً دون أن يعرف أحد حتى الآن، حسبما استنتج بعد ظهر ذلك اليوم أو عندما غادر الساحة في ذلك المساء، أو أن يتساءل في آن معاً كيف ضعف لوكاس من بين الجميع بعد أن عمل عشرين أو خمسة وعشرين عاماً دون كلل أو ملل وسقط في هذه اللحظة بالذات، وكيف لحق به حتى الغابات لمسافة لا بأس بها بعيداً عن الحانوت، وأطلق النار عليه من الخلف على مسمع من الحشد حوله، وعلى مرأى منهم، إذ بدا فوق الولد حاملاً المسدس الذي خرج منه العيار الناري في جيبه لدى وصول أوائل شهود العيان، وهذا ما جعل السحل مصيره دون أن يكون له حول ولا طول، لولا ألدولي فريزر الذي أنقذه غير مرة من عمود المحراث قبل سبع سنوات والشرطي سكيبورث العجوز، المسن الهزيل الأصم تماماً الذي لا يزيد حجمه عن حجم ولد في مقتبل العمر يحمل مسدساً مطلياً بالنيكل في إحدى جيوب المعطف وفي الجيب الآخر مسماعاً من الغاتابرشا[1] على سوط جلدي غير مدبوغ مثل ظفر الثعلب حول عنقه، والذي أظهر في هذه المناسبة شجاعة وبسالة لا مبرر لهما تقريباً في إلقاء القبض على لوكاس، الذي لم يبد أية مقاومة بل اكتفى بمراقبة الشرطي بهدوئه المعتاد دون اكتراث أو هزء، وأخذه إلى منزله وربطه إلى ساق السرير حتى يأتي الشريف لاستلامه وإحضاره إلى البلدة واحتجازه، بينما كان آل جوري وآل إنجرم وباقي معزّيهم وأقاربهم يوارون فنسون جوري الثرى.

---

(1) - الغاتابرشا: مادة شبيهة بالمطاط تستخرج من بعض الآثار الماليزية.

مرّ ذاك الأحد عليه ببساطة خالية من التعقيد، على صعيد واجبات الأسبوع الجديد، حيث شاهد الأشخاص المغرورين أنفسهم الذين يترددون أول الفجر، وبعدئذ مرّت فترة قبل أن يتعالى الضجيج العالي اللطيف الصاخب لزقزقة العصافير، كما شاهد الأشجار من خلال النافذة الشرقية قبالة الضوء، وبدت له الشمس فيما بعد عالية مشعّة فوق الأشجار، تسطع عليه بأشعتها، وقد تأخر الوقت به آنذاك وهذا أمر مألوف بالنسبة له كذلك الأمر.

لم يلبث أن أحس بالانطلاق، وتعاظم إحساسه هذا بعد الفطور، وكالمعتاد قال إنه ذاهب إلى مدرسة الأحد[1]، لكنه لم يقل شيئاً إبان خروجه ليتنزّه في طريقه عبر الفناء الخلفي المؤدي إلى قطعة الأرض المجاورة ووسطها ومنها إلى السكة الحديدية ومحطة القطار، ومن ثم راح يفكّر بطريق أقصر مقلعاً عن إشغال ذهنه بموضوع لوكاس وهو في طريق العودة إلى فناء الدار ومنه إلى الصالون المواجه وعَبْرَ الشرفة الأمامية حيث سار على رصيف الشارع، خطر له عدم مشاهدة أي زنجي باستثناء بارالي عندما أحضرت له طعام الصباح، حَسْبَ العادة في مثل هذه الساعة من صباح الأحد.

كان يشاهد في شرفات جميع البيوت تقريباً الخادمات أو الطاهيات بمأزر يوم الأحد الأنيقة، يحملن مكانسهنّ ويتبادلن الأحاديث من شرفة إلى شرفة عبر باحات الدُّور المجاورة، إضافة إلى أولاد أنيقي الهندام نظيفين في طريقهم إلى مدرسة الأحد، أكفّهم المبللة بالعرق تقبض على النقود المعدنية رغم أن الوقت باكراً جداً على افتتاح مدرسة الأحد هذا اليوم وقد يكون مَرَدُّ ذلك إما لقبول الجميع، وإما لرفضهم القطعي، وتفتح الكنيسة أبوابها، فتحل لحظة محدودة مرسومة حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف، إذ يعمّ أجواء مقاطعة يوكناباتاوفا قاطبة صدى مكتوم أشبه بوميض حار ناجم عن قسم قطعي صادر من قلوب الرجال المفجوعين الساكنة وأهلهم الغاضبين الذين يردّد كل منهم: «غايتنا الإنتقام رغم أن ا لله تعالى ينهي عن القتل ــ

---

(1) ـ مدرسة للتعليم الديني.

لكن هذا النهي ورد بعد فوات الأوان»، لابد أنّهم نوّهوا عن ذلك للوكاس القابع خلف نافذة الطابق الثاني المغلقة من السجن، التي تمتلىء فراغاتها كل يوم أحد كالعادة بالزّنود السود وتومض خلفها محاجر العيون البيضاء وسط الظلام وتتعالى أصوات رخيمة تنادي وتضحك مع الفتيات الزنجيات والنساء العابرات أو الواقفات على امتداد الشارع، مرّ ذلك في ذهنه عندما تأكد أنه لم يشاهد أيّ زنجي منذ بعد ظهر الأمس قبل أن يعرف في اليوم التالي أن سكان بلدة (هولو أندفريدمان) لم يأتوا البتّة إلى العمل منذ مساء يوم السبت كما أنه لم يشاهد أحداً منهم في الساحة أو في صالون الحلاقة لأن صباح الأحد موسم مفضّل لماسِحِي الأحذية الذين يقومون بتلميع الأحذية ونفض الثياب وإيصال رسائل شفهية وتجهيز أحواض الاستحمام لسائقي العربات العازبين وعمال ورش السيارات القاطنين في غرفٍ بالإيجار وللشبّان الصغار إلى حد ما ممن أمضوا أسبوعاً من العمل بجد في صالة البلياردو.

وأخيراً عاد الشريف إلى البلدة وحرم نفسه من عطلة الأحد لينظر في أمر لوكاس وأصغى واستمع للكلام، وقد اندفع اثنا عشرة منهم من مخزن فريزر بعد ظهر أمس وعادوا بخفي حنين، حيث جمع أناساً غصّت السيارة بهم، وعاد في نفس الوقت الليلة الماضية متثائباً من الضّجر، مبدداً الوقت، متذمراً من الأرق في هذه اللحظة، وهذه كلها أمور تضاف أيضاً إلى حساب لوكاس، كان هو قد سمع كل ذلك من قبل أيضاً وفكر في اللحظة نفسها بينه وبين نفسه:

«أتساءل فيما إذا أخذ هامبتون رفشاً معه لأن هذا كل ما يحتاجه».

«يحيرونه رفشاً هناك».

«نعم. هذا إذا كان في الأمر عملية دفن. إضافة إلى ذلك الكازولين متوفر في منطقة بيت فور».

«حسب رأيي لابدّ أن يهتم العجوز سكيبورث بذلك».

«بالتأكيد: في منطقة بيت فور يمتثلون لأوامر سكيبورث مادام قد أمسك الزنجي. لكن سيعيده إلى هامبتون. إذا ماحصل هذا فإن هوب هامبتون يكون شريفاً على مقاطعة يوكناباتوفا ومجرد إنسان عادي في منطقة بيت فور».

«لا لن يفعلوا شيئاً اليوم. سيدفنون فنسون بعد الظهر لأن إحراق الزنجي الوضيع أثناء الجنازة لا يعبّر عن احترام فنسون».

«هذا أمر وارد. من المرجح أن يتم الإحراق مساء اليوم».

«مساء الأحد».

«هل تلك خطيئة آل جوري؟ كان على لوكاس أن يفكر بذلك قبل أن يختار يوم السبت ليقتل فنسون أثناءه. واجب هامبتون أن يكون شديد البأس. بحيث يبعد السجين».

«تقصد الزنجي القاتل؟».

«من يساعد أو يحمي زنجياً يطلق النار علي رجل أبيض من الخلف في هذه المقاطعة أو الولاية؟ من يساعد زنجياً قاتلا؟».

«بل من يفعل ذلك في الجنوب برمته؟».

«نعم في الجنوب برمته».

سمع كل هذا من قبل وخرج من جديد: قد يقرر خاله المجيء إلى البلدة قبل الأوان فقط لاستلام مراسلات الظهيرة في مركز البريد أما إذا لم يتصادف بالخال فإنه لابد أن يخبر أمه.

لم يكن يعلم أين تقوده قدماه. تذكر المكتب الفارغ وإمكانية اللقاء بالخال إذا ما ذهب إلى هناك أيضاً: لأنه ـ تذكر أنه لم يقدم كمية العلف الإضافية للحصان هاي بوي، لكن الوقت متأخر جداً بالنسبة له ولابد أن يتدبر أمر العلف بنفسه على أية حال ـ عقد عزمه: لقد غادر الشريف البلدة حوالي الساعة التاسعة، متجهاً إلى منزل الشرطي الواقع على بعد خمسة عشر ميلاً خارج الطريق المعبّد بالحجارة، وهو طريق غير جيّد، لكن الشريف مضطر بالتأكيد للذهاب إلى هناك والعودة بلوكاس عند الظهر حتى لو توقّف واستأنس بآراء عديدة في فترة وجوده هناك، وخطط في ذهنه، أن يذهب قبل ذلك بكثير ويُنْهِض الحصان هاي بوي ويربط كيساً من العلف خلف السرج ويسير به بخط مستقيم في الاتجاه المعاكس لحانوت فريزر بحيث يمتطيه باتجاه واحد غير منحرف لمدة اثنتي عشرة ساعة بحيث يطعم هاي بوي عند منتصف الليل مساء اليوم ويريحه إلى أن يبزغ الفجر أو

لفترة أطول إذا ما قرر الذهاب ومن ثم يمتطيه اثنتي عشرة ساعة في طريق العودة بحيث يستغرق ثماني عشرة ساعة أو على وجه التحديد أربعاً وعشرين أو ستاً وثلاثين ريثما ينهي مهمته. ومن ثم لا ينتابك غضب أو غيظ من جلوسك في الغرفة وانشغالك بعَدِّ الأغنام في محاولة منك للنوم[1]. اجتاز ناصية الشارع، سار على طول الرصيف المقابل تحت السقيفة أمام حانوت الحداد المقفل. لم تكن الأبواب الخشبية الثقيلة جداً مغلقة بمزلاج أو بسلسلة قفل جوزة محكمة الإغلاق، بل كانت محررة من خلال ثقب لولبي في كلّ منها بحيث يُحدث الجزء المتدلي من السلسلة تجويفاً أشبه بفجوة في الجدار فإذا ما وقف في إحداها لا يشاهده المارّة في نهاية الشارع أو بدايته أو إبان العبور في عرضه ـ لن تعبر أمه الشارع هذا اليوم بأي حال من الأحوال ـ ما لم يتوقفوا للنظر والتحديق.

تُصْدِر الأجراس الآن رنيناً أستروفياً[2] وآخر لاأستروفياً رخيمين متضادّين متباطئين، من برج كنيسة إلى برج كنيسة أخرى، تَتَردَّدُ في أرجاء المدينة، التي تَكْتَظُّ ساحتها وشوارعها في طرفة عين بحشد رجال يرتدون بدلات أنيقة غامقة اللون، ونساء يرتدين ملابس حريرية ويتظلّلن بالمظلات النسائية الواقية من الشمس، إضافة إلى فتيات وشبّان يسيرون بوقار وحشمة أزواجاً أزواجاً على وقعِ ذلك الرّنين الرخيم تحت ذلك الهدير الموسيقي الآخذ بالتلاشي: تفرغ الساحة والشارع مرة أخرى رغم استمرار رنين الأجراس هنيهة قصيرة أخرى، فيغدو سكان السماء العديمو الجذور في الفضاء اللامتناهي اللانهائي الإرتفاع عن الأرض المنبسطة، رنة متقطعة في إثرها نقرة متباطئة، بإيقاع متباطىء، آتٍ من رعدة الأراغن في الأسفل، ومن رتابة باردة صادمة تندّ عن بشر سذّج جالسين. قبل سنتين خلتنا قال الخال له إن العار لا غبار عليه؛ وهذا الأخير على العكس من ذلك لم يكن مجرد أمر مفيد، وإنما أمر لا بديل له، وحتى مثل أي ذخر آخر ثمين

---

(1) ـ حكاية فولكلورية للأطفال تتحدث عن عدّ الطفل للأغنام في محاولة للنوم ـ المترجم ـ

(2) ـ إستروفية: جزء من قصيدة إغريقية قديمة تنشده المجموعة وهي تنتقل من اليمين إلى اليسار. مقطوعة شعرية.

فحسب، لأن الإمداد محدود، بحيث تجد نفسك مفلساً ما لم تصرفه على أمر أنت في أَمَسِّ الحاجة إليه وعلى هذا النحو قال: «*ماذا أفعل هنا بحق الجحيم*». ومن ثم أجاب نفسه إجابة واضحة: عدم مشاهدة لوكاس، وفي حال شاهد لوكاس فلا لشيء سوى لتمكين لوكاس من مشاهدته مرة أخرى إذا ما رغب بالنظر إليه لا من حافة الموت المجرّدة التي لا مثيل لها وإنما من هدير غازولين المحرقة. وسبب ذلك هو أنّه حرّ. لم يعد لوكاس من مسؤولياته، ولم يعد حارساً للوكاس، فلوكاس نفسه أعفاه.

من ثم امتلأ الشارع الفارغ بالرجال على حين غرّة، مازال عددهم محدوداً، لايزيد عن دزينتين، بضعة رجال ظهروا وبهدوء من أماكن لا على التعيين. في النهاية ملأوا الشارع على ما يبدو، وتكتّلوا فيه وانصهروا فجأة بحيث يستحيل على أحد اختراقهم، أو مجرّد عبور الشارع والسير فيه، بل لايجرؤ أحد على الاقتراب بما يكفي لمحاولة الكلام، مثلما يبقى الناس بعيدين بعداً كافياً عن إشارة تدلّ على توتّر كهربائي عالٍ أو مادة متفجّرة.

بعد أن تملاّهم جميعاً عرف بعضاً منهم عندما شاهدهم عن قرب واستمع إليهم في صالون الحلاقة قبل ساعتين. كانوا شبّاناً أو رجالاً دون سنّ الأربعين، معظمهم عازبون مشردون يستحمون أيام السبت والأحد في صالون الحلاقة، بينهم سائقون وعمال ميكانيك، إضافة إلى عامل الصيانة في محلج القطن ونادل الصودا[1] من الصيدلية، وأولئك الذين يشاهدهم المرء طوال أيام الأسبوع في صالة البلياردو أو حولها دون معرفة مِهَنِهم الحقيقية، فقد يكونون أصحاب آليات ينفقون أموالاً لا أحد في الحقيقة يعرف من أين يأتون بها، في نهاية الأسبوع في مباغي ممفيس ونيو أورليانز، هؤلاء هم الذين قال الخال عنهم موجودون في كل بلدة جنوبية صغيرة لا يقودون الدهماء فعلياً ولايحرضونهم بل يشكّلون دائماً نواة لهم بسبب كثافتهم العددية.

في هذه الأثناء شاهد سيارة وتحقّق منها على الفور رغم بعدها دون أن يعرف أو يشغل ذهنه في سبب هذا اليقين، حيث تحرّك خارجاً من مدخل

---

(1) – SODAJERKER: ساقٍ يقدم المشروبات في مخزن يحتوي على الأدوية وأدوات التجميل والكتابة والسندويشات والسجائر......

البيت الخلفي المؤدي إلى الشارع، ومن ثم عبر الشارع مجتازاً المسافة الفاصلة بينه وبين حشد الرجال الذين لم يخرج أي صوت منهم، بل اكتفوا بالتوقف، مغلقين الرصيف الجانبي المتاخم لسور السجن، والقفز إلى الشارع، بينما كانت السيارة تقترب دونما إسراع، وإنما بتأن بالغ، متهادية مثلما يليق بسيارة تتحرك صباح الأحد أن تفعل، متجهةً نحو الحاجز الحجري على حافة الطريق، لتتوقف أمام السجن. كان المندوب[1] يقودها. لم يؤاتِ بحركة للخروج. بَعْدَئذٍ انفتح الباب الخلفي وخرج الشريف ـ وهو رجل كبير ضخم غير مترهل، ذو عينين باهتتين قاسيتين ووجه شاحب بشوش لطيف إلى حد ما ـ استدار وفتح الباب دون أن ينظر إليهم. من ثم خرج لوكاس ببطء وصلابة رجل أمضى الليل مقيّداً بالسلاسل إلى رجل السرير، عندما خرج حاول إزاحة رأسه وإبعادها عن الجزء الأعلى من الباب، إلا أنها اصطدمت به فسقطت قبعته الرّثة عن رأسه على المشى تحت قدميه تقريباً. كانت هذه هي المرة الأولى التي شاهد فيها لوكاس دون أن تكون القبّعة على رأسه، وفي اللحظة نفسها تحقّق أنه باستثناء إدموندز والذين يراقبون لوكاس في الشارع في هذه اللحظة من المحتمل أن يكون هو الشخص الأبيض الوحيد في المقاطعة الذي يشاهد لوكاس حاسر الرأس، وهو يراقب لوكاس ينحني أثناء خروجه من السيارة ويبدأ بثبات محاولة الوصول إلى القبّعة. إلاّ أن الشريف التقطها في اللحظة نفسها بانحناءة مديدة مرنة وناولها إلى لوكاس الذي بقي منحنياً فوق القبّعة وكأنه يبحث عنها من جديد.

على الفور اتخذت القبعة وضعها الأصلي تقريباً، وعاد لوكاس إلى الوقوف، منتصب القامة عدا رأسه ووجهه وقد انشغل بتنظيف القبعة من جديد وذلك بحكّها على كم ذراعه بسرعة وخفة ورشاقة وكأنّك تسنّ الموسى. بعد ذلك تحرّك رأسه ووجهه عالياً إلى الخلف وبحركة شبه انسيابية أعاد تركيز القبعة بنفس زاوية الميل التي كانت القبعة قد اتخذتها من قبل على ما يبدو وكأنه قد تخلّى عنها، وانتصب ببذلته السوداء غير

---

(1) ـ نائب الشريف.

المكوية متغلّباً على الليلة التي أمضاها كيفما اتفق ـ بدت على أحد جانبيه من الكتف إلى العقب، بقعة ضخمة غير متّسخة كأنّه استلقى على أرض غير مستوية لوقت طويل في وضعية واحدة لا يستطيع تغييرها ـ كان لوكاس ينظر إليهم للمرة الأولى. فكّر هو بينه وبين نفسه *الآن. الآن سيرانِي*. خطر في ذهنه *لقد شاهدني وهو المطلوب*. تأكد بعدئذٍ من أنه *لم يرَ أحداً البتة*، لأن الوجه في تلك اللحظة لم يكن ينظر إليهم وإنما كان ينظر نحوهم فحسب، وقد علاه التكبر والهدوء دون تحدّ يبعث على الخوف. بدا معزولاً، غريباً، مستغرقاً في التفكير، عنيداً متماسكاً. راحت العيون تنفتح وتغمض قليلاً في ضوء الشمس، على وجه التحديد بعد أن تصاعدت زفرة من مكان ما في الحشد وارتفع صوت أوحد:

«تخلّص منه من جديد يا هوب. إقطع رأسه هذه المرة».

أجاب الشريف: «ابتعدوا يا أولاد. عودوا إلى صالون الحلاقة». واستدار ليقول للوكاس: «لا بأس هيا بنا».

انتهى كل شيء. ظل الوجه لحظة أخرى ينظر نحوهم لا إليهم. مشى الشريف في تلك اللحظة إلى باب السجن. وعندها استدار لوكاس في النهاية ليتبعه ـ قد يتمكن ببعض السرعة من الوصول إلى الحصان هاي بوي مباشرة، ويسرجه ويخرج من المرج قبل أن ترسل أمه ألك ساندر ليبحث عنه كي يعود ويتناول الغداء ـ آنذاك شاهد لوكاس يتوقّف ويستدير وكان هو على خطأ لأن لوكاس عرف في اللحظة نفسها موقعه من الحشد قبل أن يستدير هو بدوره، حيث نظر إليه مباشرة وتحدث معه.

قال لوكاس: «أنت! يا فتى! قل لخالك إني أريد مقابلته».

استدار من جديد وتابع السير خلف الشريف، واثق الخطوة، ببذلته السوداء الملطّخة، والقبعة الباهتة البارزة، في ضوء الشمس.

ومن الحشد علا صوت: «إلى الجحيم بالمحامي. لن يكون بحاجة حتى إلى حانوتي لأن آل جوري سيقضون عليه مساء اليوم».

استمر في المشي وراء الشريف الذي توقّف والتفت إليهم قائلاً بصوت لطيف بارد خال من الحرارة: «يا جماعة. قلت لكم ابتعدوا عن هذا المكان. ولن أعيد القول مرة ثانية».

الفصل الثالث

وهكذا لو أنه اتجه رأساً من صالون الحلاقة إلى البيت وأسرج الحصان هاي بوي فَوْرَ ورود هذا الخاطر في ذهنه لكان أمضى إلى الآن عشر ساعات وربما اجتاز خمسة عشر ميلاً.

لا أجراس تقرع الآن. كان مع الخال عادة يمران في الشارع بأناس متّجهين إلى صلاة المساء الأقل رسمية، الأكثر جوهرية، سائرين بلباقة مخترقين العتمة المتقطعة من مصباح إلى مصباح آخر في عطلة يوم الأحد التي مازالت سارية المفعول، ويتحققان من شخصياتهم قبل عدة ياردات من التلاقي دون أن يعرفا أو يشغلا ذهنيهما في السؤال متى وكيف ولماذا فعلا ذلك ـ قد لا يكون مردّ ذلك إلى ظهور أشكالهم الظليلية وصدور صوت يعبّر عن حضور أحدهم بل إلى هالة وهمية حولهم، أو إلى هذه الأمور مجتمعة بحيث تدلّ على كينونة المرء في هذا الموضع أو هذه اللحظة أو هذا النهار فلا تحتاج لأكثر من ذلك كي تتعرف على الذين أمضيت عمرك في وسطهم ـ ويخرجان من الإسمنت إلى العشب المتاخم لاجتيازهم ــ فيناديهم الخال بأسمائهم أو يتبادل عبارة أو جملة معهم ـ ويتابعان السير على الإسمنت من جديد.

لكن الشارع مقفر هذا المساء، البيوت المتلاصقة ذاتها تبدو يقظة ساهرة على حالها، أما سكانها فقد اعتادوا في مساء أيّاريّ لطيف كهذا ــ أولئك

الذين لم يذهبوا إلى الكنيسة طبعاً ـ الجلوس على الشرفات المظلمة لوقت قصير بعد العشاء في الكراسي الهزّازة أو المراجيح، وتجاذب أطراف الحديث فيما بينهم أو من شرفة بيت إلى شرفة بيت آخر إذا ما كانت المنازل متقاربة بما يسمح بذلك.

هذا المساء تجاوزا رجلاً واحداً فقط، لم يكن ماشياً وإنما واقفاً بالضبط على المدخل الرئيسي الأمامي المؤدي إلى الحانوت الأنيق الصغير من مبنى أنشىء العام المنصرم بين بيتين آخرين متلاصقين، بحيث يسمع سكان أحدهما تدفق الماء في مرحاض البيت الآخر (علّق الخال على ذلك بالقول: «لو أنك ولدت ونشأت وترعرعت طيلة حياتك في مكان لا تسمع فيه سوى البوم في الليل والديوك عند الفجر أما في الليالي النديّة عندما يأتيك صوت الخشب المنشور في الجوار على بعد ميلين، لتمنّيت العيش حيث تسمع الناس وتحسّ بهم دائماً من كل جانب حولك وهم يدلقون مياه التصريف ويفتحون علبة سمك السلمون أو الشورباء»).

بدا ذلك الشخص أشد سواداً وسكوناً من الظلام نفسه ـ وهو ريفيّ، نزح إلى البلدة منذ عام مضى، وامتلك بقّالية متواضعة في شارع جانبيّ معظم زبائنها من الزنوج، لم يدخل مجال رؤيتهما إلا بعد أن اقتربا منه، وقد عرفهما أو عرف الخال على الأقل قبل مسافة ما، كان ينتظرهما، حيث توجه إلى الخال بالحديث قبل أن يصلا إلى محاذاته:

«ألست مبكراً قليلاً أيها المحامي؟ سكان منطقة بيت فور أولئك لابد أن يحلبوا الماشية ويقطّعوا الحطب لتحضير فطور الغد قبل أن يتناولوا عشاء اليوم ويأتوا إلى المدينة».

أجاب الخال بسرور: «قد يقررون البقاء في البيوت طيلة مساء الأحد».

تجاوزا الرجل، عندئذ أعاد الأخير ما جاء على لسان أحدهم في صالون الحلاقة هذا الصباح (تذكر أحد أقوال الخال بأن المرء يحتاج لمفردات قليلة عملياً، كي يعيش حياة مريحة وفعّالة، تتمثل في كليشيهات بسيطة تعبّر عن عواطفه وحاجاته وشهواته القليلة البسيطة لا بصفته فرداً بحد ذاته بل كإنسان يعيش وسط قومه وربعه):

«هكذا الآن إذا كان اليوم أحداً فهذا ليس ذنبهم. كان على ذلك ابن العاهرة أن يأخذ هذا بعين الاعتبار قبل أن يقدم على قتل أحد أحب البيض بعد ظهر السبت».

من ثم ناداهما رافعاً صوته بعد أن تابعا المسير: «زوجتي ليست على ما يرام هذا المساء، كما أنني لا أريد أن أقف هناك وأكتفي بالنظر إلى واجهة السجن. لكن قل لهم أن يرسلوا في طلبي إذا ما احتاجوا إلى المساعدة».

قال الخال: «أتوقع أنهم علموا مسبقاً أنهم يستطيعون الإعتماد عليك يا سيد ليلي».

تابعا المسير. عاد الخال إلى القول: «أتعرف؟ ليس عنده حقد على الذين يدعوهم زنوجاً، وإذا سألته فقد يجيبك أنه يحبهم حتى أكثر مما يحب بعض بني قومه من البيض الذين يعرفهم، وهو مقتنع بذلك، وهم على الأرجح ينقدونه بعض السنتات من حين إلى آخر في حانوته مقابل بعض السلع ـ علبة علك أو علبة نيلة أو قرن موز أو علبة سردين أو زوج رباطات أحذية أو زجاجة مثبت شعر التي يقتنصونها تحت معاطفهم ومآزرهم، وهو على علم بذلك؛ قد يعطيهم أشياء بلا مقابل ـــ كالعظام واللحم التالف في محل القصابة الذي يخصّه والحلوى ودهن الخنزير التالفيْن. كل ما يرجوه هو أن يتصرّفوا مثلما يتصرّف الزنوج. وهذا ما فعله لوكاس بالضبط: فقد صوابه وقتل رجلاً أبيض ـ قد يكون السيد ليلي على يقين بأن جميع الزنوج قد يفعلون ذلك ـ سيأخذه البيض ويحرقونه حسب المعتاد بانتظام، وفي حد زعمه أنهم يفعلون تماماً مثلما يريد لوكاس منهم أن يتصرّفوا حسب شريعة البيض؛ كلّ ينظر إلى الأصول من منطقه الخاص؛ الزنوج يتصرّفون كما يجب أن يتصرّف الزنوج بينما يسلك البيض مسلك البيض، دون شعور بانعدام المودّة لدى أيّ من الجانبين (طالما أن السيد ليلي ليس من عائلة جوري) فور انتهاء الحدث العنيف؛ من المرجح أن يكون السيد ليلي أول المتبرعين بالنقود لتشييع جثمان لوكاس ولإعانة أرملته وأطفاله إن وجدوا. هذا يثبت أيضاً أن لامدعاة لمزيد من الأسى كالذي يتشبث تشبثاً أعمى بعيوب أسلافه.

أطلاً على ساحة البلدة، الخاوية أيضاً ـــ حوانيت معتمة مُتدَرِّجة الارتفاع، خيط النصب الاتّحادي التذكاري الأبيض الرفيع قبالة كتلة دار

الحكومة البادية للعيان، الشامخة فوق أعمدة تنتهي إلى الساعة ذات الوجوه الأربعة المعتمة قليلاً، والتي يضيء كل جانب منها مصباح خافت ذي خاصيّة متصلّبة أشبه بالتماع الحباحب إزاء تلك الدقّات الميكانيكية الأربع الثابتة للمناشدة والتحذير. من ثم لاح السجن، في اللحظة نفسها انطلقت سيارة من مكان مجهول ودارت في الساحة، مصحوبة بوميض وبريق وهالة من الأضواء في آن معاً مع صخب محرّك ضئيل رغم أنه استفزازي وسط الليل الأجوف والبلدة الخاوية، من داخلها جعر صوت أَحَد الشبان ـ زعقة هائلة لا معنى لها ليست بكلام ولا بصياح ـ واستمرت السيارة في الدوران على محيط الساحة، حتى أكملت الدائرة واختفت عائدة في اتجاه غير معلوم.

توجها إلى السجن. كان بناءً قرميدياً متناسب الأجزاء محدداً بأربعة أعمدة من الآجر موشاة بنقوش بارزة قليلاً على الواجهة فوق الكورنيش القرميدي على طول الإفريز نظراً لقدمه إذ شيّد في عهد كان الناس يمضون فيه فترة طويلة لإقامة أي صرح ولو كان سجناً بعناية واهتمام، تذكّر كيف قال الخال ذات مرّة أن أيّاً من دور الحكومة أو الكنائس لم تكن بمثابة سجلاّت تؤرخ للمقاطعة والسكان بقدر السجن الذي كان بحد ذاته أشبه بالأرشيف لا لأن حروف أوائل الأسماء المنسيّة وكلمات أو عبارات الشكوى والتحدي والانتحار كانت محفورة على الجّدران فحسب بل لأن قطع القرميد والحجارة ذاتها كثيراً ما حملت عذابات وأوجاع القلوب مدة طويلة، معبّرة عن زوبعة غير مميزة هاجت وربما انفجرت، ليس من حيث وضوحها، وإنما من حيث بقائها سليمة صامدة قوية لا يمكن إزالتها. ومما لا يرقى إليه الشكّ في هذا الصدد هو أن السجن وإحدى الكنائس هما أقدم بنائين في البلدة، أما دار الحكومة وسواها في الساحة فقد احترقت وتحولت إلى أنقاض في أعقاب احتلال القوات الفيدرالية للبلدة بعد معركة عام1864.

عرف ذلك عن طريق اسم فتاة محفور بمفرده في واجهة النافذة المروحية إلى جانب ،باب، مكتوب بخط يدها على الزجاج بواسطة ألماسة في السّنة نفسها، اعتاد هو أن يصعد إلى الواجهة لينظر إليه مرتين أو ثلاث مرات في العام، وهو مخفي الآن في الاتجاه المعاكس، ليس من أجل عبق الماضي

وإنما ليتحقق ثانية من الخلود، ومن أزلية الشباب وعدم فنائه ـ كان اسم احدى بنات السجّان في تلك الآونة (لدى الخال تفسير لكل شيءٍ لا يستند إلى الحقائق الجامدة وإنما يتخطّاها متجاوزاً الإحصائيات وصولاً إلى ما يثير المشاعر إلى حد بعيد بحيث يبدو كأنه الحقيقة بعينها: أمور تحرك مشاعر القلب دون أي ارتباط البتة بينها وبين المعلومات المثبتة، وقد أخبره أيضاً أن هذه الناحية من حوض الميسيسبي حديثة العهد، لا يتجاوز عمرها الخمسين عاماً كبلدة وموضع لاستقرار مجموع السكان، الذين جاؤوها قبل ذلك في الماضي بأقل من حياة أعمرهم من غير زيادة أو نقصان وعملوا مجتمعين على حمايتها، وقاموا بنشاطاتهم الحيوية والرائعة لا طلباً للمال أو السياسة وإنما لتسوية أرض يستفيد منها أخلافهم، بحيث يعمل المرء سجّاناً وبعدئذ يعمل صاحب خان أو طبيباً بيطرياً أو بائع خضار متجول إضافة إلى ذلك يسميه نبيلاً كلٌّ من المحامي والطبيب والقس والمزارع) وقفت على النافذة تراقب تراجع لواء القوات المتحالفة عن البلدة تحت وطأة القصف، وقعت عليها بالمصادفة عيون ملازم رث الثياب طليق الذقن على رأس سراياه المدحورة، لم تحفر في الزجاج اسمه، لا لأن الفتاة في تلك الآونة لم تكن تفعل ذلك البتة، بل لأنها لم تكن تعرف اسمه آنذاك، بغض النظر عن أنه أصبح زوجاً لها بعد مضيّ ستة أشهر على تلك الحادثة.

في الواقع ظل يبدو مثل مقرّ للسّكن بشرفته الخشبية ذات الدرابزين الممتدة على طول واجهة الطابق الأرضي. عدا عن ذلك لم يكن في الجدار المكسوّ باللبن أية نافذة، باستثناء مستطيل واحد تتخلله خطوط مستعرضة، ومن جديد فكّر بليالي الأحد الموغلة في القدم حتى عهد نينوى[1]، حيث كانت الأيادي الداكنة اللدنة تَتَركّز في الصدوع المتسخة، وتتعالى الأصوات الرخيمة دونما اضطراب أو ندم في نداء على المجتمعين على طول الشارع من النسوة اللواتي يرتدين مآزر المطبخ، أو على الفتيات اللواتي يرتدين ملابسهن الخفيفة الرخيصة الثمن التي حَصَلْنَ عليها من مؤسسات البيع

---

(1) - NINEVEH نينوى مدينة آشورية على الضفة الشرقية لنهر دجلة قبالة مدينة الموصل في العراق.

حسب الطلب بالبريد[1]، أو على الشبان الآخرين الذين لم يسجنوا من قبل حتى الآن، أو الذين ألقي القبض عليهم وأطلق سراحهم أمس، وذلك من الصباح حتى يطفيء السجان المصابيح ويعلو صوته عبر السلالم آمراً إياهم بالصمت.

لم يحدث هذا مساء اليوم، بل حتى الغرفة الواقعة خلف السجن كانت مظلمة رغم أن الساعة لم تبلغ الثامنة. كان باستطاعته أن يراهم، تخيل أنهم قد لا يكونون محتشدين، بل مع بعضهم بالتأكيد، هادئين لا ريب، متلامسين على مدى طية المرفق سواء شعروا بذلك أم لا، دون أن يضحكوا أو يتجاذبوا أطراف الحديث في هذا المساء، وقد جلسوا في الظلمة يراقبون أعلى درجات السلم، لأن هذه لن تكون أول مرة تبدو فيها القطط السوداء رمادية في عيون عصبة من البيض الأوغاد، لم يشغلوا بالهم في إدخالها بحسبانهم بأي شكل من الأشكال.

كان الباب الأمامي مفتوحاً، منفرجاً على مصراعيه في عرض الشارع بحالة لم يسبق له أن شاهده فيها حتى في فصل الصيف، بالرغم من أن الطابق الأرضي مقرّ لسكن السجّان، إزاء الجدار الخلفي بدا رجل غائص في كرسيه بحيث يرى منظراً شاملاً للشارع من خلال الباب، لم يكن السجّان أو أحد أعوان الشريف. وذلك لأنه تحقق من شخصيته: إنه ويل ليجيت، من سكّان مزرعة صغيرة على بعد ميلين عن البلدة في السابق، ومن البارعين في اجتياز الغابات والصيد فيها، أحسن رامٍ وخير صيّادي الغزلان في المقاطعة، وقد جلس في الكرسي المائل حاملاً صفحة الفكاهة الملوّنة من صحيفة ممفيس عدد اليوم.

دون أن يسند إلى الجدار بجانبه بندقية يدوية اصطاد بها عدداً أكثر (والتي طارد بها الأرانب كذلك الأمر) من أن يذكره من الغزلان، وإنما أسند بندقية صيد بسبطانتين، شاهدهم سلفاً دون أن يخفض الجريدة أو يحركها، وتبينهم قبل دخولهم من الباب الرئيسي، وراح يراقبهم بثبات

---

(1) - MAIL - ORDER HOUSE مؤسسة الطلب البريدية: مؤسسة تجارية للبيع بالتجزئة تتلقى الطلبات البريدية وتلبيها بواسطته.

يجتازون المشى ويصعدون الدرجات ويعبرون الواجهة ويدخلون: في نفس اللحظة ظهر السجّان، فجأة من الباب الأيمن - رجل قميء، أشعث الشعر أكرش كالح الوجه قلق غاضب، يحمل مسدساً ضخماً مخيفاً في حزام الخرطوش حول خصره وقد بدا في وضعٍ مقلقل في غير موضعه الصحيح أشبه بقبّعة حريرية أو ياقة عبد معدنية تعود إلى القرن الخامس الميلادي — أغلق الباب خلفه، صارخاً في وجه الخال على الفور:

«لا يكلّف نفسه عناء إغلاق الباب الأمامي أو إقفاله، بل يكتفي بالمكوث هناك حاملاً تلك الجريدة الفكاهية اللعينة بانتظار أي شخص يريد الدخول».

ردّ ليجيت بصوت رصين لطيف: «أُنفّذُ تعليمات السيد هامبتون».

صاح السجّان: «هل يظن السيد هامبتون أن هذه الجريدة الفكاهية توقف أبناء منطقة بيت فور أولئك؟».

استمرّ ليجيت برصانة ولطافة حتى الآن: «لا أظن أنه إلى الآن يخشى بيت فور. هذا الكلام للاستهلاك المحلّي في الوقت الحاضر».

نظر الخال إلى ليجيت قائلاً: «يبدو أن العملية بدأت. لقد شاهدنا سيارة - إحدى سياراتهم - تتجول في أرجاء الساحة أثناء قدومنا. أعتقد أنها وصلت إلى هنا أيضاً».

أجاب ليجيت: «أوه، حصل هذا مرة أو مرتين، وربما ثلاث مرات، بالواقع لا أعطي هذا الأمر مزيداً من الاهتمام».

قال السجّان: «وأنا آمل أن تذهب السيارة إلى جهنم. لأنك بالتأكيد لن توقفهم بمجرد خصر محشو بالرصاص».

قال ليجيت: «بالتأكيد. لا أتوقع أن أوقفهم. إذا ما عقد عدد كاف منهم العزم وصمّموا على قرارهم، لا شيء يحول بينهم وبين ما ينوون القيام به. لكن أنا أعول عليك وعلى ذلك المسدس لمساعدتي فيما بعد».

صرخ السجّان: «أنا؟ هل أنا من يجب عليه الوقوف في وجه آل جوري وآل إنجرم من أجل خمسة وسبعين دولاراً في الشهر؟ ومن أجل زنجي فقط؟ لن تفعل أياً من هذين الأمرين إلا إذا كنت أحمق».

ردّ ليجيت بصوته اللطيف الواثـق: «آه يجـب علـي أن أقـاوم. فالسـيد هامبتون يدفع لي خمسة دولارات من أجل هذه الغاية».

توجّه إلى الخال بالقول: «تريد مشاهدته على ما أظن».

قال الخال: «أجل. إذا لم يمانع السيد طوبس».

حدّق السجّان إلى الخال بعين ملؤها الغيظ والحنق: «هكذا قررت حشـر نفسك في موضوع كذلك الأمر، فوق ذلك لايمكنك أن تتركه وشأنه إلى حد بعيد».

على حين غرّة استدار ونـاداهم: «تعـالوا» وشـقّ الطريـق، عـبر البـاب الذي كانت كرسيّ ليجيت تتـأرجح إلى جانبـه، إلى البهـو الخلفـي حيـث يعلو الدرج المؤدي إلى الطابق الأعلى، فجأة ضغط زر الكهرباء أول الدرجات فأضاء المصباح، وبـدؤوا بصعـود الـدرج، تبعـه الخـال، تبعهمـا هـو، وراح يراقب تدلّي وانحناء جعبة المسدس الجلدية على فخذ السجان. بـدا فجـأة أن السجان على وشك الوقوف، حتى الخال ظنّ ذلك، وتوقّف أيضاً، لكـن السجان تابع طريقه، متحدثاً من فوق كتفيه: «لا تهتم بأمري. سأبذل كـل ما بوسعي. لقد أقسمت بشرف المهنة أيضاً». ارتفع صوته قليلاً، مستمراً في هدوئه، إنما بطبقة أعلى: «لكن لا تظنّ أن أحداً يجبرني على محبة مهنـة كهذه. عندي زوجة وأولاد، بماذا أنفعهم إذا مـا قتلـت دفاعـاً عـن زنجـي لعين وضيع؟»، من جديد عـلا صوتـه، لم يكـن هادئـاً هـذه المرّة: «كيـف يمكنني متابعة حياتي إذا سمحت لمجموعة من السفلة وأولاد العاهرات أن يختطفوا سجيناً مني؟»، توقّف عندئذ على الدرجة التي فوقهم، بات أعلى من الاثنين، علا وجهه الضيق والغيظ مرّة أخرى، ارتفع صوته من الغضـب والهياج: «كان من الأفضل للجميع لـو جـاء أولئـك القـوم وأخـذوه منـذ أن وضعوا يدهم عليه أمس».

أجاب الخال: «لكنهم لم يأخذوه. ولا أعتقد أنهم فاعلون. وإذا ما فعلوا فلن يكون لهذا أية أهمية. فهـم إمـا أن يـأخذوه وإمـا لا، فـإذا لم يـأخذوه يكون كل شيء على ما يرام، وإذا ما أخذوه سنبذل كل ما في وسعنا، أنـت والسيد هامبتون وليجيت ونحن جميعاً، ماذا علينا أن نفعل، ماذا نستطيع أن نفعل؟. إذن لا حاجة بنا للقلق. هل تفهم قصدي؟».

«نعم» قال السجّان. بعدئذ استدار وتابع طريقه.

من زنّاره الواقع تحت نطاق المسدّس صدر صوت حاد من جرّاء سحب مفتاح الباب الضخم الذي يغلق الدرج (كان قطعة محفورة يدوياً تزيد سماكته عن بوصتين، مغلق بقفل جوزة، مرتبط بقضيب معدني مزخرف يدوياً بين شقين صغيرين ضيّقين ضيق المفصلات الآخذة شكل الوردة المزخرفة يدوياً أيضاً، المطروقة منذ ماينوف على مئة سنة في حانوت الحداد على الجانب الآخر من الشارع، حيث كان يقف أمس. في أحد أيام الصيف الماضي، كان شخص غريب، من أبناء المدينة، مهندس يُذكّره بخاله إلى حد ما، حاسر الرأس لا يرتدي ربطة عنق، في قدميه حذاء تنس وبنطال صوفي ناعم، يحمل معه ما تبقّى من علبة شمبانيا على غطاء السيّارة القابل للطيّ، والذي من المفروض أن تكون كلفته ثلاثة آلاف دولار، يقود[1] السيارة إلى داخل البلدة لا عبرها، دون أن يتسبّب لأحد بالأذى، بل أدّت قيادته للسيّارة على الرصيف إلى كسر لوح زجاج أحد النوافذ، كان مخموراً تماماً، منتشياً تماماً، لم يزد المبلغ الموجود في جيبه على خمسين سنتاً بل وجد في جيبه أوراقاً ثبوتية كالبطاقة الشخصية ودفتر شيكات أظهرت أروماته رصيدا في أحد بنوك نيويورك يزيد على ستين ألف دولاراً، أصرّ على دخول السّجن حتى بعد أن حاول الشريف وصاحب النافذة معاً إقناعه بالذهاب إلى الفندق لينام ويتمكّن من إمضاء الشيك ليعوض عن النافذة والجدار: بعد أن أحتجزه الشريف على مضض في السّجن، نام على الفور مثلما ينام الطفل، وأودعت السيارة في أحد الكراجات، وفي صباح اليوم التالي هتف السجّان إلى الشريف في الساعة الخامسة ليأتي ويطلق سراح الرجل، لأنه أيقظ جميع السجناء بالحديث من زنزانته إلى الزنوج الموقوفين في الحجز المؤقت المقابل. عند ذلك الحد جاء الشريف وأطلق سراحه. فيما بعد أراد الذهاب إلى العمل مع عمال المياومة لكنهم لم يسمحوا بذلك، وبعد أن جُهّزت سيارته ما كان ليبادر إلى الرحيل في تلك الليلة والليلتين التاليتين، دعاه الخال من الفندق لتناول

(1) - يعود الفعل إلى الفاعل المقدم شخص غريب.

طعام الصباح، وتجاذب معه أطراف الحديث مدة ثلاث ساعات حول أوروبا وباريس وفيينا، بينما كان هو وأمه يلتقطان كل شاردة وواردة بعد اعتذار والده عن المشاركة. بقي يومين بعد ذلك، بذل ما بوسعه لدى الخال والعمة وهيئة المجلس التشريعي في البلدة، وفي خاتمة المطاف لدى هيئة المراقبين أنفسهم ليشتري الباب كاملاً أو إذا لم يوافقوا على بيع هذا الباب فعلى الأقل يشتري القضيب والثلوم والمفصلات) وفتح[1] القفل وأدار الباب على محوره.

لكن في هذه الأثناء تحوّلوا عن عالم الرجل، الرجال: أولئك الذين كدحوا وامتلكوا بيوتاً ونهضوا بعائلات، وحاولوا كسب أموال أكثر مما يستحقون بالوسائل العادية بالطبع، أو على الأقل حسب القانون ليصرفوا القليل منها على اللهو وتوفير بعض الأشياء لأيام الشيخوخة في المستقبل.

بينما كان الباب السندياني ينفرج ثانية اندفع زفير متلاش تناهى إليه من شعور الإنسان بالعيب والعار ـ فاحت رائحة معجون الخشب والغائط والقيء التّفِهْ والفساد والاستخفاف والإجحاد أشبه بمادة محسوسة بفعل حركة وانتقال أجسادهم وهم يصعدون الدرجات الأخيرة الموصلة إلى الممر الذي كان جزءاً من غرفة رئيسية، هي الحجز المُقْتَطَع من باقي أنحاء الغرفة بجدار من الأسلاك المتشابكة مثل قن دجاج أو مأوى كلاب، وقد تراصف داخل الغرفة إزاء الجدار الأبعد عدة أسِرّة استلقى عليها خمسة زنوج، لاحراك بهم، عيونهم مغمضة، لا يصدر أي صوت أو شخير عنهم، مستلقين هناك، ساكنين محافظين على النظام، متسمّرين تحت وهج أغبر منبعث من مصباح أوحد لا ظلة[2] له كأنهم جثث مضمّخة، من جديد توقّف السجّان، وتشبّثت يداه بالقضبان المتشابكة، بينما كان يحدق في الأجساد شبه الساكنة.

قال السجّان بصوت حاد رفيع شبه هستيري: «انظروا إليهم. يبدون مسالمين كالخرفان لكن لا يوجد ابن حرام منهم نائماً».

---

(1) ـ يعود للسجان.

(2) ـ SHADE ظُلّة: قطعة معدنية تعكس ضوء المصباح وتكثّفه.

أعاد القول: «وأنا لن أرهبهم بعصابة إجرامية من رجال بيض مهتاجين يحملون المسدسات وصفائح البنزين عند منتصف الليل. تقدموا» وخرج.

خلف ذلك المكان بالضبط ظهر باب قوامه القضبان المتشابكة، غير مقفل بقفل الجوزة، إنما مثبت بمشبك ورُزّة[1] كالتي تشاهدها على مأوى الكلاب أو مخزن عرانيس الذرة، عَبَرَهُ السجّان من جانب آخر.

قال الخال: «وضعتموه في الزنزانة، أليس كذلك؟».

ردّ السجّان دونما اهتمام: «إنها أوامر هامبتون. أنا لا أعرف ما الذي يدور في ذهن أقرب البيض إلى القتيل الذي يوقن ألا يهدأ له بال قبل أن يقتل شخصاً ما. مهما يكن نزعت جميع البطانيات».

قال الخال: «قد لا يبقى فترة طويلة هنا بحيث ينام».

«هاها» قال السجان بذلك الصوت العالي الحاد المتوتر عديم الإرتياح، وأعقب «هاها هاها»: بعد أن لحق بخاله، فكّر كيف أن السرّيّة بالغة الأهمية في ممارسة القتل العمد بين جميع حِرَف الإنسان؛ وكيف أن المرء لا يألو جهداً في الحفاظ على العزلة التي يخلد إليها أو يمارس الحب فيها، بل يبذل كل جهد ممكن للحفاظ على عزلة يمارس القتل فيها، إلاّ أن القاتل يبدِّد تلك العزلة أيّما تبديد دون قصد منه: بدا باب حديدي عصري هذه المرّة له قفل مثبّت في الجدار بحجم حقيبة اليد النسائية، فتحه السجّان بواسطة مفتاح آخر على الحلقة ومن ثم استدار، ظلّ وقع أقدامه مسموعاً وهو يجري في طريق عودته في الممر إلى أن طفا عليه صوت باب السنديان أعلى الدرج.

خلف الباب الحديدي بدت زنزانة مضاءة بمصباح مغبّر وحيد مبقّع بقذارة الذباب خلف ظُلّة المصباح المربوطة إلى السلك المتدلّي من السقف، وهي لا تزيد مساحتها عن مختلى صغير وسط نبات الوزال، بل في الواقع واسعة بما يكفي لاستيعاب سريرين صغيرين إلى جانب الجدار، سريرين خاليين من البطانيات والفرشات على حد سواء.

---

(1) ـ STAPLE الرُزّة: مسمار مزدوج السن على شكل U .

دخل مع الخال فكان كل ما شاهده، وأوّل ما وقعت عليه عيناه في تلك اللحظة: قبّعة ومعطفاً معلّقين على مسمار في الجدار: تذكّر فيما بعد كيف ورد إلى ذهنه في نهدة، وفورة انتعاش: أمسكوا به. لقد ذهب. تأخر الوقت. انتهى الأمر الآن. وذلك لأنه لم يعرف ماذا كان يتوقّع سوى أن الأمور لم تسِر على هذا النحو. صفحتان متصلتان من جريدة تغطيان بعناية ودقة نوابض السرير السفليّة العارية، وجزء آخر من الجريدة موضوع بالعناية نفسها على السرير الصغير العلوي، بحيث يمنع الضوء عن عيونه ولوكاس مستلق على الجريدة، نائم على ظهره، وقد أسند رأسه إلى حذائه الذي استعمله بمثابة وسادة، يداه مشبوكتان على صدره، بمنتهى الحذر أو الاطمئنان مثلما ينام العجائز، فمه مفتوح، يتنفس بشهقات ضعيفة ضحلة متشنّجة، نهض مطلقاً زفرة لا يمكن احتمالها من الحنق وإنما من الغيظ، للمرة الأولى تطلع هو إلى الوجه الذي علته للحظة مسحة من الأسى، وعبَّر للمرة الأولى عن عمر صاحبه، وإلى يدي الرجل العجوز الضعيفتين الكثيرتي العقد، اللتين منذ البارحة فحسب أرسلت طلقة قاتلة إلى ظهر إنسان آخر، وقد وضعهما بهدوء واطمئنان على صدر قميص قديم الطراز أبيض اللون مغلي دون ياقة، مزرّر من الرقبة بزر نحاسي أصفر يعلوه الصدأ، شكله أشبه بسهمٍ يقارب حجم رأس الأفعى، جال في خاطره هو: *إنه مجرد زنجي، بغضّ النظر عن كلّ من أنفه العالي، ورقبته الصلبة، وسلسلة ساعته الذهبية، وعدم استعماله كلمة أفندي بمعناها الفعلي عندما يخاطب أحداً بها. مجرد زنجيّ وضيع يقتل شخصاً ما لا على التعيين عدا عن إطلاق النار عليه في الظهر، رغم ذلك كلّه ينام كطفل فور عثوره على بساطٍ ما يستلقي فوقه*. استمر في النظر إلى لوكاس الذي أغلق فمه وفتح أجفانه دون أن يتحرك، نظرت العينان إلى أعلى للحظة أخرى، بعدئذ استدار البؤبؤان بحيث بات لوكاس يرمق الخال، وبقي رأسه ثابتاً: كان مستلقياً يرمقه من موضعه.

قال الخال: «ماشي الحال يا عجوز. أخيراً قامرت».

بعد ذلك تحرّك لوكاس. جلس بثبات، وترك قدميه تتدليان بصلابة من حافّة السرير، ممسكاً بإحدى الركبتين بين يديه، ملوحاً بحركة دائريّة

مثلما تُفتح أو تُغلقُ بوابة لا قفل فيها، تأوّه، نخر بارتياح بصوت عال لامبال لا ارتباك فيه، مثلما ينخر ويتأوّه كبار السنّ من جرّاء عدم تمكنهم من تحريك جسمهم مثلما ينبغي منذ أمد طويل، بحيث يغدو الألم معتاداً مألوفاً لا وجعاً متواصلاً خفيفاً إذا لم يُكْتَب لهم الشفاء الكلي منه، فيغدون عاجزين معتوهين، انتابه هو حنق وذهول، فيما كان يستمع إلى القاتل ويراقبه لا تحت المشنقة وإنما لدى السحل على يد الجمع الهائج، فلا يتأوه آنذاك من جراء القسوة في ظهره، بل يفعل ذلك إذا كان في عمره بقية طويلة يستطيع أثناءها اختبار مدى تأثره بذاك الداء العضال المألوف كلّما تحرك.

قال لوكاس: «يبدو أن الأمر يستهويك. لهذا أرسلت في طلبك. كيف ستتصرف معي؟».

قال الخال: «تقصدني أنا؟ بالنسبة لي لن أفعل شيئاً. فإسمي ليس جوري. ونحن لسنا من سكان بيت فور».

انحنى لوكاس متحرّكاً بصلابة من جديد، وأمعن النظر إلى قدميه، فوصل آنذاك إلى تحت السرير ليتناول الحذاء الآخر، وانتصب جالساً مرة ثانية، وبدأ بالاستدارة لكي ينظر خلفه لدى وصول الخال، فصدر صرير عن السرير، ومن ثم تناول فردة حذائه الأولى من السرير، ورمى بها إلى جانب الأخرى. إلا أن لوكاس لم ينتعل أيّا منهما، بدلاً عن ذلك جلس مرة ثانية، ولم يتحرك، ووضع يديه على ركبتيه، ونظر بعينين طارفتين نصف مفتوحتين. بعدئذ أصدر إشارة بإحدى يديه عبّرت عن عدم مبالاته بآل جوري، أو الانتقام، أو المحرقة أو أي شيء. بادر إلى القول: «يقلقني ذلك عندما يدخلون هذا المكان. ما يعنيني هو القانون. ألست أنت محامي المقاطعة؟».

أجاب الخال: «أوه. النائب العام في المقاطعة هو القادر على الحكم بشنقك أو إرسالك إلى بارتشمان وليس أنا».

تابع لوكاس النظر بعينين طارفتين، باطّراد دونما إسراع. كان يراقبه. فجأة تأكّد أن لوكاس لم ينظر البتة إلى الخال ومن الواضح أنه لم يكن ينظر طيلة ثلاث أو أربع ثوانٍ.

قال لوكاس: «أعرف ذلك. بالتالي يمكنك أن تتوكل بقضيّتي».

«أتوكل بقضيّتك؟ أدافع عنك أمام القاضي».

قال لوكاس: «سأدفع لك لا داعي للقلق».

جاء ردّ الخال: «لن أرافع عن قتلة يطلقون النار على الناس في الظهر».

مرة ثانية أومأ لوكاس بإحدى يديه القاتمتين الكثيرتي العقد: «لننس المحاكمة. لم نصل إليها بعد».

في ذلك الوقت، شاهد هو لوكاس يراقب خاله، وقد مال رأسه بحيث أجال نظره في الخال من الأسفل إلى الأعلى من خلف شعر حاجبيه الأشيبين ـ كانت نظرة مختلسة مميزة قاسية ذات مغزى. أردف لوكاس قائلاً: «أريد استئجار أحد الأشخاص لهذه الغاية» ـ وصمت.

بعد أن نظر هو إليه ملياً، استرجع في ذهنه ذكر إحدى جاراتهم العجائز، توفيت منذ سنوات، كانت امرأة عانساً، تلبس شعراً مستعاراً مصبوغاً، وتضع دائماً على رف خزانة المؤن زبدية كبيرة مليئة بكعكة شاي منزلية الصنع كافية لجميع أولاد الحي، كما تذكّر كيف علمتهم جميعاً ذات صيف لعبة الخمسمائة (لم يكن قد تجاوز السابعة أو الثامنة في ذلك الوقت): كانت تجلس على طاولة اللعب في شرفتها البعيدة عن متناول الأبصار في صبيحات أيام الصيف الحارة، حيث تبلل أصابعها لتتناول ورقة من يدها وترميها على الطاولة، ولم تكن تثبت يدها فوق الطاولة بالطبع، وإنما تبقيها قريبة منها إلى أن يعبّر اللاعب التالي عن رغبته بأن يلعب الورقة الرابحة أو يفوز بالدور، بعد أن يتحفّز بحركة ما أو إيماءة انتصار أو ابتهاج، أو ربما بتنهيدة قاسية متصاعدة، فتُسارعُ إلى القول: «انتظر. لقد التقطت الورقة خطأً»، فتلتقط الورقة وتعيد وضعها في يدها وتلعب ورقة أخرى. هذا بالضبط ما فعله لوكاس. ظلّ جالساً بهدوء من قبل أما الآن فلا حراك فيه أبداً. لم يبد عليه حتى أنه يتنفس.

قال الخال: «ولماذا تستأجر أحد الأشخاص كيفما اتفق؟ لديك محام. لقد أخذت قضيتك على عاتقي للتوّ قبل وصولي إلى هذا المكان. سأقول لك ماذا تفعل مباشرة بعد أن تقص عليّ ما حدث».

قال لوكاس: «لا أقبل. أريد توكيل أحد الأشخاص وليس من الضروري أن يكون محامياً».

هذه المرّة أجال الخال ناظريه في لوكاس: «وما المطلوب؟».

راح يراقبهما. لم يعد الأمر مجرّد دور خاسر في لعبة الخمسمائة أيام الطفولة، بل كان أشبه بأدوار بوكر سبق له أن تابعها.

قال لوكاس: «هل تريد القيام بالمهمة أم لا؟».

أجاب الخال: «بناء على ذلك لن تقول لي ماذا أفعل قبل أن أوافق على التوكيل» وأردف قائلاً: «ماشي الحال. الآن أخبرك ماذا تفعل. قل فقط ماذا حدث هناك البارحة بالضبط».

قال لوكاس: «بالتالي أنت لا ترغب في تأدية المهمة. كما أنك لم تقل نعم أو لا حتى الآن».

قال الخال: «لا» بصوت أجش عال جداً مسيطراً على نفسه، لكنه في الوقت نفسه تكلّم من جديد قبل أن يعيد نبرة صوته إلى حالة من الهدوء الغاضب ظاهرياً: «لأنه ليس لديك أي عمل تكلّف أحداً به. أنت في السجن معتمد على رحمة ا لله في أن يمنع آل جوري الأشقياء عن جرّك من هنا وشنقك على أوّل عمود هاتف يصادفونه. كما أنني لم أفهم بعد لماذا تركوك تأتي إلى المدينة أصلاً».

قال لوكاس: «دعك الآن من ذلك. ما أحتاجه هو أن...».

رد الخال: «دعك من ذلك. أخبر آل جوري ألا يشغلوا بالهم عندما يقتحمون هذا المكان مساء اليوم. وأخبر أهالي بيت فور أن يتجاهلوا ذلك كلياً».

توقف، أعاد صوته مرة أخرى إلى نبرة هادئة ممزوجة بالغضب بجهد بالكاد تشعر به. أخذ نفساً عميقاً وزفرة. «أخبرني الآن ما الذي حدث أمس بالضبط».

مرّت برهة أخرى دون أن يجيب لوكاس، وقد جلس على سرير الزنزانة، ووضع يديه على ركبتيه، رابط الجأش غير مبا ل، دون أن يركز

نظره على الخال، بتراخ حرك فمه كأنه يتذوق شيئاً ما. قال: «كان اثنان من الأقارب شريكين في منشرة. بالأحرى كانا يشتريان الأخشاب في المنشرة فور تقطيعها».

سأل الخال: «من هما؟».

«فنسون جوري واحد منهما»

حدق الخال بلوكاس برهة طويلة. لكن صوته كان هادئاً تماماً هذه المرة. قال: «لوكاس. هل خطر لك مرةً أنك لو ناديت أي أبيض بعبارة يا أفندي وكنت تعنيها بكل ما في الكلمة من معنى لما كنت هنا الآن؟».

قال لوكاس: «طالما أن الأمور كذلك فسوف أبدأ الآن. سأستهل النداء بكلمة يا سادة للأقارب الذين يجرُّونني من هنا ويضرمون النار تحتي» قال الخال: «لن تصاب بسوء قبل المثول أمام القاضي. ألا تعلم أن سكان منطقة بيت فور لا يتصرفون على هواهم لوجود السيد هامبتون ـ على الأقل هنا في البلدة؟».

«الشريف هامبتون في سريره الآن».

«لكن السيد ويل ليجيت جالس تحت الدرج ومعه البندقية».

«لا أعرف أحداً يدعى ويل ليجيت».

«ألا تعرف صياد الغزلان الذي يستطيع إصابة أرنب راكض هارب ببندقية من عيار ثلاث وثلاثين؟».

قال لوكاس: «هاه! آل جوري أولئك ليسوا غزلاناً. قد يكونون خيولاً رشيقة أو نموراً أمريكية لكنهم ليسوا غزلاناً».

أجاب الخال: «ماشي الحال. بالتالي سأبقى هنا إذا كان هذا يريحك. الآن. تابع. كان فنسون جوري وشخص آخر يتاجران بالخشب المنشور. من هو الشخص الآخر؟».

«فنسون جوري هو الشخص الوحيد المعروف حتى الآن».

أجاب الخال: «اشتهر لأنه أصيب في وضح النّهار بعيار ناري في ظهره. لابأس، هذه إحدى طرق الشهرة ـ تمام ـ من كان الشخص الآخر».

لم يصدر عن لوكاس أيّ جـواب، لم يتحـرك، ربمـا لم يسـمع، جلـس باطمئنان وعدم اكتراث، حتى إنه لم ينتظر: اكتفى بالجلوس في مكانه فيما كـان الخـال يراقبـه. آنـذاك قـال الخـال: «لا بـأس. مـاذا كانـا يفعـلان بالأخشاب؟».

«كانا يجمعانها بعد التقطيع مباشرة ليصار إلى بيعها. في النهايـة يـأتي رجل آخر، ينقلها في عربة إلى مكان بعيد أثناء الليل، كان يجـيء متـأخرا بعد حلول الظلام حيث يحمل حملاً وينقلـه إلى جـلا سجو أو هوليمـاونت ليبيعه ويضع المال في جيبه».

«وكيف عرفت؟».

«شاهدتهم. وراقبتهم».

لم يشك هو بذلك للحظة لأنه تذكر أفراييم، والد بارالي، قبيـل وفاتـه، إذ كان عجـوزاً مـترمِّلاً، يمضـي معظـم اليـوم في مغالبـة اليقظـة والغفلـة في كرسي هزاز على شرفة بارالي في الصيف وأمام النار في الشتاء، كما اعتاد أن يمشي علىالطريق في الليل، ويصل بعض الأحيان إلى مسافة خمسة أو سـتة أميال من المدينة قبل أن يرجع في الفجر ليغالب الغفلة واليقظـة مـن جديـد في الكرسي طوال اليوم.

قال الخال: «كل شيء تمام. وماذا بعد؟».

قال لوكاس: «هذا كل ما الأمر. كان يسرق حملا كاملا من الخشب كـل مساء أو شيئاً من هذا القبيل».

حدق الخال إلى لوكاس فترة تقـارب عشـر ثـوان. بدهشـة مكبوتـة قـال بصوت ملؤه الهدوء: «عنـد هـذا الحـد تنـاولت مسدسـك وذهبـت لتسـوية النزاع. أنت، أيها الزنجي، تأخذ مسدساً وتذهب لتعالج مشكلة بين اثنـين من البيض. ماذا توقعت؟ ماذا خطر في بالك أيضاً؟».

قال لوكاس: «لم أتوقع شيئاً. أريد.. ».

قال الخال: «ذهبت إلى المخزن. بعدها التقيت مصادفة بفنسنون جـوري أولاً ومن ثم تبعته إلى الغابة وأخبرته أن شـريكه يسـرقه ومـن الطبيعـي أن يشتمك وينعتك بالكذب سواء كان كلامـك صحيحـاً أم لا، مـن المـألوف أن

يتصرف بهذه الطريقة، من المحتمل أنه أطاح بك أرضاً في اللحظة نفسها واستمر في طريقه فأصبته أنت بعيار ناري في ظهره».

قال لوكاس: «لم يطح بي أحد إلى الأرض على الإطلاق».

قال الخال: «وهذا أسوأ ما في الأمر. أسوأ ما في الأمر بالنسبة إليك. فالحالة ليست دفاعاً عن النفس. أطلقت النار عليه في ظهره فقط. بعدئذٍ وقفت مكان الحادث فوق جُثّتِه وكان المسدس الذي خرجت الرصاصة منه في جيبك كما تركت جماعة البيض تأتي وتقبض عليك. وهذا بسبب الشرطي المذعور المصاب بالروماتيزم الذي أولاً لا عمل له في ذلك المكان وثانياً لا عمل له على الإطلاق، سوى أخذ ما يعادل دولاراً كلما حرر مذكرة توقيف أو سلّم مذكرة إحضار عن كل سجين، والذي لديه من الذخيرة ما يكفي لصد جميع أهالي بيت فور عليهم اللعنة لمدة ثماني عشرة ساعة إلى أن يرى هوب هامبتون ما يناسب أو يتذكر أو يتجنب إحضارك إلى السجن - بهذا يبعد كل سكان الريف أولئك الذين لا تستطيع أنت أو أصدقاؤك تجميعهم في مائة عام.

قال لوكاس: «لا أصدقاء لي» مفاخراً بصرامة لا تعرف اللين، وأردف بعد ذلك بأمر آخر، رغم أن الخال تحدث عنه من قبل: «أنت على صواب ولا أصدقاء لك. وإذا ما أطلقت أي عيار من ذلك المسدس في أي وقت لفرقتهم في أرجاء المعمورة. ماذا تقول؟ ماذا؟».

قال لوكاس: «قلت لنتجنّب الدَيْن».

قال الخال: «أعرف. أنت لا تلجأ إلى الأصدقاء بالدفع ديناً. أجل. أعرف. الآن أصغِ إليّ. غداً ستمثل أمام هيئة المحلفين الكبرى. سيحا كمونك بتهمة ما. علاوة على ذلك يمكنني أن أجعل المستر هامبتون ينقلك إلى موتستاون أو حتى إلى مكان أبعد من ذلك بكثير إذا أحببت، حتى تدعوك المحكمة إلى المثول أمامها. بهذا الشكل ترفع تهمة القضاء عن كاهلك، وأقنع النائب العام في المقاطعة بأن يسمح لك بذلك لأنك عجوز من أصحاب السوابق، ما أعنيه حسب المعلومات التي ستصل إلى القاضي والنائب العام في المقاطعة طالما أنهم لا يعيشون ضمن مسافة خمسين ميلاً من

مقاطعة يوكناباتاوفا. بعد ذلك لن يشنقوك، بل يرسلوك إلى الإصلاحية، من المحتمل ألا تعيش حتى يتم إخلاء سبيلك بكفالة، لكن على الأقل لا يصل إليك آل جوري هناك. هل تحب أن أمضي الليلة معك هنا؟».

قال لوكاس: «لا أعتقد. أبقوني ساهراً طيلة الليلة الماضية. سأحاول أخذ قسط من النوم. إذا بقيت هنا ستتكلم حتى الصباح».

قال الخال بصوت أجش: «هذا صحيح» وأردف قائلاً له هو بعدئذ: «هيا». في نفس الوقت اتجه إلى الباب، حيث توقف الخال قائلاً: «هل تريد شيئا؟».

قال لوكاس: «حبذا لو أرسلت لي بعض التبغ، إذا ما أفسح لي آل جوري مجالاً للتدخين».

قال الخال: «غداً أرسل التبغ لك. أم الآن فلا أريد إبقاءك ساهراً هذه الليلة». مضى في طريقه، ولحق هو به، تركه الخال يمر قبله عبر الباب إذ مرّ جانبا بدوره ووقف ليلقي نظرة إلى الخلف نحو الزنزانة بينما كان الخال يخرج من الباب ويغلقه خلفه، الرتاج الحديدي شق طريقه في الثلم المعدني وأصدر صوتاً مشوباً بالزيت مكثفاً معبراً عن حقيقة لا يمكن دحضها مثل حكم يوم الدينونة الذي يعم أرجاء الكون عندما تطمس الآلات مخترعها الإنسان وتمحوه عن وجه البسيطة، ولا غاية لها الآن بعد أن اختفى كل ما هو عرضة للتدمير، فتغلق آخر باب سحاب مصنوع من الكاربورندوم[1] على ألوهيّتها التي لا سلف لها خلف قفل، آلة لا عدّاد فيها، يستجيب بسرعة لطرقات الخلود.

مضى الخال في طريقه، راحت قدماه تطرقان المر محدثتين اصداء ومن ثم قعقعت سلاميات أصابعه على الباب المصنوع من السنديان، فيما استمر هو في تبادل النظرات مع لوكاس عبر القضبان المعدنية، ولوكاس واقف في منتصف أرض الزنزانة تحت المصباح ينظر إليه وقد علت وجهه تعابير كثيرة بحيث تراءى له برهة أن لوكاس يتحدث بصوت عال. لكنه لم يفعل شيئاً ولم يصدر عنه أي صوت: اكتفى بالنظر إليه بصمت وصبر وإلحاح إلى

(1) - CARBORUNDUM الكاربوندوم: مكب شديد الصلابة يستخدم في الصقل والكشط.

أن سمع وقع خطوات السجان تقترب أكـثر فـأكثر علـى الدرجـات وصوتـاً خشناً صدر عن دخول السقاطة في الشق الصغير على الباب.

أعاد السجان إغلاق السقاطة من جديد واجتازوا ليجيـت الـذي مـاتزال الجريدة الفكاهية معه وقد جلس على الكرسي المتمايلة إلى جـانب البندقيـة في مواجهة الباب، بعد ذلـك خرجـوا، ثـم نزلـوا في الممـر الـذي يـؤدي إلى المدخل الرئيسي ومنه إلى الشـارع، وقـد استمر هـو في السـير عـبر المدخـل حيث كان الخال قد استدار للتـو عـائداً إلى البيـت، توقـف، فكـر: *قـاتل زنجـي يطلـق النـار علـى البيـض مـن الخلـف دون أن ينتابـه أي شـعور بالندم.*

قال هو: «أتصور أن أجـد سكيتس مـاكجون يتسـكع في مكـان مـا مـن الساحة. في حوزته مفتاح الصيدلية. سآخذ بعض التبغ للوكاس الليلة».

توقف الخال. جاء قوله: «لينتظر حتى الصباح».

قال هو «نعم» وقـد أحـس بمراقبـة الخـال لـه، دون أن يتسـاءل كيـف يتصرف لو قال الخال لا، لم ينتظر في الواقع، بل اكتفى بالتوقف هناك.

قال الخال: «لابأس. لا تتأخر». بعد ذلك كان بوسعه الإنطلاق لكنه لم يؤات بحركة.

«قلت لن يحدث الليلة شيء على ما أعتقد».

أجاب الخال: «مازلت أميل إلى ذلك. لكنك لا تستطيع أن تجـزم. مـن هم على شاكلة آل جوري لا يمنحون مزيـداً مـن الأهميـة للغنـاء أو المـوت. وإنما يلجؤون إلى وضع مزيد من الثقـة في الموتـى وكيـف يموتـون ــ بشـكل خاص موتـاهم. إذا اشتريت التبـغ دع توبـس يوصلـه إليـه وعـد أنـت إلى البيت».

على هذا النحو لم يكن عليه قـول نعـم هـذه المـرة، اسـتدار الخـال أولاً فاستدار هو ومشى باتجاه الساحة، تابع المسير إلى أن تلاشـى وقـع أقـدام الخال، توقف بعد ذلك إلى أن تلاشى كيان الخال الشبيه بصورة ظليليـة في لمعان بدلته الحريرية قبل أن يختفي وراء آخـر مصبـاح قوسـي[1] ولـو أنـه

---

(1) ـ مصباح قوسي ARCHLIGHT مصباح ينبعث فيه النور من قوس كهربائي.

ذهب إلى البيت وأتى بالحصان هاي بوي فور تأكده هذا الصَّباح من سيارة الشريف لقطع مسافة أربعين ميلا في ثماني ساعات، ومن ثم استدار وعاد يسير أمام مدخل السجن فيما كانت عينا ليجيت تراقبانه وقد تبيَّنه في الوقت نفسه من وراء القسم الأعلى من الجريدة الفكاهية قبل أن يصل هو إلى البوابة ولو ذهب مباشرة لوصل في هذه اللحظة إلى الممر الضيق خلف السياج واجتازه إلى الأرض المجاورة فأسرج الحصان هاي بوي وغادر مدخل المرعى وأدار ظهره إلى جيفرسون والقتلة الزنوج وكل شيء، مطلقاً العنان لهاي بوي، ولكان نهب الأرض بأقصى سرعة ممكنة إلى أبعد مسافةيريدها قبل أن يترك الفرس يسترد أنفاسه في النهاية وقبل أن يشرع في المسير، موجهاً ذيله إلى جيفرسون والزنوج القتلة: عبر المدخل وصعد في الممر واجتاز الرواق، من جديد أتى السجان بسرعة من الباب الأيمن، وقد ظهرت عليه سيماء الغضب المستمرّ هذه المرة.

قال السجان: «عدت ثانية. ألا تكتفي أبداً؟».

قال هو: «نسيت أحد أغراضي».

قال السجان: «دعه ينتظر حتى الصباح».

قال ليجيت بتشدقه الرصين: «اتركه يأخذه الآن. لو تركه إلى الصباح لسحق بالأقدام». استدار السجان، وصعدوا الدرج مرة أخرى، وفتح السجان سقاطة الباب السندياني من جديد.

قال هو: «لا داعي لفتح الباب الثاني. أستطيع الدخول إليه من بين القضبان».

لم ينتظر، أغلق الباب خلفه، سمع السقاطة تدخل في الثلم لكن مازال عليه أن يقرع الباب خلفه، أصغى إلى وقع أقدام السجان تتلاشى هابطة لكن لابد في تلك اللحظة أن يصيح بصوت عال ويضرب الأرض بقوة فيسمعه ليجيت بشكل أو بآخر، فكر في نفسه *قد يذكّرني بطبق الكرنب ولحم الفخذ اللعين أو قد يقول لي على الفور ما من سَنَدٍ سواي، وأنا كل ما تبقى له وهذا كافٍ* ـ أسرعٍ في المشي، بعدئذ لم يتحرك أي من لوكاس أو الباب المعدني، مازال واقفاً تحت ضوء المصباح وسط الزنزانة، راقب

الباب عندما صعد إليه وتوقف وقال بصوت أجش كصوت خاله المعتاد: «حسناً ماذا تريدني أن أفعل».

أجاب لوكاس: «اذهب إلى هناك والق نظرة عليه».

قال هو: «إلى أين أخرج وعلى من ألقي نظرة؟».

استوعب كل شيء. بدا أنه كان على علم مسبق بصيرورة الأمور، فكر بشيء من الإرتياح *هكذا الأمر إذن*، فيما كان صوته لا إرادياً يطلق صيحة رعب يكتنفها الغضب والشك: أنا؟ أنا؟ كان أمرا خشيته وخفته وطاردْته سنين طويلة حتى بدا بطول حياتك، رغم ذلك حصل لك وهو ليس إلا مجرد ألم، سبب لك الأذى وهكذا تم الأمر وانتهى كل شيء على خير مايرام.

قال لوكاس: «سأدفع لك».

كأنه لم يسمع صرخته المرتبكة الغاضبة: «أنا اذهب إلى هناك وأنبش ذاك القبر». لم يخطر في باله تلك اللحظة سوى: *ـ إذنْ هذا هو الثمن الذي سأدفعه لقاء ذلك الطبق من اللحم والخضار*. والسبب أنه تجاوز ذلك مسبقاً منذ وقت طويل عندما عاد به أمر ما ـ كائناً ما كان إلى هذا المكان منذ خمس دقائق مضت وهو يتلفت خلفه عبر مدى هوة لا يمكن رأبها بينه وبين العجوز الزنجي القاتل، شاهد لوكاس، وسمع الحاح العيون، اليأس المكتوم، سمعه يقول شيئاً ما له، لا لأنه[1] تشارلز ماليسون الإبن بحد ذاته ولا لأنه أكل صحن الخضار والتمس الدفء بالنار، بلْ لأنه الوحيد بين كل البيض الذي يحقّ للوكاس أن يأخذ فرصة بالتحدث إليه بين اللحظة الراهنة واللحظة التي ُيجَرُّ فيها خارج الزنزانة ويهبط الدرج حتى نهاية حبل الشنق.

قال هو: «تعال»، بادر لوكاس إلى الحركة، اقترب، قبض على اثنين من القضبان كطفل يقف داخل السياج. لم يتذكر كيف فعل ذلك بل نظر إلى الأسفل فشاهد يديه تمسكان باثنين من القضبان، كما شاهد زوجين من

---

(1) ـ نلاحظ أن الضّمير هو الوارد في الصفحات السابقة يعود إلى تشارلز ماليسون بطل الرواية الذي أخّر المؤلف ذكر اسمه إلى الآن رغبة منه في زيادة تحفز القارئ.

الأيادي البيض والسود تتشبث بالقضبان وفوقها يتقابل شخصان وجهاً لوجه.

قال هو: «لابأس. لماذا؟»

قال لوكاس: «إذهب وإلق نظرة عليه. إذا عدت في وقت متأخر جيداً أكتب لك ورقة الان تنص على أني مدين لك بأي مبلغ تظن أنك تستحقه».

من جانبه استمر في الإصغاء، أدرك المطلوب: قال بينه وبين نفسه: «مطلوب مني أن أذهب مسافة سبعة عشر ميلاً في الظلام إلى هناك».

قال لوكاس: «تسعة أميال. آل جوري يدفنون موتاهم في كنيسة كاليدونيا. تشق طريقك في اتجاه يدك اليمنى صاعداً التلال الواقعة تماماً خلف الجسر الواقع على الساقية الفرعية البالغ طولها بتسعة أميال. يمكنك الوصول إلى هناك في سيّارة خالك خلال نصف ساعة».

«ستكون مجازفة إذا وجدني آل جوري أحفر القبر. لابد أن أعرف لماذا. أنا لا أعرف بالضبط عمّ أبحث ولماذا؟»

قال لوكاس: «مسدسي هو كولت واحد وأربعون». وهذا يعني أن عيار السبطانة هو الأمر الوحيد غير المعروف لديه ـــ والسلاح فعال قويّ تلقى العناية اللازمة إلى الآن كما أنه قديم متميز متفرد مثل مسواك الأسنان الذهبي، الذي كان (دون شك) مبعث فخر كاورثرز مكاسلن طوال نصف قرن مضى.

قال هو: «لا بأس. وماذا بعد؟».

«لم تُطْلَقْ النار عليه من مسدس كولت واحد وأربعين».

«من أي سلاح أُطْلِقَت النيران عليه؟».

لم يجب لوكاس على هذا السؤال، وقف إلى جانب الباب الحديدي، تشبثت يداه بالقضبان بشدة وثبات، ولم يؤات بحركة سوى حركة تنفسه الواهن. لم يتوقع هو أن يجيب لوكاس وعرف أنه لن يرد على ذلك، ولن يضيف أي قول أكثر من ذلك لأي رجل أبيض، وعرف السبب، مثلما عرف سبب انتظار لوكاس حتى أخبره، وهو الطفل، عن المسدس في حين

أنه لم يخبر أياً من الخال أو الشريف اللذين من المفترض أن يفتحا القبر ويتفحصا الجثة، كما دهش لأن لوكاس تقرب إلى ذلك الحد لإخبار خاله بالمسألة وهذه مزيّة لاحظها وأكبرها في خاله تدفع الناس لإخباره بأمور يكتمونها عن سواه وحتى المتحفظين من الزنوج لا يخفون عليه ما يخفونه على غيره من البيض: تذكر إفراييم العجوز وخاتم أمه ذات صيف قبل خمس سنوات - في سويت برير فرجينيا قطعتين متماثلتين منها بعد أن صمّدوا خرجيّتهما ليتبادلاها فتلبس كل منهما خاتم الأخرى حتى الموت مثلما تفعل الفتيات الصغيرات، رفيقة أمه في الغرفة كانت من كاليفورنيا وهي تعيش الآن مع احدى أخواتها في سويتبرير لم تلتق والدته به لسنوات وربما لن ينقابلا ثانية البتّة ومع ذلك مازالت أمه محتفظة بالخاتم: في أحد الأيام اختفى؛ تذكر كيف كان يستيقظ في الليل ويشاهد المصابيح مضاءة في الطابق السفلي فيعرف أنها مازالت تبحث عنه: في تلك الآونة كان من عادة إفراييم العجوز الجلوس على كرسيّه الهزاز المنزلي الصنع على شرفة بارالي الأمامية، وذات يوم قال له إفراييم إنه سيجد الخاتم مقابل نصف دولار فأعطى إفراييم نصف دولار وغادر البلدة بعد ظهر ذلك اليوم في معسكر كشفي لمدة أسبوع وعندما عاد وجد أمه في المطبخ حيث نشرت الصحف على الطاولة وأفرغت فوقها محتويات الخابية التي قامت هي وبارالي بحفظ الذرة فيها ثم راحتا تذريان المحصول بالمحاريك وللمرة الأولى في الأسبوع تذكر الخاتم وقفل راجعاً إلى منزل بارالي حيث كان إفراييم جالساً على كرسيّه في الشرفة، قال إفراييم: «اللقيّة تحت الجرن في مزرعة والدك» ولا حاجة لأن يقول إفراييم كيف لأنه تذكر للتو في ذلك الوقت: السيدة دونز: وهي امرأة بيضاء عجوز تعيش وحدها في حجرة سفلية قذرة بأحد البيوت تنبعث منها رائحة كرائحة وكر الثعلب تقع في طرف المدينة في قرية صغيرة من بيوت الزنوج، يغدو الزنوج منه ويروحون إليه باطراد آناء الليل وأطراف النهار دون أدنى شك: لم تكن تكشف البخت أو تداوي بالتعاويذ بل كانت قادرة على إيجاد الأشياء المفقودة (وهذه ليست معلومات بارالي التي كانت تبدو دائماً غير عالمة بها أو لا وقت لديها حالياً للتحدث عنها، وإنما هي معلومات ألك ساندر).

إن كلاً من فقدان النصف دولار، أو الاقتناع بالعثور على الخاتم، حدا به ضمنياً إلى استبعاد تلك الفكرة إلى غير رجعة على الفور، لأن ما أثار اهتمامه، هو أن الأمر بحد ذاته ثانوي، يأتي في الدرجة الثانية. أخيراً قال لإفراييم: «منذ أسبوع وأنت تعلم به دون أن تخبرهم؟» نظر إفراييم إليه لبرهة، هزّ رأسه بثبات ورباطة جأش وراح يمج غليونه البارد المليء بالرماد مصدراً صوتاً أشبه بانفجار محرك سلندر صغير مع كل هزة: «توجب علي إخبار أمك. هي بحاجة للمساعدة. لذلك انتظرتك. فالشبان والنساء لا يشغل بالهم شاغل، يمكنهم الإصغاء. لكنّ أشخاصاً في خريف العمر مثل والدك وخالك لايمكنهم الإصغاء. لا وقت لديهم.

الحقائق هي شغلهم الشاغل، في الواقع يجب أن تضع هذا في حسبانك لأنك قد تحتاجه في يوم من الأيام. إذا ما أردت القيام بما يخالف السائد والمألوف لا تضِع وقتك مع معشر الرجال بل اعتمد على النساء والفتيان». تذكر عدم وصول حنق والده إلى حافة الإنفجار غضباً، ورفضه المشوب بالإستياء، وتحويل القضية برُمتها إلى دنيا يسودها مبدأ أخلاقي تهجّمي قائم على الإستعداد للقتال، كما تذكر خاله الذي لم يتعرض حتى لأية ورطة عدا قناعته أن السبب الأوحد لشك الآخرين في بعض الأمور عائد لكونهم غير منطقيين، بينما تابعت والدته بهدوء وإصرار استعداداتها للخروج إلى المزرعة التي لم تزرها منذ أكثر من عام وعلى حد سواء لم يشاهدها والده منذ شهور قبل فقدان الخاتم كما تذكر رفض خاله أيضاً قيادة السيارة فاضطر والده لاستئجار سائق من الكاراج فخرج إلى المزرعة برفقة أمه وبمساعدة المُناظِر وجدوا الخاتم تحت المِزْوَد الذي تتناول الخنازير علفها منه. إلا أن الأمر هذه المرة لم يكن مجرد خاتم صغير لا قيمة له تبادلته فتاتان صغيرتان قبل عشرين عاماً إنما هو موت شنيع مزر يقع بإنسان ما، لا لكونه قاتلاً بل لأن بشرته سوداء. بالتالي كان هذا كل ما صرح لوكاس به وعلم هو أن هذا كل ما في الأمر، وفكر في نفسه بشيء من الغيظ الشديد: هل أصدق؟ وماذا أصدق لأن لوكاس لم يطلب منه تماماً تصديق أي شيء، لم يستجدِ العطف، ولم يُدْلِ بمرافعة أخيرة يائسة دفاعاً عن إنسانيته وطلباً للرأفة بحاله، إنما أراد على وجه التحديد دفع المال له

إذا لم تكن التكلفة باهظة جداً لقاء الذهاب بمفرده مسافة سبعة عشر ميلاً (لا تسعة: تذكر على الأقل أنه سمع ذلك الآن) في الظلام دون أن يذكر له السبب والمجازفة بالتورط في انتهاك حرمة قبر أحد أفراد عشيرة رجال وصلوا إلى ذروة الاستعداد لاقتراف أشد اعتداء دموي غاضب.

مع ذلك حاول من جديد، عندما عرف أن لوكاس لم يعلم أنه سيعرف فحسب وإنما كان على علم مسبق الجواب الذي تلقّاه: «ما هو نوع السلاح الذي أُصيب القتيل به يا لوكاس؟» وتلقى بالضبط ما علم لوكاس على وجه التحديد بما توقع هو:

ردّ لوكاس: «سأدفع لك. حدّد أجراً معقولاً وأنا أدفع لك».

أخذ نفساً عميقاً وزفره بينما كان كلاهما يواجه الآخر من خلال القضبان، كانت عينا الرجل العجوز الدامعتان ترمقانه بغموض وإبهام. لم يكونا مستعجلين، فكرٍ في نفسه بشيء من الرضى *لم يهزمني فحسب، ولم يشك لحظة واحدة أبدا في ذلك*. قال هو: «لابأس. بالنسبة لي لن تجدي معاينة القبر، حتى في حال تمكني من إخبارك عن الطلقة. بهذا تعرف أنت ما معنى هذا الكلام. عليّ أن أحفر القبر، وأخرج الجثة من تلك الحفرة قبل أن يمسك بي آل جوري، ومن ثم أعود إلى البلدة حيث يرسل السيد هامبتون في طلب أحد الخبراء من ممفيس كي يَبُتَّ في أمر الطلقة».

نظر إلى لوكاس، العجوز المستند بلطف إلى القضبان داخل الزنزانة دون أن يدقق النظر فيه. من جديد أخذ نفسا عميقاً. «لكن المشكلة الأساسية هي إخراج الجثة من تحت التراب حتى يتسنّى لأحد ما معاينتها قبل....»

نظر إلى لوكاس. «يجب عليّ الذهاب إلى هناك ونبش القبر والعودة إلى البلدة قبل منتصف الليل أو الساعة الواحدة ومن المحتمل أن يكون منتصف الليل وقتاً متأخراً جداً. لا أعرف كيف أتصرف. لا أستطيع أن أفعل ذلك».

ردّ لوكاس: «سأحاول الإنتظار».

الفصل الرابع

عندما وصل إلى البيت وجد عربة بيك آب باهتة اللون مستعملة مصفوفة أمام الدار على قارعة الطريق. لم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة بكثير، في أسوأ الإحتمالات تبقّى أقل من أربع ساعات ليذهب الخال إلى منزل الشريف ويقنعه ومن ثم يعثران على قاضي صلح أو أي شخص من الممكن أن يجدوه ويوقظوه ومن ثم يقنعوه علاوة على ذلك بنبْش القبر (بدلاً من طلب ذلك من آل جوري)، وهذا ما لا يستطيعه رئيس الولايات المتحدة شخصّياً لأي سبب كان فما بالك بشريف منطقة ريفية، يسعى إلى إنقاذ زنجي من الحرق على نار المحرقة) بعد ذلك يذهبون إلى كنيسة كاليدونيا وينبشون الجثة ويعودون بها إلى البلدة في الموعد المحدد. وقد تحل ليلة من الليالي يأتي فيها مزارع، زربت بقرته أو زرب خنزيره التائه لدى جار له يصر على تحصيل ما قيمته دولاراً واحداً كعطل وضرر قبل أن يطلق سراحها، فيجلس مدة ساعة مع خاله ليتدارس الأمر ويقول نعم أو لا أو فيما أعتقد بينما يتكلم الخال عن المحاصيل الزراعية أو أمور السياسة، أمران اثنان أحدهما لا يعلم الخال شيئا عنه والآخر لا يعرف المزارع شيئاً عنه إلى أن يتحاشى الرجل ذكر الغاية التي أتى من أجلها.

لكنه الآن لا يستطيع تحمل الشكليات الفارغة. منذ أن غادر السجن سار بسرعة هائلة والآن بات يهرول، عابرا أطراف المرجة المخضرة،

الموصلة إلى شرفة البيت ومنها إلى الصالة مروراً بالمكتبة حيث كان والده جالسا تحت مصباح قراءة وفي يده صفحة الكلمات المتقاطعة من جريدة ممفيس عدد يوم الأحد وكانت والدته تحت مصباح آخر تقرأ أحد كتب سلسلة الشهر، من وراء أمه اتجه إلى ما اعتادت أمه أن تسميه خلوة جافن التي اعتاد بارالي وألك ساندر من جانب آخر أن يسمياها المكتب منذ وقت طويل قبل أن يطلق الجميع عليه هذه التسميه. كان الباب موصداً، تناهى من ورائه إلى مسامعه صوت رجل هامس في نفس اللحظة التي قرع الباب مرتين فيها وتوقف بعدها، من ثم فتح الباب ودخل قائلا على الفور: «مساء الخير يا سيدي. عدم المؤاخذة خلوة جافن».

وذلك بسبب صوت خاله؛ على الطرف الآخر من الطاولة مقابل خاله جلست امرأة ترتدي فستاناً قطنياً بسيطاً وقبعة دائرية باهتة اللون مغبرة مرتكزة بزاوية قائمة على ذروة رأسها أشبه بالقبعة التي كانت ترتديها جدته، بدلاً من رجل حليق الذقن لوّحت الشمس رقبته يرتدي قميص وبنطال الأحد الأنيقين، تحققّ هو منها قبل أن يشاهد الساعة ـ التي كانت عبارة عن قطعة ذهبية موضوعة أعلى الصدر شبيهة إلى حد بعيد بنفس الموقع الذي يُطرّز فيه القلب على صدر ثوب مؤطرّ من لوحة الكنفا ــ وذلك لأنه لم يشاهد أية امرأة من معارفه ترتدي أو تمتلك ساعة مثلها بعد وفاة جدته وتذكر عربة البيك آب: إنها الآنسة هابرشام التي بقي إسمها إلى الآن أقدم اسم في المنطقة. في قديم الزمان كان ثمة أسماء ثلاثة:

الدكتور هابرشام وصاحب حانة يدعى هولستر وابن هوجونوتي[1] شاب أصفر يدعى جيرنيير امتطى صهوة جواده إلى المقاطعة قبل أن تمسح تخومها وتحدّد مواقعها وتطلق الأسماء عليها، عندما كانت جيفرسون موقعاً تجارياً يدعى تشيكاسو[2] وهي كلمة تستعمل لتمييز موقعها بين الأدغال البكر التي قوامها أجمة القصب والغابة وهي أسماء اختفت كلّها، تلاشت حتى من الذاكرة الشفهية للمنطقة باستثناء إسم هولستون الذي

---

(1) - HUGUENOT الهوجونوتي: البروتستانتي الفرنسي.

(2) - CHICKASSO: من قبائل الهنود الحمر.

يطلق على الفندق الواقع في الساحة حيث لا يعترف أو يكترث بمصدر هذه الكلمة إلا القلة القليلة، أما ما تبقّى من دم لويس جرينيير الرائع هاوي الفنّ المهندس المتعلم في باريس الذي مارس المحاماة وقتاً قصيراً وأمضى معظم مراحل حياته مزارعاً ورساماً (كان ميله إلى زراعة القطن والمحصولات الغذائية أكثر منه إلى قماش الرسم والفرشاة) فهو يجري حالياً في عروق رجل بشوش رصين في أواسط عمره له عقل الطفل ومحيّاه كان يعيش في عليّة أشبه بالوكر ابتناها لنفسه من ألواح خشب مرمية وقطع بواري موقد مسطّحة وصفائح تنك على ضفة نهر يبعد عشرين ميلاً، لم يعرف كم عمره ولم يكن قادراً أيضاً على كتابة (لوني جرينوب) الإسم الذي يطلقه على نفسه حالياً كما أنه لم يعلم على وجه التحديد أن قطعة الأرض التي يشغلها كانت آخر فتات تبقى من آخر الأكرات التي حازها جدّه وفي النهاية بقيت الآنسة هابرشام فحسب، وهي عانس مقطوعة من شجرة تسكن في دار بقيت من أيام الإستعمار لم تُطلَ بتاتاً بعد وفاة والدها لا كهرباء فيها ولا ماء واقعة في رتل مبان على أطراف البلدة، مع خادمين من الزنوج (هنا خطر في ذهنه خاطر حول انتباهه لكن سرعان ما ابتعد هذا الخاطر في نفس اللحظة، دون أن يتلاشى بل ابتعد فحسب) يسكنان في حجرة واقعة في الفناء الخلفي، حيث تقوم الزوجة بالطبخ بينما يساعد الرجل الآنسة هابرشام في تربية الدواجن وزراعة الخضار ويتجولان في أرجاء البلدة لبيعها في عربة البيك آب. قبل سنتين كانا يستخدمان حصاناً أبيض هرماً يجرّ بوجيّة[1] (يُحكى أن الحصانَ في سن العشرين حسبما سمع لأول مرة وتحت شعره الأبيض اللماع كان جلده نظيفاً قرنفليّ اللون كجلد الطفل). بعدئذ جنيا محصولاً وافراً أو شيئاً من هذا القبيل فاشترت الآنسة هابرشام سيارة بيك آب مستعملة وبات الجميع يشاهدهما كل صباح يجوبان الشوارع من بيت إلى بيت صيفاً شتاءً، الآنسة هابرشام كانت تجلس خلف عجلة القيادة مرتدية جوارب قطنية وقبعة دائرية سوداء ظلت ترتديها طوال الأعوام الأربعين المنصرمة وفساتين منقوشة نظيفة مثل

(1) - BYGGY البوجية: عربة خفيفة وحيدة المقعد يجرها حصان واحد (حافل بأبلق).

الفساتين المعروضة في كاتالوجات سيرز ويبك بثمن دولارين وثمان وتسعين سنتاً مع ساعة ذهبية صغيرة أنيقة مثبتة بدبوس زينة على نحرها فوق الثديين الضامرين إضافة إلى حذائين وقفازين على مقاسها قالت والدته إنهما من صنع نيويورك وكلفة زوج منهما أربعين دولاراً والآخر خمسة عشر دولاراً أو عشرين سنتاً، بينما يهرول الزنجي بكرشه الضخم داخلاً البيوت خارجاً منها بسلة من الخضار الطازجة أو البيض في يد وفروج مذبوح منتوف مشفّى في اليد الأخرى تأكد، تذكر، على وجه التحديد تحفز انتباهه وغض الطرف لقصر الوقت، قال بسرعة: «مساء الخير يا آنسة هابرشام. عدم المؤاخذة جئت كي أتحدث إلى الخال جافن». ومن ثم أردف قائلاً لخاله: «خال جافن».

قال الخال بسرعة خاطفة على الفور: «وهذا ما تريده الآنسة هابرشام»، بنبرة وصوت، كان يدركهما على الفور في الأوقات العادية، كما أنه من الممكن أن يفهم القصد مما قال الخال في الأوقات الاعتيادية. لكن ليس الآن. لم يسمعه في الواقع. لم يُصْغِ. في الحقيقة لم يكن لديه متسعاً من الوقت للحديث، قال بسرعة تشوبها الرصانة، متوجهاً بالحاح إلى خاله بالكلام بعد أن نسي الآنسة هابرشام ونسي حتى حضورها:

«جئت لأتحدث إليك» بعد هذه العبارة توقف لا لأنه انتهى، فهو بالأحرى لم يبدأ بعد، بل لأنه سمع خاله الذي لم يتباطأ بالرد لأول وهلة، وقد جلس جلسة جانبية على الكرسي، ووضع إحدى يديه خلف الرقبة وحمل الغليون المشتعل المصنوع من خشب الذرة الموضوع أمامه على الطاولة باليد الأخرى، حافظ على نفس النبرة الشبيهة بنقرة سوط خفيفة غير مؤذية من مقدمة سوط صغير:

«هكذا إذن ذهبت إليه بنفسك أو ربما لم تبال بإيصال علبة التبغ إليه تحديداً. فأخبرك بحكاية. آمل أن تكون مقبولة».

هذا كل ما في الأمر. بات بوسعه الذهاب الان، بل بالأحرى توجّب ذلك عليه. لهذا السبب كان عليه ألا يتوقف في طريقه عبر الصالة أو حتى أن يدخل البيت بتاتاً وإنما أن يستمر في طريقه إلى خارج البيت حيث

ينادي ألك ساندر وهو في طريقه إلى الإسطبل، قال لوكاس ذلك له قبل ثلاثين دقيقة في السجن عندما دخل مباشرة في صميم الموضوع، وعلم في النهاية بأن ذلك أفضل من محاولة إخبار الخال أو أي شخص آخر مباشرة تحت عين بوليس آل جوري السري. حتى الآن لم يؤات بحركة، تناسى الآنسة هابرشام. تجاهلها، قال: «عدم المؤاخذة» وعلى هذا النحو تلاشت من اللحظة لا من الغرفة فحسب مثلما يخفي الساحر بكلمة أو حركة نخلة أو أرنبا أو أصيص ورود، في النهاية بقوا، ثلاثتهم، هو مازال ممسكاً من جانب آخر بمقبض الباب يذكر القصة، موزّعا ما بين الدخول إلى الغرفة التي لم يدخلها بالواقع والتي ما كان عليه أن يتغلغل داخلها أبعد من ذلك وما بين الخروج منها إلى الصالة إذ لا حاجة لإضاعة وقته في عبورها قبل أن يبدأ بحَيرة حركته من جديد، تمدد الخال باسطاً قدميه وذراعيه خلف طاولة مكَركبة تبعثرت عليها الجرائد وأخرى تبعثرت عليها أكواز بيرة ألمانية مليئة بلفافات الصحف وعدد يصل إلى دزينة من الغليونات المصنوعة من خشب أكواز الذرة في مراحل مختلفة من تفحمها، على بعد نصف ميل كان الزنجي المقطوع من شجرة، المفتقد للأصدقاء، المتشبث برأيسه، المتكبر العنيد، المستقل بموقفه، (الوقح أيضاً) الذي لا يُخْدَع بسهولة وحيداً في الزنزانة قد يكون أول صوت بشري يأتيه صوت ناب جوري المقطوع الذراع وهو يحمل السلاح في الردهة تحته قائلاً: «ابتعد عن طريقي يا ويل ليجيت. جئنا لقتل ذلك الزنجي المنحط».

خارج الغرفة الهادئة المضاءة بمصباح لم يكن دولاب الزمن يهدر باتجاه منتصف الليل وإنما كان قد أطاح بمنتصف الليل في هديره، لا كي يحيل منتصف الليل إلى حطام وإنما ليطيح بحطام منتصف الليل أرضاً فوقهم في تيار متوازن تلطخه سماء زرقاء، علم الآن أن اللحظة التي يستحيل إلغاؤها لم تكن عندما قال للوكاس: «لابأس» من خلال قضبان الزنزانة المعدنية وإنما عاد إلى دخول الردهة وأغلق هذا الباب خلفه. حاول من جديد، حافظ على هدوئه حتى الآن، لم يتسرع آنذاك على وجه التحديد، لم يلحّ بشكل مباشر: كان عادياً صريحاً منطقياً فحسب:

«لنفترض أن الرجل لم يقتل بمسدسه».

قال الخال: «بالطبع. هذا ما أدعيه بالضبط لو كنت مكان لوكاس ــ أو أي قاتل زنجي آخر لهذا السبب، ولو كنت مكان أي قاتل أبيض جاهل لهذا السبب بعينه. ربما قال لك تحديداً على أيّ هدفٍ أطلق نيران مسدسه. ماذا كان؟ أرنباً، أو صفيحة تنك أو نيشاناً على شجرة فقط ليتأكد إذا كان محشواً بالفعل، أو إذا كان من الممكن أن يخطىء الهدف عملياً، لنغضّ الطرف عن ذلك، لنُسلِّمْ به جدلاً في البداية: ماذا؟ ماذا تقترح؟ الجواب لا، ماذا قال لك لوكاس أن تفعل؟».

على نفس السياق المطّرد: «ألا يستطيع هامبتون نبش الجثة ومعاينتها؟» «على أي أساس؟ تمَّ إلقاء القبض على لوكاس بظرف دقيقتين بعد الطلقة، كان واقفاً فوق الجثة يحمل في جيبه مسدساً أطلقت منه النار للتَّوّ. لم ينكر أبداً أنه أطلق النار منه، بالأحرى رفض الإدلاء بأية إفادة على الإطلاق، حتى لي، أنا محاميه ـ المحامي الذي أرسل هو نفسه في طلبه. وأية مجازفة؟ هل أذهب إلى هناك فوراً وأطلق النار على واحد آخر من أولاد ناب جوري لكي أقول له كنت أبغي نبش جثة ابنه من باطن الأرض التي ووريَ فيها وصلّي على روحه فوقها. وإذا نجحت في ذلك نجاحاً عظيماً، أفضل أن أقول أردت نبش القبر لاستخراج الذهب من أسنانه فقط، لا لأُنقذَ زنجياً من السحل».

قال هو: «لكن أفرض».

قال الخال بعناد قلق لا تراجع فيه: «اصغِ لي. حاول أن تسمع. لوكاس محتجز خلف باب حديدي متين. لقد حظي بأفضل حماية من الممكن أن يقدمها له هامبتون أو أي شخص آخر في المقاطعة. حسب رأي ويل ليجيت هناك عدد لا بأس به من الناس في هذه المقاطعة يجتازونني ويجتازون توبس وحتى ذلك الباب إذا ما أرادوا فعلاً. لكن لا أظن أن ثمة أناساً كثيرين في هذه المقاطعة يريدون فعلاً شنق لوكاس إلى عمود هاتف وإضرا م النار تحته بواسطة البنزين».

ظل الوضع على حاله. مع ذلك واصل المحاولة.

عاد إلى القول: «لكن افرض فقط ـ» وسمع الآن للمرة الثالثة على وجه التحديد ما كان قد سمعه تماماً مرتين في ظرف اثنتي عشرة ساعة ومن

جديد استغرب قصور اللغة، ليس من حيث ضآلة الكلمات التي يستخدمها فردماو إنما من ضآلة مجموع مفردات اللغة، التي بواسطتها يتواصل الإنسان نسبياً في الحياة مع حشود وجماعات ضخمة وفي أحياء سكنية إسمنتية مكتظة بالسكان.

عاد الخال إلى القول: «افترض هذا إذن. لابد أن لوكاس قد فكر بذلك قبل إطلاق النار على رجل أبيض في ظهره».

في النهاية لاحظ أن خاله كان يتكلم إلى الآنسة هابرشام في تلك اللحظة، التي من جديد لم يشعر بحضورها أو يستكشفه في الغرفة في آن معا: لم يتذكر بالضبط أنها لم تعد موجودة في الغرفة أساساً.

استدار، كان يغلق الباب بعد سماع قول الخال الهادئ الذي لا يعني له شيئاً: «قلت له ماذا يفعل. لو أن شيئاً ما وشيك الوقوع حصل، لأقدموا عليه هناك في الخارج، في البيت أو في الفناء الخاص بهم وهو عدم السماح للسيد هامبتون بالوصول معه إلى البلدة. في الواقع، ماأزال أجهل سبب سماحهم بذلك. قد يكون مجرد مصادفة أو قد يتعلق الأمر بتقدم السيد جوري العجوز في السن، والنتيجة إيجابية، إذ يبقى على خير مايرام إلى الآن، سوف أقنعه بأن يعترف باقتراف جريمة القتل؛ فهو عجوز وعلى ما أعتقد سينظر النائب العام في المنطقة بأمر هذا الإعتراف. فيذهب إلى السجن ويقضي سنوات قليلة، هذا إذا عاش» أغلق الباب، على كلام سمعه من قبل ولا يريد العودة إلى سماعه، خرج من الغرفة التي لم يدخلها كلياً بأي حال ولم يضطر إلى التوقف فيها بتاتاً، فكر بصبر نافذ لا جدوى منه أشبه برجل في بيت محترق يحاول تجميع خيط مقطوع من الخرزات بعد انفكاك العقدة فور لمسها مباشرة للمرة الأولى، ***الآن ينبغي العودة إلى لوكاس واجتياز طريق السجن بأكمله مشيا على الأقدام والسؤال عن موقع الجثة***: تأكد كيف كانت أرجوحة الشك لدى لوكاس وبالمقابل كل ما توقعه فعليا هو أن يأخذه الخال والشريف على محمل الجد فيسارعان إلى إرساله في مهمة ليس لأنهما يصدقانه وإنما ببساطة لأنه لم يستوعب أن يكون الأمر متروكاً على عاتقه هو وألك ساندر: إلى أن تذكر بأن لوكاس راعى ذلك مسبقاً أيضاً، تنبأ به علاوة على ذلك، تذكر بعدم ارتياح بل

بفورة غيظ وحنق تفوق حدود إدراكه ومقدرته بكثير كيف لم يخبره لوكاس فحسب بماذا يريد وإنما بالضبط عن الموقع وعن كيفية الوصول إليه وبعدئذ سأله في النهاية إن كان ينوي القيام بالمهمة ـ راح يصغي إلى طقطقة الجريدة على الجزء السفلي من ثوب والده خلف المكتبة ويستنشق السيجار المشتعل في يده فوق المنفضة ومن ثم يشاهد خيط دخانه الرفيع الأزرق يتصاعد ببطء خارجاً من الباب المفتوح بينما كان الوالد ينتزعه بمشقة وانفعال متلازمين وينفث دخانه من جديد:

تذكر بالضبط بأية وسيلة يذهب ويعود وفكر في نفسه أن يفتح الباب من جديد ويقول للخال: *إنس لوكاس. أعرني السيارة فقط* فيمشي بعدئذٍ الخال إلى المكتبة ويسأل والده الذي يضع المفاتيح في جيبه ولا يدري أين يلقي بهم عندما ينزع ملابسه إلى أن تعثر عليهم أمه في اليوم التالي:

دع المفاتيح لي يا بابا. أريد الذهاب إلى الريف ونبش أحد القبور؛ تذكر عربة الآنسة هابرشام البيكآب الواقفة أمام البيت (لم يتذكر الانسة هابرشام. لم يعد ثانية إلى التفكير بها. فقط تذكر عربة بمحرك واقفة فارغة غير محروسة بادية للعيان على قارعة الطريق على مسافة لا تزيد عن خمس عشرة ياردة)؛ قد يكون المفتاح، أو ربما كان باقياً في القفل فيغدو أي شخص من آل جوري يمسك به وهو ينبش قبر ابنه أو أخيه أو ابن عمه قد ألقى القبض على لص سيارات كذلك الأمر.

بناء عليه (بعد الإذعان والإستسلام الناجمين عن التشتت في دوامة الطرائف المتناثرة المثيرة للاستفزاز تلك) تحقق من عدم شكّه من إمكانية الوصول أو نبش الجثة. تهيّأ له الوصول إلى الكنيسة والمقبرة دونما لأي في أقصر وقت، تصوّر نفسه وحيدا ينبش الجثة بلامشقة تذكر، من إجهاد في العضلات أو لهاث في الرئتين أو ضعف في الحواس المنكمشة. في خاتمة المطاف كان حطام منتصف الليل برمته يهوي إلى الأرض ويتحطم، فيصل إليه دونما استئذان فلا يبصر المرء شيئاً أمامه أو خلفه حتى لو أنعم النظر ودقق في الرؤية. على هذا النحو (كان ينتقل؛ لم يتوقف بعد أول جزء من الثانية أقفل فيه باب المكتب) زجّ بنفسه جسدياً في خضم أوحد لحالة من معقولية مطلقة ناجمة عن رويّة متصاعدة باستمرار، عقلانية يائسة هادئة

حصيفة لا بسبب الحجج المؤيدة والحجج المعارضة وذلك لعدم وجود حجج معارضة: كان السبب الذي حدا به إلى الذهاب إلى هناك أن أحداً ما يجب أن يفعل ذلك ولا يوجد من لديه الاستعداد لعمل كهذا وسبب توجب قيام أحد ما بذلك هو أن الشريف هامبتون (انظُره إلى ويل ليجيت مع البندقية الموضوعة في الردهة السفلى من السجن وكأنه على منصة مضاءة بإمكانه مشاهدة كل من يحاول الاقتراب وذلك قبل أن يصل إلى الباب الرئيسي مباشرة) كان مقتنعاً تماماً بأن آل جوري وأقاربهم وأصدقاءهم لن يقدموا على اختطاف لوكاس من السجن هذه الليلة فإذا كانوا الليلة موجودين جميعاً في البلدة، يحاولون سحل لوكاس فإن أحداً لن يتسكّع هناك للإمساك به وهو ينبش القبر وطالما أن هذه حقيقة راسخة فالجانب الآخر منها إذن لا لبس فيه كذلك الأمر: إن لم يكونوا في المدينة يتربصون بلوكاس الليلة فقد يعثر، مصادفة عليه وعلى ألك ساندر، أي شخص من الخمسين أو المائة من الرجال والأولاد الذين تربطهم أواصر القربى أو صيد الثعالب وصناعة الوسكي والتجارة بألواح خشب الصنوبر:

الفكرة نفسها مرة أخرى، لابد أن يمتطي الحصان من أجل هذه الغاية: هذا لأن أحداً لن يبادر سوى فتى في ربيعه السادس عشر لا راحلة لديه يمتطيها سوى حصان ولابد له أن يختار على الفور في الوضع الراهن: بين أن يذهب بمفرده على الحصان بنصف المدة ويمضي ثلاثة أضعاف الوقت في نبش القبر بمفرده لأنه لن يقوم بعملية الحفر فحسب وإنما يقوم بالمراقبة والتنصّت في آن معاً، وإمّا أن يصطحب ألك ساندر معه (سبق أن سافر برفقة ألك ساندر بهذه الطريقة حيث امتطيا صهوة الجواد هاي بوي لمسافة تزيد على عشرة أميال ـ كان فرساً مخصيّاً هزيلاً عجز عن اجتياز خمسة حواجز تحت حمل يقل عن مائة وخمسة وسبعين رطلاً وتباطأ في الخبب إلى حد بعيد تحت حمل شخصين يقومان بنزهة أجبراه فيها على الحفاظ على سرعة الهرولة ولولا ذلك لما استطاع حتى ألك ساندر أن يتحمل الركوب لفترة طويلة خلف السرج، من ثم مشى متثاقلاً يجر حوافره ما بين الهرولة والسير مستمراً على هذه الشاكلة في حملهما لعدة أميال، كان ألك ساندر خلفه أثناء خبب الحصان في الميل الأول، ومن ثم راح يهرول إلى

جانب الحصان على مقربة من الركاب الأيمن في الميل الثاني) فينبش الجثة في ثلث الوقت في حال المجازفة بإبقاء ألك ساندر في صحبة لوكاس تحسباً من مجيء آل جوري ومعهم البنزين: على حين غرة وجد نفسه هارباً إلى نثار أفكار متلوّنة تماماً مثلما تتراجع أنت إلى الخلف خشية الوقوع آخر لحظة في الماء البارد، فكّر ورأى، سمع نفسه يحاول شرح الأمور للوكاس على النحو التالي:

يجب علينا استخدام الحصان. لا نستطيع الذهاب من دونه. ولوكاس *يمكننا استبداله بالسيارة*. وهو:

سيرفض. ألا تفهم؟ سيرفض في النهاية، سيحتجز حيث لاأستطيع حتى الخروج مشياً إلى هناك، دعنا نأخذ الحصان وحدنا: ولوكاس: *لا بأس، لا بأس، لا ألومك. بغض النظر عن كل شيء، لست أنت آل جوري الذين يصرّون على إضرام النيران* ـ وهو يجتاز الردهة السفلى في طريقه إلى الباب الخلفي، كان مخططاً لا لأنه رد على لوكاس بالإيجاب عندما تحدّث إليه من خلف القضبان المعدنية ولا لأنه رجع إلى الردهة وأغلق باب المكتب خلفه، وإنّما لأنه وصل نقطة اللارجوع في هذه اللحظة التي لا يمكن أن تُمحى؛ كان باستطاعته التوقف عندها وعدم تخطيها، تاركاً منتصف الليل ينوء بكَلْكَله مسترخياً على هذه الجدران المتينة القادرة على تحمله التي تضم بيتا في ثناياها أعلى من ذلك الكلكل وأقوى من الخوف ـ لم يتوقف، ولو بدافع الفضول ليسأل نفسه إن كان يجرؤ على عدم التوقف، ترك الباب المنخليّ خلفه بهدوء ونزل الدرجات فدخل في دوامة ظلام مطبق في تلك الأمسية الرطبة من ليالي أيار وراح يسرع الخطى مجتازاً الفناء في طريقه إلى البرّاكة المظلمة حيث لم يغمض لبارالي وألك ساندر جفن كغيرهم من الزنوج القاطنين على مسافة ميل داخل البلدة هذا المساء، لم يكونا في السرير بل كانا هاجعين بهدوء في الظلام يستنشقان هواء الربيع المنعش ينتظران أي صوتٍ أو همسة تحمل العنف أو الموت: توقف وأطلق الصفرة المتعارف عليها إشارة بينه وبين ألك ساندر منذ أن تعلما الصفير، عدّ الثواني قبل أن تجيء لحظة يتلقى فيها الجواب، فكر في نفسه لو أنه كان مكان ألك ساندر لما خرج من البيت رداً على أية إشارة

كانت في هذه الليلة، غير أن ألك ساندر على حين غرة ودون أن يبدو ضوء خلفه أو صوت يدل عليه وقف بين الظلال، مشى، دنا منه تماماً في ليلة افتُقِدَ بدرها، كان أطول منه بقليل رغم أن فارق العمر بينهما لا يزيد على بضعة أشهر.

انطلق، لم ينظر إليه وإنما نظر بعيداً، ما باتجاه الساحة كأنه يشكّل عن طريق النظر مساراً منحنياً عالياً في الهواء أشبه بمسار كرة البيسبول، فوق الأشجار والشوارع والمنازل، فيستكشف الساحة ـــ لا البيوت في الباحات المظلمة وأوقات الطعام الهادئة والقيلولة والنوم التي تشكل جميعاً المأرب والغاية، بل الساحة على وجه التحديد: مبان ضخمة أسّست وكرّست للتجارة والحكومة والقضاء والسجن حيث كانت أهواء الناس تتصارع وتتضارب فتغدو في سبيلها راحة النوم والموت القصير أثناءه مأرباً وملاذاً ومكافأة.

قال ألك ساندر: «لم يسمعوا إلى لوكاس العجوز بعد».

قال هو: «هل يشغل هذا بال جماعتك أيضاً؟».

قال ألك ساندر: «وهو ما يشغلك. أمثال لوكاس يتسببون بالمشاكل للجميع».

قال هو: «بناء على ذلك من الأفضل لك الذهاب إلى المكتب والجلوس مع الخال جافن بدلاً من القدوم معي».

قال ألك ساندر: «وإلى أين أذهب معك؟».

بصوت أجش غليظ قال هو كلمات أربع: «لننبش قبر فنسون جوري». لم يتحرك ألك ساندر، واصل التحديق بعيداً فوق رأسه باتجاه الساحة. «قال لوكاس إن السلاح الذي أودى بحياة الضحية ليس له».

طفق ألك ساندر يضحك مستمراً في سكونه، بصوت خفيض خال من المرح، ضاحكاً فحسب؛ قال بالضبط ما سبق للخال أن قاله بصعوبة منذ لحظة مضت:

قال ألك ساندر: «على هذا النحو هل يجب عليّ...» وتابع: «أعليّ أنا؟ الذهاب إلى هناك ونبش جثة ذاك القتيل الأبيض؟ وهل السيد جافن في المكتب حالياً أم أننتظر عودته؟».

قال هو: «سيدفع لوكاس لك. أعلمني بذلك قبل أن يخبرني بالأمر».

ضحك ألك ساندر ضحكاً خالياً من المرح أو التقريع أو أي إحساس آخر: لم تندّ عن صوت تنفسه أية نبرة سوى التنفس. قال: «ما أنا بغنيّ لكنني لست بحاجةٍ للمال».

قال هو: «على أقل تعديل تسرج الحصان هاي بوي فيما أتدبر مصباحاً يدوياً، هل أنت مستعد؟ لست فخوراً جداً حيال ما فعل لوكاس، أليس كذلك؟».

استدار ألك ساندر وقال: «بالتأكيد».

«أحضر المعول والرفش والحبل الطويل لأني سأحتاجها جميعاً».

أجاب ألك ساندر: «بالتأكيد». أخذ وضعية التفاتة جانبية. كيف تحمّل كلاً من المعول والرفش على هاي بوي وهو لا يطيق رؤية حتى سوط الركوب في يدك؟».

أجاب هو قائلاً: «لا أدري» مضى ألك ساندر وقفل هو راجعاً باتجاه البيت وقد تهيّأ له لأول وهلة أن الخال في تجوال سريع حول البيت من جهة الشرفة، لا لأنه أعتقد أن الخال قد ارتاب وتوقع ما سيقدم عليه لأنه لم يفعل، فالخال نفى مئة بالمئة هذا الأمر مباشرة لا من نطاق الإدراك وإنما من نطاق الإحتمال، لكنه افترض أن ذاك الشخص هو أمه بعد أن تبيّن ملامح إمرأة لأنه غاب عن ذهنه وجود من يقوم بذلك غيرها، حتى بعد أن تأكد من القبعة، وصولاً إلى اللحظة التي نادت الانسة هابرشام باسمه فيها وراح نبضه أولاً يدق بسرعة وهدوء حول زاوية الكراج، حيث يستطيع الوصول إلى سياج الأرض المتاخمة دون أن يُرى ويتسلقه ويذهب إلى الإسطبل ويخرج من باب المرعى فيتجنب المرور بالبيت مطلقاً مرة أخرى، تأخر الوقت بغض النظر عن إحضار المصباح اليدوي: جاء النداء باسمه: «تشارلز» في همسة كثيفة ملحاحة وبعدئذٍ وقفت قبالته، تحدثت بهمس سريع موجز:

«ماذا طلب إليك أن تفعل؟» بات يعرف الآن ما الذي استحوذ على انتباهه وقت كان في مكتب خاله عندما لاحظها وتلاشت في الثانية التالية.

إنها العجوز موللي، زوجة لوكاس، وهي إحدى بنات عبيد الدكتور هابرشام العجوز، جدّ الآنسة هابرشام، هي والآنسة هابرشام من عمر واحد، ولدتها في نفس الأسبوع ورضعت كلتاهما من ثدي والدة موللي وترعرعتا سوية كشقيقتين لا فرق بينهما، كتوأم، تنامان في نفس الغرفة، الفتاة البيضاء على السرير والفتاة السوداء في سرير نقال عند أسفله إلى أن تزوجت موللي من لوكاس، وقفت الآنسة هابرشام في كنيسة الزنوج عرّابة[1] لأول أبناء موللي.

قال هو: «ادعى أن المسدس ليس له».

قالت بسرعة: «إذن ليس هو القاتل». تلوّن صوتها الآن بنبرة إلحاح.

قال هو: «لا أدري».

قالت: «هراء. لو لم يكن مسدسه.....».

قال: «لست أدري».

قالت: «عليك أن تعرف لا سيما أنك شاهدته ـ وتحدثت إليه».

أجاب «لاأدري». قالها بهدوء وتؤدة ودهشة لاتصدّق كأنه الآن فقط تأكد مما وعد وعلى ماذا صمم: «ببساطة. لا أعرف. مازلت كذلك. أنا ذاهب إلى هناك وكفى». توقف، تلاشى صوته. مرت لحظة خاطفة تذكر فيها كيف تمنى لو أنه سحب الجملة الأخيرة غير المنتهية. طالما أن الوقت متأخر وهي تعرف معظم الجملة الباقية كان من الممكن في أية لحظة أن تصرخ وتحتج وتهتف بحيث تجمع كل من في البيت عليه. بعدئذٍ في نفس اللحظة توقف وتذكر. قالت:

«بالطبع» على الفور بغمغمة وهدوء؛ ظن لجزء من الثانية أنها لم تفهم على الإطلاق ومن ثم تناسى في الجزء المتبقي أي شيء من هذا القبيل، بدا كل منهما مبهم المعالم في مواجهة الآخر في الظلمة التي يقطعها الهمس المتوتر السريع: فيما بعد تناهى إلى أسماعه صوته متحدثاً بنبرة صوتها وطبقته دون أي قصد مسبق من قبل أي منهما بل على الغالب أشبه

(1) - GODMOTHER عرّابة: أم في العماد.

بشخصين ارتضيا دونما تراجع القيام بمحادثة وهما غير متأكدين على الإطلاق من مقدرتهما على الاستمرار في نفس الوتيرة: بل متأكدين فقط من مقاومتها للوضع فحسب: «لا نعرف بالضبط إذا كان مسدسه. فقط قال إن المسدس ليس له».

«أجل».

«لم يقل لمن كان ولم يؤكد إن كان قد أطلق النار منه. لم يقل حتى لك إنه لم يطلق ناراً منه. اكتفى بالقول إن المسدس ليس له».

«أجل».

«وخالك قال لك في مكتبه إن هذا بالتحديد ما سيقوله وكل ما باستطاعته أن يقول». لم يجب على ذلك. فهذا ليس بسؤال. هي لم تمنحه وقتاً للإجابة. قالت: «ماشي الحال، والعمل الآن؟ هل هو التأكد من كون المسدس له أم لا ـ هل هو التحقق مما قال مهما كانت النتائج؟ هل هو الذهاب إلى هناك وماذا بعد؟».

قال لها بالفظاظة ذاتها التي تحدث بها إلى ألك ساندر بمنتهى الصراحة والإيجاز: «تفحُّص الجثة» أردف قائلاً دون أن يقطع تفكيره أو يلتقط أنفاسه على الأقل: «الذهاب إلى هناك ونبش الجثة وإحضارها إلى البلدة حيث يعاين خبير بعيار جف الأسلحة قطر العيار الناري الذي أصابها».

قالت الآنسة هابرشام: «نعم. بالتأكيد. من الطبيعي ألا يخبرَ خالك. إنه زنجي وخالك رجل».

أعادت الآنسة هابرشام تفسير الأمور بدورها فيما راح يفكر في أن الأمر ليس مجرد فقر في مفردات اللغة، كانت في المقام الأول ناجمة عن عنف متعمد لإخفاء وإزالة حياة إنسان ما كانت بحد ذاتها من البساطة والحسم بمكان جعلت الحشو الذي أحاط بها يطوّقها وأبقاها على حالها. قصة تصوّر سيرة أيّ إنسان كانت بالضرورة بسيطة غير معقدة، مليئة بالتكرار، تبلغ حد الرتابة، وفي المقام الثاني الأمر أعمق من ذلك، يتلخص في الإشارة إلى ما سيجري، لأن المسألة التي فسرتها الآنسة هابرشام كانت حقيقة

بديهية، لامجرد واقعة لا تحتاج إلى مزيد من الاستفاضة ودقة التعبير في شرحها لأنها حقيقة كونية، ونظراً لأنها كونية فهي مسلمة قائمة بحد ذاتها، ولا حاجة لمزيد من التفاصيل للتعبير عن أمر يفوق الكرة الأرضية اتساعاً بحيث يتمكن أيٌ كان من معرفة الحقيقة؛ كل ما عليهم هو مجرد التوقف، وأخذ الوضعية، والانتظار: «لقد علم لوكاس أن قوله سيثير ولداً - أو عجوزاً مثلي، لنقل أناساً غير معنيين بالاحتمال والدليل. أمثال خالك والسيد هامبتون رجال مشغولون منذ أمد طويل. أليس كذلك؟» وأردفت قائلة: «المطلوب إحضار الجثة إلى البلدة كي يصار إلىفحص العيار الناري من قبل أحد المختصين. ولكن ماذا لو فحصوه ووجدوا أنه مسدس لوكاس؟» لم يجب على هذا التساؤل بتاتاً، وهي لم تنتظر شيئاً من هذا القبيل، التفتت في اللحظة نفسها وقالت: «سنحتاج معولاً ورفشاً، في سيارتي مصباح يدوي».

قال هو: «تقصدين نحن؟».

توقّفت، قالت بنفاذ صبر: «لاتبلغ المسافة إلى هناك خمسة عشر ميلاً».

قال: «بل عشرة أميال».

«أما القبر فيقع على عمق ستة أقدام. الساعة الآن تجاوزت الثامنة والوقت المتاح لك كي ترجع إلى البلدة في الموعد المناسب لا يتعدى منتصف الليل» لم يسمع بقية الكلام. لم يكن يصغي. قال هذا بنفسه للوكاس منذ خمسة عشر دقيقة خلت لكنه الآن بالذات أدرك ما الذي قاله بنفسه.

أخيراً وبعد الاستماع إلى حديث غيره لم يدرك فظاعة مقصده فحسب وإنما أدرك الهول المجسّم الملموس العديم الجدوى الشنيع النتائج لما مثل في ذهنه، فقال بهدوء وانشداه يائس لا يقهر:

«من المحتمل ألا نتمكن من القيام بذلك».

قالت الآنسة هابرشام: «لا نستطيع. ما العمل إذن؟».

قال هو: «ماذا يا سيدتي؟ ماذا قلتِ؟».

«قلت إنك لم تتدبر ولو سيارة».

«نركب الحصان».

الآن جاء ردّها: «نحن نفعل ذلك؟».

«أقصد أنا وألك ساندر».

أجابت: «سنتدبر ثلاثة أحصنة بعد ذلك. أحضر معولك ورفشك. لا بد أن يبدأوا في البيت تساؤلاتهم عن أسباب عدم سماع صوت إقلاع سيارتي». تحركت من جديد.

قال هو: «أجل يا سيدتي. سوقي السيارة في الممر الضيق بين الأسيجة إلى باب المرعى. وهناك نلتقي».

لم ينتظر علاوة على ذلك. سمع انطلاقة العربة وهو يتسلق السياج المجاور، استطاع أثناء ذلك مشاهدة الغرة البيضاء على وجه هاي بوي في فجوة مدخل الإسطبل المظلم؛ هز ألك ساندر طوق رباط السرج من على جدار البيت أثناء اقترابه. فك الحبل من حلقة الشكيمة قبل أن يتذكر، وفك النهاية الأخرى من حلقة الجدار وتلقفها من الخلف وثبتها بالعروة في العنان الموجود على رأس هاي بوي وقاده إلى الرواق حيث اعتلاه.

قال ألك ساندر: «تفضل» موصلاً المعول والرفش غير أن الحصان هاي بوي بدأ الرقص قبل أن يراهم مثلما كان يفعل دائماً عند باب السياج فلجمه بقوة إلى الخلف مثبتاً إياه بينما كان ألك ساندر يقول: «ابق حيث أنت» وضرب الحصان هاي بوي ضربة قوية على مؤخرته، واثبت الرفش والمعول عبر انحناءة السرج وحمل هاي بوي على العودة للخلف على أعقابه لحظة أخرى بمسافة تكفي لإطلاق قدمه من الركاب القريب بحيث يضع ألك ساندر قدمه داخلها، عندئذ شَبَّ هاي بوي شبَّةً طويلة أزاحت ألك ساندر للخلف واستمر في محاولة الركض إلى أن أثبته مرة أخرى بيد واحدة، وقد تقلقل وضع المعول والرفش على السرج، من ثم أداره عبر المرعى في الطريق إلى المدخل. قال ألك ساندر: «ناولني هذه المعاول والرفوش اللعينة. هل أتيت بالمصباح اليدوي؟».

قال: «ماذا تقصد؟».

مد ألك ساندر يده المتبقية حوله وتناول المعول والرفش؛ أما هاي بوي فقد تمكن من مشاهدتهم من جديد لبرهة خاطفة، يداه باتتا طليقتين

للإمساك بالشكيمة واللجام معاً. «لن تكون في حاجة للمصباح اليدوي في أي مكان. قلت هذا للتوّ».

لقد شارفوا على الوصول إلى المدخل فطالعتهم من الخلف كتلة السيارة الداكنة المصفوفة على طريق الحظيرة: بكلمات أخرى، صدق رؤية عينيه لها لأنه كان يعرف مسبقا بوجودها في ذلك المكان. من جانب آخر وقع نظر ألك ساندر عليها فعلياً: على ما يبدو لديه مقدرة على الإبصار في الظلمة شبيهة بمقدرة الحيوان. بعد أن حمل ألك ساندر الرفش والمعول لم تعد يداه طليقتين ورغم ذلك تمكن بواسطة إحداهما من الإمساك فجأة من جديد بعنان الحصان هاي بوي خارج مكان إمساكه هو بالعنان حيث نخع هاي بوي حتى كاد يجثم وقال بصوت هامس لا يكاد يسمع: «ماهذا؟».

قال هو: «إنها سيارة الآنسة يونيس هابرشام. ستذهب معنا. أعتقه عليه اللعنة» انتزع العنان من ألك ساندر الذي تركهم بسرعة لابأس بها قائلاً:

«ستأخذ السيارة» دون أن يطرح المعول والرفش فحسب بل ألقى بهما جانباً محدثتين قعقعة وجلبة على الباب، ونزل عن الحصان وفي الوقت نفسه شبّ هاي بوي على قوائمه الخلفية حيث تلقى منه ضربة قوية بين الأذنين بواسطة الحبل المعقود بأنشوطة».

هو قال: «افتح البوابة».

أجاب ألك ساندر: «لن نحتاج إلى الحصان. فُكَّ سرجه واربطه هنا. سنعيده فور عودتنا».

كان هذا ما قالته الآنسة هابرشام من خلال المدخل والحصان هاي بوي مازال ينزلق ويضرب الأرض بحوافره بينما ألك ساندر يضع المعول والرفش في خزانة السيارة الخلفية فتراءى له أن ألك ساندر سيرميهم عليه هذه المرة، وجاء صوت الآنسة هابرشام من مقصورة السيارة المظلمة:

«يبدو أنه حصان جيد. هل لديه المقدرة على الإسراع في السير على أربعة قوائم؟».

قال هو: «بالطبع يا سيِّدتي».

استدرك قائلاً: «لا سآخذ الحصان أيضاً. رغم أن أقرب بيت يقع على بعد ميل من الكنيسة فقد يسمع أحدهم صوت السيارة. سنترك السيارة عند سفح التل عندما نعبر الساقية».

بعدئذ أجاب على ذلك قبل أن يفسح لها مزيدا من الوقت لتقول: «سنحتاج الحصان لننزل الجثّة إلى العربة».

قال ألك ساندر: «هيه» دون أن يقصد بها الهزء. من جانب آخر لم يخطر في بال أحد إلا أن تكون عبارة استهزاء. «كيف تظن أن ذاك الحصان سيكون قادراً على نقل ما ننبش في حين كان عاجزاً حتى عن حمل الأدوات التي تستخدمها في النبش». للتوّ فكر في ذلك أيضاً. تذكر كيف كان جده يروي عن صيادي الأيام الخوالي عندما كان بالإمكان اصطياد الغزلان والدببة وطيور الحبش البرية على مسافة لا تزيد عن اثنتي عشر ميلاً من جيفرسون ضمن مقاطعة يوكناباتاوفا: من أولئك الصيادين ماجور دوسبان ابن عم جده والجنرال العجوز كومبسون والعم إيك مكاّسلن، عم كاروثرز إدموندز الكبير الذي مازال على قيد الحياة في التسعين من عمره، وبون هو غانبك الذي كانت جدته والدة أمه امرأة من قبيلة تشيكاسو وآباؤها السام الزنوج كان أبوهم زعيم قبيلة تشيكاسو، إضافة إلى بغلة الماجور دوسبان العوراء القناصة الملقبة بأليس التي لم تكن تخشى رائحة الدب، وفكر كيف تكون فعلاً من نسل أسلافك وكيف أن الوضع من السوء بمكان بحيث أن الأسلاف الذين جعلوا منه بالسر حفاراً للقبور الريفية لم يفكروا بتزويده بحفيد للبغلة العوراء التي لا تجفل كي ينقل أدواته عليها.

قال هو: «لا أدري».

قالت الآنسة هابرشام: «قد يتعلم فور عودتنا إلى العربة. هل يحسن ألك ساندر القيادة».

قال ألك ساندر: «نعم يا سيدتي».

استمر هاي بوي في هياجه؛ بعد امتطاء الحصان استبد الغيظ به إلى حد بعيد ونظراً لبرودة الجو هذا المساء حافظ على بعد معين يجعله يشاهد أضواء السيارة الخلفية طوال الميل الأول. بعدئذ خفف السرعة، فراح الضوء

يتلاشى ويختفي خلف إحدى المنعطفات من ثم جعل هاي بوي يمشي في حركة بطيئة متثاقلة تتراوح بين الركض والمشي لا يقبل بها أي حكم في سباقات الخيول لكنها تجتاز الأرض، التي لابد من قطع تسعة أميال عليها.

وفكر بمرح فظّ وهيهات أن يكون لديه وقت للتفكير كيف أن الأوان فات على القيام بالتفكير، لا أحد منهم - هم الثلاثة - يجرؤ على التفكير، إذا أنجزوا أمرا وحيدا الليلة فلا بد أن يختلفوا بالاستنتاج والتأمل دائما فيما أنجزوا، بعد اجتياز خمسة أميال بعيداً عن البلدة عبر خط المساحة الوهمي الذي يشكّل حد منطقة بيت فور (ربما اجتازه ألك ساندر والآنسة هابرشام بالسيارة قبله): أما ما هو مستهجن، غير قابل للتصديق والذي لا يجرؤ أحد منهم على التفكير به بتاتا، فهو تصميمهم على الإقدام على أمرين لا يحبِّذُ أهالي بيت فور قيام إنسان غريب بهما طالما أن سكان بيت فور مع مرور الزمن لا يحبذون معظم تصرفات أهالي البلدة (في هذا الصدد لا يتقبلون شيئاً كهذا من سكان بقية أرجاء المقاطعة): ويحصرون ذلك بهم، فإقدام فتى أبيض في السادسة عشرة وآخر زنجي في نفس العمر وامرأة بيضاء عانس في السبعين على هذين الأمرين معاً، انتهاك لحرمة قبر أحد أبنائهم وإنقاذ زنجي قاتل من الإنتقام، من بين مخزون ممارسات الإنسان الهائل في مجال الإبداع والقدرة أمران يرفضهما سكان بيت فور ويردون عليهما بأعنف الوسائل.

كان لديهم تحذير في الحد الأدنى (دون أن يفكروا بمن تلقى التحذير ولم ينتصح طالما أنهم تلقوه من قبل وباتوا على بعد ستة أو سبعة أميال عن السجن منطلقين في نفس السرعة التي تجرأ على الانطلاق بها على ظهر الحصان) لأنه كان مر بسكان بيت فور حالاً لو أنهم خرجوا (أو كانوا مرّوا به) - بالسيارات المعطوبة الملوثة بالطين، والقربات الفارغة المخصصة لنقل الماشية والأخشاب، والأحصنة والبغال المسرجة. حتى هذه اللحظة لم يمرّ بأي شيء من هذا القبيل منذ أن غادر البلدة؛ كان الطريق يمتد أمامه وخلفه مسيّجاً خاوياً، تلوح المنازل والأكواخ الجاثمة على جانبيه مطفأة الأضواء غير واضحة المعالم، كما عبقت رائحة الأرض. الأرض المحروثة

المظلمة الممتدة في الظلام قوية، وتضوعت من حين إلى آخر رائحة البساتين المزهرة العبقة متناثرة عبر الطريق لتصل إليه أشبه بخيوط دخانية راكدة يمر من خلالها فوق الحصان إلى حد جعلهم يستمتعون بالوقت أفضل بكثير مما تصور وخطر في باله الخاطر التالي قبل أن يتمكن من تخطيه وإبعاده وإزاحته من تفكيره: (ربما نستطيع وقد ننجح في خاتمة المطاف لا لأنه لا يمكن أن نوقن بنجاحهم ولا لأنك لا تجرؤ على أن تُفكّر حتى بينك وبين نفسك بشكل كلي بأمل عزيز على قلبك أو أمنية إن لم نقل أمنية مصيرية، ما لم تكن أنت نفسك قد حكمت عليها بالإخفاق، وإنما لأن التفكير به بصيغة كلمات حتى بينه وبين نفسه كان أشبه بإشعال عود ثقاب لا يبدد الظلمة إنما يفصح عن رهبتها ومضٌ ضئيلٌ توهُّجٌ ضعيفٌ للحظة خاطفة يظهران اليأس النهائي الذي لا رادّ له على طريق ناء وأرض قفر معتمة.

والسبب ـ الآن وصل إلى نفس المكان تقريباً الذي سبق لألك ساندر والآنسة هابرشام الوصول إليه قبل مضيّ ثلاثين دقيقة كاملة وتحشّم لبرهة أن يكون ألك ساندر قد تروّى بما يكفي ليقود السيارة بعيداً عن الطريق حيث لا يستطيع أحد من السابلة مشاهدتها، عرف في اللحظة نفسها طبعاً أن ألك ساندر فعل ذلك وعرف أنه لم يسبق أن رقي شكه إلى ألك ساندر وإنما إلى نفسه حتى جعله يشك بألك ساندر في لحظة عابرة ـ أنه بعد أن غادر البلدة لم يشاهد أحداً من الزنوج الذين يجعلون الطريق في هذه الساعة من يوم أحد في شهر أيار متواصلاً كحبات المسبحة يزدحم عموماً بالرجال والسيدات والفتيات وبعض المسنين والمسنات والأطفال قبل أن ينقضي النهار، وخصوصاً بالشبان العازبين الذين استنفذوا قواهم في الأرض المحروثة الملتوية عمودياً وأفقياً خلف محاريث تجرها الدواب المجهدة والمندفعة حيث يغتسلون بعد ظهر السبت ويحلقون ذقونهم ويرتدون القمصان والبناطلين النظيفة المخصصة ليوم الأحد ويأخذون بالتنزه طوال مساء السبت على الطرقات المغبرة ويواصلون التنزه نهار الأحد وليله، وما أن يصلوا إلى البيت حتى يعودوا إلى ارتداء بدلات العمل والإمساك بالبغال وجرها ثانية عائدين إلى الحقل ليضعوا رأس المحراث في سكة جديدة مع شروق شمس نهار الإثنين دون أن يطأوا السرير طوال ثمان وأربعين ساعة

إلا لوقت قصير حين تكون فيه امرأة. لكن ليس الآن، وفي هذه الأمسية: لم يشاهد أحداً في البلدة باستثناء بارالي وألك ساندر طيلة أربع وعشرين ساعة مثلما توقع، كان الزنوج يتصرفون بالضبط مثلما في الحقيقة كان كل من الزنوج والبيض على حد سواء يتوقعون أن يقدم الزنوج على فعلة ما في ذلك الوقت، فهم قابعون في أماكنهم رغم ذلك لم يهربوا، ولم تتسنّ لك مشاهدتهم ـ كان هنالك حدس إحساس وشعور بحضورهم المستمر وقربهم: إنهم رجال ونساء وأطفال سود ويتنفسون وينتظرون داخل منازلهم المغلقة المقفلة مصاريعها، غير مختبئين أو منكمشين أو منكفئين خوفاً، غير غاضبين أو غير هلعين تماماً: مترقبين فحسب، صامدين نظراً لأن السلاح الموجود لديهم لا يستطيع البيض التكيف معه أو إجادة استخدامه ـ إذا ما عرفوه طبعاً: ألا وهو الصبر؛ الاكتفاء بالابتعاد عن الأنظار والطريق ـ أما في هذا المكان، فلا يبدو إحساس مدرك بالتجمع المجاور، وبالحضور الإنساني المبهم العارض غير المرئي، فهذه الأرض قفر وشاهد، وهذا الطريق الخاوي مسلمة أساسية (إلى الآن مرَّ وقت قبل أن يتبين المسافة التي قطعها: ريفيّ من المسيسبي ولد فور غروب الشمس في اليوم ذاته بدا ـ لو فكر ملياً لأيقن ـ أنه طفل مايزال في القماط غير مدرك للتقاليد القديمة في بلده ـ أو بالأحرى جنيناً غير عاقل يصارع في سبيل بقائه ـ رغم أنه يدرك آلام الاحتضار ـ فهو أعمى البصر والبصيرة لم يدرك إلى الآن اضطراب النشوء البدئي غير المؤلم) للتحول البطيء فيها[1] أشبه بمسلمة تأسيس اقتصاد البلد برمته على كاهل الملوبين من السكان، دون حدة أو غضب وحتى دون ندم إنما في رفض كؤود أوحد لإقرار السلطة بهذا الفصل، وهو رفض يتعذر تغييره، ولا سبيل إلى إبطاله، غير منطلق من حنق عنصري متجرد من عار بشري.

إنه الآن هناك؛ على مسافة تسعة أميال، الحصان هاي بوي توتّر وراح يندفع مباشرة بسرعة نوعاً ما، أحس هو بوجود الماء وميّز الجسر أو بالأحرى الفجوة الأكثر إضاءة من الظلام من جرّاء الكشاف حيث يشكل الطريق معبراً وسط حلكة أشجار الصفصاف المحيطة بالجدول ومن غير

---

(1) ـ تعود إلى (هذه الأرض...).

الممكن اختراقها، وشاهد ألك ساندر واقفاً خارج سياج الجسر، استطاع تمييزه بعد أن صهل الحصان هاي بوي عليه، لم يندهش، لم يتذكر إن كان قد تساءل ذات مرة عن مدى حسن تدبير ألك ساندر في إخفاء السيارة، لم يتذكر أنه توقع خلاف ذلك، لم يتوقف، بعدئذ سمع الحصان هاي بوي يتأهب لِمَسير عبر الجسر وألقى له الحبل على الغارب ليدور حول الطريق الواقع خلفَ الجسر على الأطراف الأربعة المتصلّبة ليقوم بزيارة غير متوقعة إلى الماء الذي بدأ محجوباً لبرهة أو أطول أو بالأحرى قبل أن يتسنى له رؤية انعكاس السماء على صفحة الماء المتموج: إلى أن توقف هاي بوي وصهل من جديد وشب بعدئذٍ عالياً إلى الخلف بغتة بحيث كاد ينزله عن حال متنه.

قال ألك ساندر: «شمّ رائحة مشقة الطريق. على كل حال دعه ينتظر إلى أن يعود إلى البيت. من الأفضل لي القيام بشيء آخر غير الذي أقوم به».

من جانب آخر ابتعد بالحصان هاي بوي ونزل به إلى الضفّة حيث بات بإمكانه الوصول إلى الماء غير أنه فكر من جديد بالتراجع والعودة إلى الطريق وتسليم الركاب لألك ساندر الذي غيرّ اتجاه هاي بوي. قال ألك ساندر «هنا» وانحرف بهاي بوي بعيداً عن الطريق المكسو بالحصى إلى طريق موحل منعطف بحدة نحو سلسلة الجبال التي بدت غير واضحة وسط الظلام وقد شرع ميله على الفور تقريباً فوق التلال وقبل أن يبدأ صعوده تناهت رائحة الصنوبر الذكية الفواحة إليهم أشبه بيد محسوسة تحيط بالجسد المتحرك إحاطة الماء به دون أن تدفعها ريح قوية قاسية. كان المنحدر بالغ الميلان تحت الحصان الذي حاول الجريَ فوقه مثلما اعتاد أن يفعل في أي منحدر عندما يحمل حملاً مضاعفاً، مستجمعاً قواه مندفعاً نحو الأمام إلى أن أوقفه بحدة إلى الخلف وأجبره على السير بذراعه المتشنجة في الرسغ في ممر غير مستو متموج قبل أن ينبسط سهل واسع مرتفع أمامه، وبعد أن قال ألك ساندر: «هنا» مرة أخرى وقفت الآنسة هابرشام خارج الظلمة على جانب الطريق حاملة الرفش والمعول. توقف الحصان هاي بوي وهبط ألك ساندر عن متنه. وحذا هو حذوهما.

قالت الآنسة هابرشام: «توقف. أحضرت الأدوات والمصباح اليدوي».

قال هو: «تبلغ المسافة نصف ميل». أردف قائلاً لألك ساندر:

«إلى أعلى التل. هذا ليس سرجاً جانبياً[1] لكن تستطيعين الجلوس عليه بشكل جانبي. أين السيارة؟».

ردّ ألك ساندر: «خلف هذه الأجمة. نحن لسنا في استعراض عسكري، على الأقل لست أنا كذلك».

قالت الآنسة هابرشام: «لا . لا أقدر على السير».

قال هو: «سنوفر الوقت. فالساعة الآن تجاوزت العاشرة. وهو لطيف. عندما ألقى ألك ساندر المعول والرفش لم يكن كذلك».

«بالطبع» قالت الآنسة هابرشام. ناولت ألك ساندر الأدوات واقتربت من الحصان.

فال هو: «يؤسفني أنه ليس.....».

قالت: «أف» وتناولت الأعنة وقبل أن يمد يده إلى قدمها كانت قد وضعتها في الركاب وصعدت بنفس السرعة والخفة التي يصعد بها هو وألك ساندر، انفرجت ساقاها فوق الحصان فاضطر هو على الفور إلى الإشاحة ببصره جانباً، شعر بها تنظر في العتمة إلى رأسه المدارة. قالت من جديد: «أف. أنا في السبعين من عمري. رغم ذلك تقلقون على حركة تنورتي بعد أن اندفعنا لهذا الأمر». حركت هاي بوي بنفسها قبل أن يكون لديه وقت للإمساك باللجام واتجهت عائدة إلى الطريق فيما قال ألك ساندر:

«هس». توقفوا عن الحركة في فيض طويل غير مرئي من أشجار الصنوبر. أردف ألك ساندر قائلاً: «هل هنالك بغل يهبط التل».

على الفور غيرّ اتجاه الحصان. قالت الآنسة هابرشام: «لا أسمع شيئاً. هل أنت متأكد؟».

أجاب وقد انحرف بهاي بوي خارج الطريق: «أجل. ألك ساندر متأكد». تجمد في مكانه عند رأس الحصان هاي بوي بين النباتات المحرشة والأشجار، وضع يده الأخرى على منخري الحصان تحسباً لقيام

(1) ـ سرج تستقر عليه المرأة جاعلة رجليها كلتيهما على جانب واحد من الفرس.

هذا الأخير بالصهيل على الحيوان الآخر، تناهى صوت إلى مسمعه ـ قد يكون صوت حصان أو بغل يهبط الطريق باطراد نازلاً من قمة التل. ربما كان حصاناً غير محدىً، لأن الصوت الذي سمعه بالفعل كان صوت طقطقة جلد وتساءل في نفسه (دون أن يشك لحظة أنه سمع الصوت) كيف سمعه ألك ساندر بأية حال قبل دقيقتين أو أكثر من وصوله إليهم. بعد ذلك شاهده أو شاهد المكان الذي اجتازهم منه ـ بدا كتلة، حركة، ظلاً أكثر قتامة من القذارة الباهتة التي تغطي الطريق، واصل نزول التل، راح صرير الجلد وجرجرته الخفيضان يتلاشيان إلى أن اختفيا نهائياً. إلا انهم انتظروا هنيهة.

قال ألك ساندر: «ماذا كان يحمل على السرج أمامه؟».

قال هو: «لم أتبين إن كان رجلاً أم لا».

قالت الآنسة هابرشام: «لم أستطع مشاهدة أي شيء».

قاد الحصان عائداً إلى الطريق. قالت: «افترض أن....».

قال هو: «سيسمع ألك ساندر الصوت عند اللزوم».

هكذا اندفع هاي بوي مرة أخرى بقوة وثبات على الجرف المرتفع حاملاً الرفش، وقد طقطق الجلد تحت بطة ساق الآنسة هابرشام النحيلة الصلبة على جانب وتحت المعول الذي يحمله ألك ساندر على الجانب الآخر، استمر في الصعود، كان في الواقع يسير بسرعة كبيرة وسط عبير الصنوبر الفوّاح الذكي المنعش المنشط الذي يفعل في الرئتين، والتنفس مثل (تخيل أنه لم يستنشق تلك الرائحة أبداً. ربما تذوق رشفة من القدح الجماعي قد لا تحسب لأنها لم تكن رشفة مقدّسة مرّة المذاق قابضة الطعم فحسب: بل كانت دم المسيح الأزلي غير المخصص للمذاق، والذي لا يأخذ طريقه إلى المعدة بل يصعد إلى الأعلى والخارج من أجل التفريق بين الفضيلة والرذيلة ومن أجل الاختيار بين الرفض والقبول أبد الدهر ـ على طاولة في صلاة الشكر وعيد الميلاد دون أن يرغب بتاتاً بالتذوق) فِعْل الخمر في المعدة. باتوا الآن على ارتفاع شاهق، سلسلة أراض مرتفعة تنبسط وتتعرج في الظلمة غير المرئية أو المحسوسة، الإحساس بالعُلوّ والفراغ يتعزّز: كان بوسعه

مشاهدة أمور كثيرة في النهار، من سلسلة أشجار صنوبر متكاثفة على سلسلة مرتفعات تنحدر شرقاً وشمالاً على هيئة جبال موجودة فعلاً في كارولينا أو بالأحرى في اسكتلندا من حيث جاء أجداده والتي لم يشاهدها حتى الآن، خفّ الآن تنفسه فلم يعد بوسعه أن يسمع أو أن يشعر بالأحرى سوى بزفرات قصيرة قوية من رئتي الحصان هاي بوي الذي كان يحاول الركض على هذا المنحدر أيضاً ولو حمل راكباً وأطاح باثنين، بعد أن حثته الآنسة هابرشام باطراد إلى أن وصلوا إلى ذروة التل الحقيقية ومرة أخرى قال ألك ساندر: «هنا» فانحرفت الآنسة هابرشام بالحصان خارج الطريق لأنه لم يتبيّن شيئاً قبل أن يخرجوا عن الطريق حيث ميّز آخر الأمر، بانسياب حزمة رفيعة من ضوء النجوم، أرضاً مقطوعة الشجر فتوقفوا عندها، انحرفوا قليلاً بعد أن أخذت الأرض تغوص، عند بلاطة شاهدة قبر رخامية رفيعة. بالكاد شاهد هو الكنيسة (كانت غير مطلية، فعلت العوامل الجوية فعلها فيها، مبنية بالخشب لا يزيد حجمها عن حجم غرفة) إلى حد ما ودار بها بوي حولها من الجهة الخلفية وربط الأعنة إلى إحدى الشجيرات وحل الوثاق من اللجام وقفل راجعاً إلى حيث كان كل من الآنسة هابرشام وألك ساندر بانتظاره.

قال هو: «المطلوب هو القبر الأحدث. حسب كلام لوكاس لم يجرِ دفن هنا منذ الشتاء الأخير».

قالت الآنسة هابرشام: «نعم. الورود تدل عليه: لقد وجدها ألك ساندر للتوّ». لكن عليٍ سبيل التأكيد (فكر بهدوء لم يعرف لمن يتوجه بالقول، *سأقترف جبلاً من الآثام لكني لن أجعل فعلتي هذه من ضمنها*) حجب مصباح البطارية بمنديله الملفوف فوقعت حزمة ضوء خاطفة لبرهة على خط من أكوام أكاليل وباقات زهور وزهرات منفردة متناثرة بشكل عشوائي كما وقعت حزمة الضوء بعد لحظة أخرى على الشاهدة المتاخمة لها، بعد فترة كافية لقراءة الإسم المنقوش: *أماندا ووركيت زوجة ن.ب فوريست جوري 1878 ـ 1926* رفع مصباح البطارية من جديد فعمّ الظلام العابق برائحة الصنوبر مرة أخرى ووقفوا لبرهة إلى جانب الكومة المنبوشة دون أن يأتوا بحركة على الإطلاق. قالت الآنسة هابرشام: «أكره هذا».

قال ألك ساندر: «لست أنت من يستطيع العودة مسافة نصف ميل إلى السيارة نزولاً من على التلة أيضاً».

تحركت؛ كانت في المقدمة. قالت: «أزح الزهور بعناية. ألا ترى؟».

قال ألك ساندر: «أجل. هي ليست كثيرة. ألقوها كيفما اتفق على ما يبدو».

قالت الآنسة هابرشام: «نحن لن نفعل ذلك. أزحها بعناية».

كانت الساعة تشارف على الحادية عشرة ليلاً، هم في عجلة من أمرهم، كان ألك ساندر على صواب، الشيء الواجب عمله هو العودة إلى السيارة والإقفال راجعين إلى البلدة عبر بلدة أخرى وهلمّ جرّا، بغير توقف، ولو أخذ بعض الوقت للتفكير في الاستمرار بقيادة السيارة، والسير في سبيلهم، تاركين السيّارة تمضي حتى تصل إلى حالة حركة مستمرة، لا تعرف الرجوع، غير أن وقتهم محدود جداً وهم، على علم بذلك قبل أن يغادروا جيفرسون وفكر هنيهة ماذا كان ألك ساندر يقصد تماماً عندما قال إنه لن يأتي وكيف أنه لو جاء بمفرده لما فكر في تلك الحالة (على جناح السرعة) فيما بعد أبداً، استعمل ألك ساندر الرفش في أول رفشة بينما استعمل هو المعول بالرغم من أن التراب مازال غير متماسك ولا حاجة ماسة بهم للمعول (وفي حال كون التراب غير متخلخل فإنهم لن يتمكنوا من إنجاز عملهم مطلقاً حتى في وضح النهار) ولو توفر رفشان لتم العمل بسرعة أكبر لكن فات الأوان على هذا الآن إلى أن ناوله ألك ساندر الرفش بغتة وتسلّق خارج الحفرة واختفى (دون استخدام ضوء المصباح اليدوي) مستخدماً الحاسة نفسها التي تتجاوز حدود السمع والإبصار اللّذين لاحظا أن ما شمّه الحصان عند مجرى الماء الفرعي ليس وعورة الطريق، واللذين اكتشفا الحصان أو البغل الهابط من التل قبل دقيقة كاملة من وصول الصوت إليه أو إلى الآنسة هابرشام. عاد بلوح خشب قصير خفيف الوزن فبات لكل منهما رفش وتناهى إلى أسماعه صوت *قَذْفُ التراب!* مصحوباً بالحفيف وراح ألك ساندر يغمس لوح الخشب في التربة ويطوّح بمحتوياته إلى الخارج والأعلى، وقد زفر، وأطلق صرخة «هاه» في كل مرة ـ في غيظ

صاخب مكظوم، متسارع شيئاً فشيئاً، إلى أن بات صياحاً تقريباً بسرعة وقع أقدام إنسان يجري: «هاه!!... هاه!... هاه!» قال باعتداد: «لا تهتم. نقوم بعملنا على خير ما يرام». رفع ظهره هنيهة ليمسح العرق المتصبب فوق وجهه وكالعادة شاهد الانسة هابرشام صورة ظليلة لا حراك فيها على صفحة السماء فوقه مرتدية الفستان القطني المكوي والقبعة الدائرية على أعلى رأسها بالضبط مثلما شاهدها قلة من الناس في خمسين عاماً ومثلما لم يشاهد أحد في أي وقت كان وهو يرنو نحو الأعلى من قبر شبه مقلوب: أكثر من مقلوب لأنه سمع من جديد وهو يجرف التراب صوت ارتطام أخشاب على حين غرة، بعدئذ قال ألك ساندر بحدة:

«هيا اخرج من هنا وافسح مجالاً» وقذف لوح الخشب بقوة إلى أعلى خارج الحفرة وأخذه، وألقى الرفش من يده وتسلق خارج الحفرة وعندما انحنى ليلتمس طريقه ناولته الآنسة هابرشام الرباط الملتف».

قال هو: «ناوليني المصباح اليدوي أيضاً»، وناولته إياه ووقف كذلك الأمر بينما كان فيض الصنوبر القاسي غير المتحرك يمتص العرق عن جسمه إلى أن شعر ببرودة قميصه المبلل على جسده فيما كان الرفش تحته في الحفرة يحدث صريراً على الخشب، وقد انحنى وتمطى الضوء الذي أناره إلى الأسفل من جديد على سطح غطاء الصندوق غير المطليّ المصنوع من الصنوبر قبل أن يطفئه.

قال هو: «ماشي الحال. يكفي هذا. هيا أخرج». وأطلق ألك ساندر الرفش بآخر رشقة من التراب أيضاً، فانساب في الهواء بحركة قوية خارج الحفرة مثل رمح وأتبعه. بحركة واحدة، وبعد أن حمل الحبل والضوء اللّذين أنزلهما إلى الحفرة تذكر أنه بحاجة إلى مطرقة أو مخل ـ في خاتمة المطاف ـ إلى أي شيء يفتتح الغطاء به، والشيء الأوحد من هذا النمط موجود مع الآنسة هابرشام في السيارة على بعد ميل في الممر الصاعد فوق التل، انحنى كي يتحسّس أو يتفحص المزلاج أو ما يثبت الصندوق فاكتشف أن الصندوق لم يكن مثبتاً على الإطلاق: باعد بين قدميه، توازن على قدم واحدة وشرع في فتح الصندوق إلى الأعلى والخلف وسنده بأحد كوعيه وهز الحبل فوجد نهايته كما التقط مصباح البطارية ووجهه نحو

الأسفل فجاء قوله آنذاك: «انتظر». وأردف قائلاً: «انتظر». واستمر في القول: «انتظر» حتى سمع الآنسة هابرشام تتحدث بوشوشة وهمس:

«تشارلز..... تشارلز».

قال هو: «هذا ليس فنسون جوري. هذا رجل يدعى مونتجمري. إنه تاجر أخشاب صغير من أطراف مقاطعة كروسمان».

الفصل الخامس

اضطروا إلى ردم الحفرة بالطبع وأبقى هو الحصان معه. ومضت فترة كافية قبل حلول النهار عندما ترك الحصان هاي بوي مع ألك ساندر عند باب المرعى وحاول أن يعود إلى السير على قدميه إلا أن أمه التي كانت شعثاء الشعر، ترتدي فستان النوم على الفور صرخت من الجانب الأيمن لباب الشرفة: «أين كنت؟» تبعته إلى باب غرفة خاله وأردفت قائلة في نفس اللحظة التي كان الخال يرتدي ملابسه فيها: «أأنت؟ تنبش قبراً؟» أجاب هو بشيء من الصبر المختلط بالعناد والضجر، بعد أن أنهك من جراء ركوب الخيل والحفر وإعادة الردم وركوب الخيل من جديد، محاولاً إلى حد ما الإبقاء على تلك القفزة نحو الأمام التي لم يأمل البتة أن يقدم عليها فعليّاً بأي شكل من الأشكال: «ساعدني ألك ساندر والآنسة هابرشام» وهذا مازاد في الطين بلة رغم أن صوتها لم يكن قد علا بعد، ظلت مندهشة تماماً ومتحدية إلى أن خرج الخال منهياً ارتداء ملابسه بما فيها ربطة العنق دون أن يحلق ذقنه وقال: «هل تريدين إيقاظ تشارلي الآن يا ماجي؟» بعدئذ لحقت بهما إلى باب الشرفة وقالت في أثناء ذلك ـ فكر من جديد في عجزه الكليّ عملياً عن الانتصار عليهم بسبب مرونتهم التي لم تكن تتجلى في قابلية الحركة فحسب بل في مشيئة التخلي لا عن الموقع فحسب وإنما عن المبدأ أيضاً والاستسلام لمهب الريح أو الهواء الذي يمكن احساسه، لاحاجة لإعداد قواتك لأنك جهزتها مسبقاً: مدفعية متفوقة من العيار الثقيل، استعدادات مسبقة، استعمال السلاح، الروح المعنوية وخلافها كلها على

مايرام، فَقُمت بهجومك وحررت الميدان، واكتسحت كل من أمامك ـ أو فكرت بهذه الطريقة، فاكتشفت أنّ العدو لم ينسحب مطلقاً بل تخلّى عن الميدان مؤقتاً ولم يكتف بترك الميدان فحسب وإنما امتص صيحة القتال لديكم في عملية التقدم؛ ظَنَنْتَ انك استوليت على قلعة فوجدت نفسك بدلا عن ذلك تدخل موقعاً يتعذر الدفاع عنه وتواجه بعد ذلك معركة غير متوقعة عسيرة تتشعب من جديد في مؤخرة جيشك غير المحميّة وغير المحتاطة للأمر ـ قالت: «لكنه ذهب إلى النوم. فهو لم يدخل السرير إطلاقاً».

توقف هنيهة إلى أن بادر الخال إلى القول هامساً في أذنيه: «تعال. ماذا حدث معك؟ ألا تعرف أنها أقسى منك ومني مجتمعين مثل هابرشام العجوز التي تفوقك وألك ساندر خشونة، ربما ذهبت إلى هناك دونها كي لا تسحبك بيد واحدة لكن ألك ساندر ما كان ليفعل وأنا لست متأكداً من أنك فعلت شيئاً لأنك عدت في الموعد المحدد».

هكذا مضى أيضاً برفقة خاله باتجاه المكان الذي كانت تجلس الآنسة هابرشام فيه في سيارتها خلف سيارة خاله الواقفة (كانت في الكراج الساعة التاسعة مساء أمس، فيما بعد عندما بات لديه وقت كاف تذكر أن يسأل خاله إلى أين أرسلته الأم كي يبحث عنه) قال خاله: «استخدمتَ هذه السيارة في طريق العودة» راح يفسر: «إنس الأمر. خذ الحقيقة من أفواه الأطفال والرضّع والنساء العجائز. هذه حقيقة لا لبس فيها، مثلما يكون جوهر الحقيقة دائماً، ولا يحب الرجل أن يدعها تتسرب من بين أسنانه الساعة الثالثة صباحاً. إياك أن تنسى أمك، وما أنت بفاعل، فقد مضى زمن طويل عليها منذ أن علمت بخفايا المسألة. تذكر أنهم غير قادرين على منع أمر ما من الحدوث، أو على قبول أية حقيقة (الرجال فقط هم الذين يكتمون الحقائق) إلا إذا كان عليهم ألا يواجهوها؛ في مقدورهم أن يستوعبوها بإمالة رؤوسهم وبمدّ يد واحدة خلف ظهورهم مثلما يقبل الدبلوماسي الرشاوى. انظر إليها: سوف تمضي حياة سعيدة كريمة دون أن تضيع مثقال ذرة من رفضها لتصفح عنك باعتبارك قادراً على تزرير بنطالك بنفسك».

ظلّ هناك متسع من الوقت قبل حلول النهار عندما أوقف الخال السيارة أمام باب الشريف وشق طريقه صاعداً الممشى القصير وتابع الصعود

إلى الشرفة المتصدعة. (فيما مضى لم ينجح لشخصه الكريم، ورغم أنه الآن في فترة ولايته الثالثة فإن الوقت الذي أمضاه الشريف هامبتون في المنصب يبلغ ضعف الاثنتي عشرة سنة في الخدمة. كان رجلاً ريفياً، مزارعاً أبّاً عن جد. عندما انتخِبَ للمرة الأولى أصبح البيت والمزرعة اللذان ولد فيهما ملكاً خاصاً له الآن، أثناء فترة ولايته كان يسكن بيتاً بالأجرة في البلدة أما بعد انتهاء ولايته فكان يعود إلى المزرعة بيته الأصلي فيقيم إلى أن يغدو بإمكانه شغل منصب الشريف - ويتم انتخابه - من جديد). قالت الآنسة هابرشام: «أرجو ألا يكون نومه ثقيلاً». أجاب الخال: «ليس نائماً. إنه يعد طعام الفطور».

«يعد طعام الفطور؟» تساءلت الآنسة هابرشام: عَلِمَ فيما بعد أن سبب توازن قبعتها غير ناجم عن تثبيتها بدبابيس وإنما عن استقامة ظهرها بحيث لا تتزحزح القبعة عن ذروة الرأس وبسبب حفظ توازن لا يعرف الوهن في رقبتها الصلبة، أشبه بامرأة زنجية تحمل غسيل عائلة بأكملها، كانت خائرة القوى تقريباً من فرط الإجهاد وقلة النوم أيضاً.

قال الخال: «شخص يعتبر كلّ طعام يأكله بعد الصباح عشاء. السيدة هامبتون في ممفيس مع ابنتها التي تنتظر مولودها والسيدة الوحيدة التي تطبخ فطور الرجل الساعة الثالثة والنصف صباحاً هي زوجته وليس أية طباخة بالأجرة من البلدة. فهي تأتي في ساعة مناسبة حوالي الثامنة وتغسل الصحون». لم يقرع الخال الباب. شرع بفتح الباب ومن ثم توقف ونظر نحوهما إلى الخلف حيث كان ألك ساندر واقفاً على أسفل درجات الشرفة. توجه إلى ألك ساندر بالقول: «لا تظن أنك تستطيع أن تتهرب لأن أمك لا يسمح لها بالانتخاب. تعال أنت أيضاً». بعدئذٍ فتح خاله الباب فشمّوا على الفور رائحة القهوة ورائحة لحم الخنزير المقليّ، مشى على الأرض المفروشة بالمشمّع باتجاه مصباح ضعيف في نهاية الردهة وبعد ذلك عبر الأرض المفروشة بالمشمّع في مهمة بالغة الإسراع لعدة مراحل إلى المطبخ، نحو أتون موقد الخشب المشتعل المستعر حيث وقف الشريف فوق مقلاة تبقبق[1] مرتدياً قميصه وسرواله الداخليين والجوارب، رباطاه متدليان وشعره أشعث

(1) - البقبقة: صوت الغليان.

والبنطال القصير الذي يرتديه أشبه ببنطال ولد في العاشرة من عمره، وقد حمل قالب فطائر بيد ومنشفة أواني في اليد الأخرى. أدار الشريف وجهه الواسع نحو الباب قبل أن يدخلوه وراحت عيونه الصغيرة القاسية تنتقل بحركة خاطفة من الخال إلى الآنسة هابرشام وإليه هو ومن ثم إلى ألك ساندر وبعد ذلك مباشرة لم تكن العيون هي التي توسعت إلى حد كبير في تلك الثانية وإنما على وجه التحديد كانت محاجر العيون السود المثبتة على مواقع محددة بالغة الدقة في تلك اللمحة الخاطفة. لكن الشريف لم ينبس ببنت شفة بعد، راح البؤبؤان الصغيران القاسيان يتسعان من جديد بعد النظر إلى الخال مع انطلاق زفرة أثلجت صدره بينما وقفوا هم الثلاثة بهدوء وثبات يراقبون الشريف إذ بينما راح الخال يسرد القصة، بسرعة وتكثيف وإيجاز، بدءاً من اللحظة التي كانا فيها في السجن مساء أمس عندما تأكد الخال بأن لوكاس روى له أو سأله بالأحرى عن شيء ما، إلى اللحظة التي دخل فيها غرفة الخال منذ عشر دقائق خلت وأيقظه، وتوقف، من جديد راقبوا العيون الصغيرة القاسية وهي تطرف، تطرف، تنتقل عبر الوجوه الثلاثة وتعود إلى خاله من جديد، بحيث تقع الأنظار على الخال تقريباً كل جزء من الثانية دون أن ترف. بعدئذٍ قال الشريف: «ماكنت أتيت إلى هنا الساعة الرابعة صباحاً بقصة كهذه لو لم تكن قد وقعت فعلاً».

أجاب الخال: «هذا ليس كلام ولدين في السادسة عشرة فحسب. أذكّرك بأن الآنسة هابرشام كانت معهم».

قال الشريف: «لا داعيٍ لأن تذكّرني. ولا أظن أنّي سأنسى» بعدئذ استدار الشريف. كان رجلاً عملاقاً في الخمسين من عمره، لا يخطر لك في بال أنه يتحرك بسرعة ولا يبدو حاليا أنه قد تناول مقلاة أخرى بعدها من المسمار المثبت على الجدار خلف الموقد وفي ذات الوقت استدار نحو الطاولة، (هنا لاحظ وشاهد للمرة الأولى فخذاً من اللحم المشويّ) دون أن تظهر حركته بأي شكل من الأشكال، والتقط سكيناً موضوعة قرب اللحم قبل أن يشرع الخال بالقول: «هل لدينا وقت لهذه المهمة؟ يجب أن تقود السيارة مسافة ستين ميلاً إلى مقر النائب العام للمقاطعة، وتأخذ الآنسة هابرشام وتحاول إقناعه أن يحرّر تصريحاً بنبش قبر فنسون جوري».

مسح الشريف مقبض السكين سريعاً بمنشفة الأواني: «على ما أظن قلت لي فنسون جوري ليس في ذلك القبر».

قال الخال: «رسميّاً هو في القبر. حسب سجلات المقاطعة هو في القبر. وإذا أنت ـ عشت هنا تماما وعرفت الآنسة هابرشام وعرفتني على مدى حياتك السياسية ـ سألتني مرتين ماذا تظن أن جيم هالدي فاعل؟ وجب عليك أن تقود السيارة مسافة ستين ميلاً مع شهودك والتصريح وتصل إلى القاضي ميكوكس لإصدار الأمر».

ألقى الشريف منشفة الأواني علي الطاولة. قال الشريف بلطف: «هل يجب عليّ هذا؟» دون مبالاة تقريباً: بحيث توقف الخال تماماً يراقبه هنيهة يستدير من الطاولة والسكين في يده. قال الخال: «أوه»

قال الشريف: «كنت أفكر في أمر آخر أيضاً. أنا مندهش بأنك لم تفكر به. أوربما خطر في بالك».

حدق الخال في الشريف. من ثم قال ألك ساندرـ كان خلف الجميع قبل أن يصل إلى باب غرفة الطعام المؤدي إلى المطبخ ـ في نبرة معتدلة حيادية كأنه يقرأ إعلاناً ملفتاً للأنظار يروّج سلعة لا يملكها ولم يتوقع البتة أن يرغب بها: «لا ينبغي أن يكون بغلاً، بل ينبغي أن يكون حصاناً».

قال الشريف: «ربما فكرت في الأمر الآن».

ردّ الخال: «أوه». وأردف هو: «نعم». من جانب آخر كانت الآنسة هابرشام تتحدث في ذات الوقت. رمقت ألك ساندر بنظرة سريعة خاطفة صارمة كما رمقت الشريف في الوقت نفسه من جديد بالسرعة والصرامة ذاتهما. قالت: «أنا جاهزة. باعتقادي نحن جديرون بما هو خير من التكتم».

قال الشريف: «هذا هو رأيي يا مس يونيس. غير أن الشخص الذي يحتاج للأخذ بعين الإعتبار ليس في هذه الغرفة الآن».

قالت الآنسة هابرشام: «أوه». أردفت قائلة: «أجل». استمرت بالقول: «طبعاً»: في آن معاً تحركت، قابلت الشريف في منتصف المسافة بين الطاولة والباب أخذت السكين منه وتابعت طريقها إلى الطاولة حيث مرّ بها وتابع طريقه إلى الباب ومارّاً بالخال وبعدئذ به هو ومن ثم بألك ساندر

حيث أفسحوا المجال للشريف الذي تابع سيره إلى غرفة الطعام ومنها إلى الصالون المظلم، وأغلق الباب خلفه: تساءل في نفسه لِمَ لمْ ينته الشريف من ارتداء ثيابه بعد أن نهض، فرجل لا يكترث إذ ينهض أو بالأحرى توجب عليه النهوض أو نهض فعلياً في الثالثة والنصف صباحاً ليعد طعام الصباح لا يبالي إذا نهض قبل ذلك بخمس دقائق واستغرق وقتاً كافياً في ارتداء قميصه وانتعال حذائه ومن ثم تحدثت الآنسة هابرشام وتذكرها، فحضور إمرأة كان طبعاً سبب ذهابه لارتداء القميص وانتعال الحذاء دون أن يعير التفاتة لتناول الفطور وتحدثت الآنسة هابرشام فارتجف نافضاً الكرى عن جفنه دون أن يبارح مكانه، بعد أن ظل بضعة دقائق نائماً وهو يسير على قدميه مثلما ينام الحصان غير أن الآنسة هابرشام راحت تقلب قطعة اللحم على حافتها لتقطع أول شريحة. قالت: «ألا يستطيع الاتصال بها ريسبرج ويعود بهاتف موجه من النائب العام في المقاطعة إلى القاضي ميكوكس؟».

قال ألك ساندر: «هذا ما يفعله الآن، الاتصال بالهاتف».

قال الخال لألك ساندر: «قد يكون من الأفضل أن تذهب إلى الصالون حيث تستطيع استراق السمع بشكل جيد إلى ما يقوله».

بعدئذٍ نظر الخال إلى الآنسة هابرشام من جديد، وراح هو بدوره يراقبها تفرم على عجل لحم الخنزير فرمة إثر أخرى بسرعة الآلة ودقّتها. «يقول السيد هامبتون: أننا لن نحتاج أيّة أوراق. يمكننا إنجاز الأمر بأنفسنا دون ممانعة من القاضي ميكوكس». تركت الآنسة هابرشام السكين، لم تنزلها إلى الأسفل، فتحت يدها فحسب وبنفس الحركة التقطت خرقة ومسحت يديها مبتعدة عن الطاولة، اجتازت المطبخ متجهة إليهم بسرعة أكبر، أسرع بقدر لابأس به من السرعة التي تحرك بها الشريف. قالت: «لماذا نضيّع الوقت هنا؟ هل من أجل انتهاء حضرته من ارتداء ربطة عنقه ومعطفه؟». مشى الخال بسرعة أمامها. قال: «لايمكننا عمل شيء في الظلام. علينا انتظار النهار».

أجابت الآنسة هابرشام: «لن نفعل». توقفت عندئذ، كان عليها إما أن تفعل ذلك أو أن تستخف بمشاعر الخال رغم أنه لم يلمسها، بل حال بينها وبين الباب فكان لا بدّ لها أن تقف لحظة على الأقل كي يفسح الخال مجالاً: نظر إليها، بدت أنيقة، نحيلة لا كسم لها تقريباً ترتدي

فستاناً قطنياً مكويّاً تحت استدارة القبعة الدقيقة وخطر لـه *إنها كبيرة في السن على هذا الزيّ* وصحّح *بل لا ينبغي على المرأة الرصينة أن تفعل ذلك* من ثم تذكر كيف غادر المكتب واجتاز باحة الدار الخلفية وصفر لألك ساندر وعلم أن الأخير قد صدق ـ مازال يصدق ـ بأنه قد يذهب بمفرده لو أن ألك ساندر أصرّ على رفضه لكن في نهاية الأمر وبعد مجيء الآنسة هابرشام إلى البيت وحديثها معه عرف أنه سيحسم الموقف وتذكر من جديد ما قاله العجوز أفرايم بعد أن وجدوا الخاتم تحت مِزْوَد الخنازير *إذا ارتأيت أمراً يخالف السائد والمألوف لا بدّ من إنجازه ولا يحتمل الانتظار، فلا تضيّع وقتك مع معشر الرجال، إنهم يتصرفون بموجب ما يسمّيه الخال أسسا وحالات، وإنما الجأ إلى النساء والأولاد، لأنهم يتصّرفون بمقتضى الظروف*. من ثمّ فتح باب الصالون. سمع الشريف يعبر غرفة الطعام إلى باب المطبخ. غير أن الشريف لم يدخل المطبخ، توقف عند الباب، وقف على عتبة الباب تماما بعد أن قالت الآنسة هابرشام بصوت أجش شبه وحشيّ: «ماشي الحال؟» لم يلبس حذاءه ولم يلتقط حمّالة البنطال المتدلية وعلى ما يبدو لم يسمع الآنسة هابرشام بتاتاً: وقف، بدا جليّاً للعيان، راح يرمق الآنسة هابرشام ـ لا قبعتها، لا عينيها ولاوجهها: رمقها بشكل إجمالي ـ كأنك تتأمل مجموعة أحرف بالروسية أو الصينية قال لك شخص تثق به أنها تشكل اسمك، أخيراً قال بصوتٍ محيّر: «لا» من ثم أدار رأسه ليرمقه وقال: «ليس المعنيّ أنت» ووجّه رأسه بعد ذلك إلى ألك ساندر الأبعد بحيث راح يرقب ذاك الأخير فرفع ألك ساندر بصره إلى الشريف ومن ثمّ حوله عنه من جديد وعاد إلى رفعه نحو الشريف.

قال الشريف: «أنت. أنت إذن ذهبت إلى هناك وساهمت في نبش جثة أحد الموتى. ولم يكن أي ميت بل الميت الذي يدعي معظم البيض أن زنجياً آخر قتله لماذا؟ ألأن الآنسة هابرشام دفعتك إلى ذلك؟».

أجاب ألك ساندر: «لم يحرضني أحد إطلاقاً. لم أعلم أنني ذاهب من أجل تلك الغاية. وقد أبلغت تشيك[1] سلفاً أنني لاأرغب في ذلك. أخيراً وبعد

(1) ـ تشيك: إسم آخر لبطل الرواية تشارلز.

أن صعدنا إلى سيارة البيك آب بدا أن الجميع أيقنوا من عدم استعدادي للقيام بأي عمل آخر سوى الذهاب قبل أن أعرف ما هو المطلوب».

نادت الآنسة هابرشام: «يا سيد هامبتون». في تلك اللحظة نظر الشريف إليها. الآن سمعها بوضوح.

قال: «ألم تنه تقطيع اللحم بعد؟ إليّ بالسكين إذن». أمسكها بذراعها وأعادها إلى الطاولة. «ألم تندفعي وتضطربي هنا وهناك الليلة بما يكفي لإبقائك صابرة لبرهة وجيزة؟ النهار يحلّ بعد خمس عشرة دقيقة وجماعات البيض لا يبدأون عمليات السّحل في وضح النهار. قد ينهون عملية سحل واحدة في وضح النهار إذا ما كان لديهم مشكلة صغيرة أو نكسة حظ ويكشفون ملابساتهما. غير أنهم لا يبدأون عمليات السحل في وضح النهار لأنهم يضطرون في هذه الحالة إلى مشاهدة وجوه بعضهم البعض. كم من شخص يمكن أن يأكل زيادة عن بيضتين؟».

تركوا ألك ساندر يتناول فطوره على طاولة المطبخ وحملوا طعامهم إلى غرفة الطعام، حيث حمل مع الخال والآنسة هابرشام طبقاً كبيراً من البيض المقلي واللحم المقلي ومقلاة من فطائر معدة لليلة أمس ومسخنة من جديد في الفرن حتى باتت مثل التوست إضافة إلى ركوة قهوة غلي فيها ثفل قهوة غير مصفّى مع الماء إلى أن فطن الشريف وحركها من على القسم الساخن من الموقد؛ بالكاد جلسوا هم الأربعة مع أن الشريف كان قد جهز خمسة كراسي وعندما رفع الشريف رأسه مصغياً لم يتناه إلى سمعه أي صوت، فنهض آنذاك ومضى إلى الصالون المظلم ومنه إلى الجزء الخلفي من البيت ومن ثم تناهى إلى سمعه صوت فتح الباب الخلفي وفي الحال عاد الشريف مع ويل ليجيت من غير البندقية، وأدار رأسه بما يكفي للنظر من خلال النافذة خلفه فتاكد بما لا يدع مجالاً للشك من حلول النهار.

وزع الشريف الصحون بينما مد الخال وليجيت فنجانيهما وفنجان الشريف إلى الآنسة هابرشام الجالسة قرب ركوة القهوة. بعدئذ تهيّأ له على الفور سماع الشريف ينادي لفترة طويلة من مسافة بعيدة: «يا ولد..... يا ولد...» ويردف قائلاً: «أوقظه يا جافن. دعه يتناول فطوره قبل أن ينام». انتفض، فإذا بالنهار طالع، والانسة هابرشام تصبّ القهوة في فنجانه فشرع

هو بتناول الطعام، ومضغه، في حركة صعود وهبوط أشبه بحركة المضغ في خضم نوم عميق لا قرار له، من بين الأصوات الصادرة فيما مضى والتي لم تعد تهمه في الوقت الحاضر: جاءه صوت الشريف: «هل تعرف جاك مونتيجمري القادم من مقاطعة كروسمان الذي ظل يتردد على البلدة طوال الأشهر الستة المنصرمة أو ما شاكل ذلك؟» وصوت ليجيت: «بالتأكيد. كان تاجر أخشاب قليل الخبرة أو شيئاً من هذا القبيل يدير محلا يدعوه مطعماً على تخوم منطقة تنسي خارج ممفيس، مع ذلك لم أسمع بمحاولة أيّ كان شراء ما يؤكل من هناك، إلى أن ذهب أحدهم إلى هناك وقتل ذات مساء قبل سنتين ـ أو ثلاث. لم يعرفوا بالضبط كم من المال جمع جاك أو خسر لكن شرطة تنسي استعرضت ماضيه في منطقة تخوم الميسيسبي حسب الأصول. منذ ذلك الحين على حدّ علمي هو موجود في مكان ما من مزرعة والده في نواحي جلاسجو ينتظر ظهور أجيال من الناس نسيت فِعلتَهُ فيغدو بوسعه من جديد البدء بعمل تجاري في مكان آخر على طريق عام انطلاقاً من حفرة تحت الأرض تتسع لإخفاء صندوق وسكي».

سأل الشريف: «ماذا كان يفعل في هذه النواحي؟».

فجاء بعده جواب ليجيت: «يشتري الأخشاب. أليس كذلك؟ أليس مع فنسون جوري...». فاستدرك ليجيت وصحح زمن الفعل: «*أكان؟*» وقال دون تغيير يذكر في نبرة الصوت: «ماذا يفعل في الوقت الحاضر؟» جاء صوته ذاته هذه المرة حيادياً من عالم النوم العميق الناعم، من الحياد بمكان جعله يفكر بارتفاع الصوت أم لا».

«إنه لا يفعل شيئاً البتة في الوقت الحاضر».

من جانب آخر كان من الأفضل فيما بعد أن يخرجوا مرة أخرى من البيت الدافئ الممل إلى الهواء الطلق حيث الصباح، وأشعة الشمس الذهبية تنتشر برفق شاهقة الارتفاع على أعالي ذرا الأشجار، وتتلألأ على صفحة مياه بركة البلدة الساكنة العميقة المتكاثفة المتباعدة في امتدادها مقابل اللازورد الأزرق، وأن يركبوا هم الأربعة من جديد سيارة الخال وقد اتكأ الشريف على نافذة السائق مرتدياً في ذلك الحين كل ملابسه بما فيها ربطة

العنق البرتقالية الصفراء المتألقة وقال للخال: «أوصل مس يونيس إلى بيتها كي تأخذ قسطاً من النوم. سآخذك من البيت بعد ساعة».

قالت الآنسة هابرشام الجالسة في المقعد الأمامي إلى جانب الخال: «باه»[1]. لم تضِفْ شيئاً. لم تشتم. لم تكن بحاجة إلى ذلك. كان قولها أكثر تحديداً وحسماً من مجرد الشتم. اتكأت إلى الأمام، نظرت نحو الخال والشريف، وقالت: «اركب سيارتك واذهب إلى السجن أو إلى أي مكان تشاء وأحضر من يقوم بالحفر هذه المرة. علنيا إعادة الردم من جديد لأننا نعرف أنكم لن تصدّقوا بعد ما لم تشاهدوا بأم أعينكم. هيّا بنا. نقابلكم هناك. هيّا بنا».

غير أن الشريف لم يتحرك. سمع هو صوت تنفس صادر عنه بالغ العمق والبطء، أشبه ما يكون بالتنهد. قال الشريف: بالطبع لا أعرف عنك شيئاً فسيدة لا يشغلها سوى ألفي طائر دجاج تغذيها وتعتني بها وتسقيها إضافة إلى مزرعة خضار بالكاد تبلغ مساحتها خمس أكرات تسيّر أمورها، قد لا يكون لديها ما تعمله طوال النهار. لكن على أولئك الأولاد مهما يكن الأمر الذهاب إلى المدرسة على الأقل لم اسمع عن أي قانون في[2] مجلس التعليم يمنح عطلاً من أجل نبش الجثث».

أوقفها هذا القول مباشرة. لكنها لم تتكئ إلى الخلف في جلستها. ظلت متكئة إلى الأمام بحيث يمكنها النظر إلى الشريف مروراً بالخال من جديد فكر في نفسه *إنها متقدمة في العمر لتتصرف أو تضطر إلى التصرف بهذه الطريقة*: في حال عدم إتيانها بحركة في حينه فلا بد أن يقع على عاتقه هو أو عاتق ألك ساندر اللذين دعاهما صبيانا هي والخال والشريف ثلاثتهم معاً عدا عن والدته ووالده وبارالي كذلك الأمر، الإقدام على تلك الفعلة — لم يكن عليهم اقترافها فحسب إنما كانت شراً لابد منه لا في سبيل إحقاق الحق والأصول بل إثباتاً للبراءة: فكر في إنسان يضطر صراحة إلى قتل إنسان آخر بغير دافع أو سبب إنما ببساطة تلبية لحاجة الإكراه في الإرغام

---

(1) - لفظة للاستهزاء.

(2) - BOARD — SCHOOL: لجنة مسؤولة عن التعليم في المدارس المحلية.

على قتله، مبتدعاً الذريعة وموجداً السبب لنفسه بعدئذ بحيث يظهر بين الناس بمظهر الإنسان المنطقي: كائناً من كان قاتل فنسون جوري فقد نبش جثته وقتل شخصاً آخر كي يضعه في القبر الخالي بحيث أن أي شخص يقتله يغدو بإمكانه أن يستريح، أما أقرباء فنسون جوري وجيرانه فعليهم قتل لوكاس أو غيره أو أي شخص لا على التعيين، لا يهم من يكون هذا الشخص، إذ يمكنهم الاستراحة والتنفس بهدوء وحتى الحزن بهدوء كي تهدأ نفوسهم. جاء صوت الشريف بارداً لطيفاً أميل للمباشرة: «اذهبي أنت إلى البيت. لقد أحسنتم صنعاً، أنت وهذان الولدان من المحتمل أنكم أنقذتم حياة إنسان. اذهبي الآن إلى البيت ونطّلع نحن على كل الوقائع. ولا حاجة لامرأة في هذا المجال».

غير أن الآنسة هابرشام صمتت تماماً، دون أن يستمر صمتها وقتاً طويلاً: «مثلما حدث البارحة إذ لم يكن هناك مجال ولو لرجل واحد».

قال خاله: «انتظر يا هوب». بعد ذلك التفت الخال إلى الآنسة هابرشام. قال هو: «عملك في البلدة في هذا المكان. ألا تعرفين ذلك؟» للتوّ راقبت الآنسة هابرشام الخال. لكنها لم تعتدل بجلستها في المقعد، دون أن تفسح مجالاً لأي كان حتى هذه اللحظة، وهي تراقب، بغض النظر عن كل شيء بدا أنها لم تستبدل خصماً بخصم بديل وإنما دون تردد أو تلكّؤ قبلت بالإثنين على حد سواء، دون أن تسأل أحد منهما، ودون أن تنادي بأفضلّية أحد الطرفين. قال الخال: «ويل ليجيت مزارع. علاوة على ذلك ظل ساهراً طوال الليل. نوى أن يذهب إلى البيت والالتفات لأشغاله الخاصة لبرهة قصيرة».

قالت الآنسة هابرشام: «أليس لدى السيد هامبتون مساعدين آخرين؟ وما هي مهماتهم؟».

قال الخال: «إنهم رجال يحملون البنادق فحسب. لقد قال ليجيت نفسه لتشيك وفي ليلة الأمس أنه إذا ما عقد عدد وافر من الرجال عزمهم وظلّوا على تصميمهم فإنهم قادرون على تخطيه مع السيد توبسن في آن معاً. أما إذا أتت امرأة، سيدة، سيدة بيضاء...» صمت الخال، كف عن الكلام، تبادلا النظرات، بعد أن نظر هو إليهما فكّر من جديد بخاله

وبلوكاس في الزنزانة الليلة الماضية (بدت وكأنها قبل سنين رغم أنها كانت بالأمس فقط)؛ الوضع نفسه مع بعض التعديل إذ كان كل من الخال والآنسة هابرشام ينعم النظر في عينيّ الآخر الشهوانيتين بدلاً من خضوع أحدهما لغريمه بحيث أن التركيز الكلّي لجميع الأحاسيس التي لا تعدو منتهى قدرتها أن تكون مجرد إدراك فيزيائي عرضة للخطأ لا براعة فيه يتفوّق نوعاً ما على المقدرة في قراءة اللغة السنسكريتيّة، وربما أحس أنه يراقب آخر لاعبين تبقيّا على طاولة البوكر. «....تجلس[1] هنا فحسب، على مرأى الأنظار عند أول من يمر لنشر الخبر قبل أن يتمكن سكان منطقة بيت فور مباشرة من الشروع بتشغيل السيّارة بواسطة الكرنك والنزول إلى البلدة بوقت طويل. في هذه الأثناء نذهب إلى هناك وننتهي من الأمر على أكمل وجه وإلى الأبد.

اتكأت الآنسة هابرشام إلى الخلف إلى أن لامس ظهرها المقعد. قالت: «يتوجب عليّ إذن الجلوس في ذلك المكان على الدرج بتنورتي المفتوحة أو من الأفضل أن أسند ظهري إلى الدرابزين وأسند قدمي إلى جدار مطبخ السيدة توبس أما أنتم معشر الرجال فلم يكن لديكم البارحة وقت لتسألوا الزنجيّ العجوز بضعة أسئلة حتى أن أحدا لم يلتفت إليه البارحة سوى ولد، طفل ..». لم ينبس الخال ببنت شفة. اتكأ الشريف على النافذة وراح يطلق تنهيدات عميقة مكتومة، لم يتنفس بصعوبة بل مثلما يتنفس رجل مسنّ. قالت الانسة هابرشام: «خذني إلى البيت أولاً. سأبدأ برتق بعض الثياب. لا داعي لجلوسي هناك دون عمل طوال النهار بحيث تفكر السيدة توبس بالتحدث إليّ. خذني إلى البيت أولاً. لقد تحققت لساعة خلت كم أنت والسيد هامبتون متسرعين ومتهوّرين بل وقادرين على إضاعة الوقت بهذه الطريقة. يستطيع ألك ساندر أن يأتي بسيارتي إلى السجن في طريقه إلى المدرسة ويتركها أمام المدخل».

أجاب الخال: «كما تشائين يا سيدتي».

---

(1) ـ تعود إلى سيدة بيضاء قبل 8 أسطر.

الفصل السادس

على هذا النحو أوصلوا الآنسة هابرشام بالسيارة إلى بيتها، الواقع في أطراف البلدة مرورا بأيكة الأرز المهملة العديمة الترتيب إلى الرواق المؤلف من أعمدة غير مطليّة حيث نزلت وولجت البيت وتابعت الدخول باطّراد دون ثمة توقف لأنهّم سمعوها على الفور تنادي أحد الأشخاص بمكان ما من الجهة الخلفية ـ قد يكون العجوز الزنجي شقيق موللي وشقيق زوجة لوكاس ـ بصوتها القويّ المتوتر العالي نوعا ما من جرّاء السهر والإرهاق، بعد ذلك خرجت مرة ثانية وهي تحمل كرتونة ملأى بملابس مغسولة غير مكوّية ومنسوجات خفيفة وخيوط وجوارب وما شاكل ذلك، وقفلت عائدة إلى السيارة وعادوا بالسيارة إلى الساحة عابرين الشوارع الهادئة في الصباح الجديد: كانت منازل جيفرسون القديمة الكبيرة المتداعية المبنية في أزمنة غابرة كمنزل الانسة هابرشام ماثلة في عمق المروج المتنامية المهملة من الأشجار الهرمة والشجيرات المزهرة الفوّاحة الرائحة ذات الجذور المتينة التي لم يعد معظم من يقل عمرهم عن الخمسين يعرفون أسماءها، والتي عندما يقطن الأولاد فيها يظلّون مبهورين بظلال النساء العجائز اللائي فاتهنّ قطار الزواج وبظلال الأرامل اللائي ينتظرن طوال السنوات الخمس والسبعين التالية وصول برقية بطيئة تأتيهن بأخبار عن معارك تنسي وفرجينيا وبنسلفانيا، والتي لم تعد مباشرة في مواجهة الشارع بعد أن راحت تبدو للعيان فيه بين عشية وضحاها، أسطحة ماثلة لبيوت أنيقة

مؤلفة من طابق واحد مصممة في فلوريدا وكاليفورنيا تجاورها كراجات مناسبة في فسح الأرض الأنيقة حولها المزدانة بالعشب المقصوص وبمشاتل الورد، في الوقت الحاضر تبقى منها ثلاث أو أربع أراض، مقسمة إلى أجزاء صغيرة حالياً في مكان اعتبر منذ خمسة وعشرين عاماً صغيراً نوعاً ما بالقياس إلى المرجة المواجهة الفسيحة، حيث كان يسكن الأزواج الشباب مع ولدين في كل منها (حالما يغدو بإمكانهم) ويتدبرون سيارة وإشتراكات في النادي الريفي وأندية البريدج وفروع[1] مؤسسة الخدمات وغرفة التجارة وأدوات الطبخ والتنظيف والتبريد المتقنة الصنع وخادمات أنيقات يرتدين ملابس ملونة زاهية وقبعات مكشكشة كي يعتنين بالبيوت ويتبادلن الأحاديث بالهاتف من بيت إلى بيت بينما ترتدي الزوجات السراويل والصنادل في أقدامهن المطلية الأظافر وينفثن سجائر تلونت أعقابها بأحمر الشفاه ويحملن حقائب السوق ليتبضّعن في سلسلة من الحوانيت والمخازن.

أو قد يحصل ولا بد أن يحصل حلول يوم الأحد، فيقبلن على يوم لا يعمل أحد فيه في تشغيل المكانس الكهربائية أو إيقافها أو إدارة أزرارالأفران بل يمضينه كيوم مخصص للراحة أو لنشاطات أخرى من تعميد ونزهة وجنازة حافلة لكن هذا اليوم هو الإثنين، يوم جديد من أسبوع جديد، انتهت معه الحاجة إلى الإستراحة وملء وقت الفراغ والتخلص من الملل، فالأولاد نشيطون في الإقبال على المدارس، والأب الزوج نشيط في الإقبال على المحل أو المكتب أو الوقوف حول دائرة الإتحاد الغربي حيث تأتي التقارير عن القطن ساعة بساعة، ولا بد من إعداد الفطور بادئ ذي بدء إبّان خروجهم النشيط الصاخب قبل أن يشاهدوا أي زنجي ـ فيتأنّق الشبان المصففون شعرهم في ملابس الغد الأنيقة الزاهية من دور تبييع البضائع بموجب طلب بريدي[2] ولا يلبسون القلنسوات والمآزر المشتراة من

---

(1) - JUMIOR ROTARY من ROTARY CLUB: منظمة دولية أنشئت في شيكاغو عام 1905 شعارها: «الخدمة».

(2) - MAILORDER HOUSES الطلب البريدي: طلب سلعة تتلقاه مؤسسة ما بالبريد وتلبيّه بواسطة البريد.

بازار هاربر قبل أن يلجوا المطابخ البيضاء ويتــأنّق الكهـول بملابـس منزليـة قوامها قماش قطني ونسيج الجنغهام تصــل حتـى الكـاحل ويرتـدون دائمـا مآزر منزلية الصنع منسوجة لا لتغدو مجرد رمز وإنما لتكون ثوباً، عدا عــن الرجال المقبلين على تقليم المـروج وتدعيـم الأسـيجة، لم يلحظـوا (يعـبرون الساحة الآن) حشود عمال البلدية الذين ينهالون على الرصيــف بـالخراطيم ويكنسون جرائد الأحد وعلب الدخان الفارغة المرمية؛ عبروا الساحة وصولاً إلى السجن حيث خرج الخال أيضاً ومضى في طريقـه مـع الآنسـة هابرشـام وصعد الدرج ومن خلال الباب الذي مــازال مفتوحـاً علـى مصراعيـه شـاهد كرسيّ ليجيت الفارغ على حاله مُسـنَداً إلى الجـدار بعـد أن نـهـض الأخـير بجسده من جديد خارجاً من سواد نوم هادىء ملحّ طويل غير مقاس بـالزمن ليجد كالعادة أن الوقت لم يمرّ، مازال الخال يرتدي القبعة على رأسه وهـو يستدير إلى الخلف هابطاً المر متجهاً إلى السيارة. بعدئذ توقفـوا في البيـت، فخرج ألك ساندر على الفور من السيارة ودار حــول طـرف البيـت واختفـى وقال هو: «لا».

قال الخال: «أجل. يجب أن تسرع بالذهاب إلى المدرسة. بالأحرى مـن الأفضل أن تذهب إلى السرير وتنام». وأردف فجأة: «نعم. ألك ساندر يجب أن يبقى في البيت أيضاً. لأنه من الواجب ألا يتسرب أي كلام عمّا حدث، ولو كان كلمة واحدة قبل أن ننهي القضية. أنتم تفهمون ذلك».

غير أنه لم يكن يصغي، لم يكن هو أو الخال يتحدثان عن الشيء نفسه في آن معاً، حتى عندما قال «لا» من جديد ونزل الخال من السيارة متجهـاً إلى البيت وتوقف والتفت إليه ومن ثم وقــف ممعنـاً فيـه النظـر لمـدة دقيقـة كاملة وبعدئذ قال:

«نحن مقبلون بنشاط على هذه المهمة بسوية أعلى قليلاً من التبعة الملقاة على عاتقنا، أليس كذلك؟ أنا من يتوجــب عليـه توجيـه السؤال إليكـم إن كان بوسعي الذهاب». لأنه كان يفكر في أمه، لم يتذكرها في النهاية إذ أنـه تذكرها وهم يجتازون الساحة منذ خمس دقائق خلت وأبْسَطْ مـا يمكـن هـو خروجه من سيارة الخال هناك والذهاب والصعود في سيارة الشريف والبقـاء فيها ببساطة إلى أن يقفلوا راجعين إلى الكنيسة وفي تلك الأثنـاء فكـر بـالأمر

وكان من المحتمل أن يفعل ذلك لو لم يكن متعباً خائر القوى قليل النشاط وبحاجة إلى النوم وهذه المرة علم أنه لا يستطيع مرافقتها حتى لو كان في ذروة نشاطه، في الواقع أقدم على ذلك مرتين في ظرف إحدى عشرة ساعة، مرة في السر ومرة بإدهاش عظيم ورشاقة في الحركة ومع الجماعة، لكنه انتهى بما أنجز إلى الهزيمة والإهمال، هزأ من منطق خاله الساذج والطفولي حول المدرسة والسرير عندما ووجه بالهجوم الخاطف العنيد، وعندما قرأ الخال أفكاره مرة أخرى، ووقف بجانب السيارة يتطلع إليه دقيقة أخرى بعطف ويأس نظراً لأنه أعزب في الخمسين من عمره ظل خمسة وثلاثين عاماً منها حراً من هيمنة النساء، كما تذكر الخال بدوره أنها تتخذ من ثقافته وإنهاكه الجسدي أعذاراً لتعظه دون قبول منغص لها، وهو بدوره لا يسمع مزيداً من المبررات المنطقية لبقائه في البيت على حساب ـ واجب مدني أو موقف منصف بسيط إنساني انقاذاً لحياة نفس بشرية ولإدخال السكينة إلى النفس الخالدة أو للأمرين كليهما في آن معاً ـ ذهابه. قال الخال: «ماشي الحال، هيا بنا. سأتحدث إليها».

تحرك، خرج، على حين غرة قال بهدوء، دونما تركيز لا من فقدان الأمل بل من اليأس الذي يمكنك في الواقع من المواجهة: «أنت خالي وحسب».

ردّ خاله: «أنا أقل من ذلك. أنا رجل فحسب». من ثم قرأ الخال أفكاره من جديد: «لا بأس. سأحاول التحدث إلى بارالي أيضاً. نفس الوضع وارد، فالأمومة على ما يبدو لا تتمتع في ظاهرها بأية صبغة». ربما كان الخال يفكر في عدم قدرتك على التغلب عليهم في النهاية، وعدم تمكنك من إيجاد ميدان تعترف فيه بالهزيمة في الوقت المناسب قبل أن تثار المسألة من جديد، تذكّر، كان ذلك قبل سنتين من الآن، كان قد شكل فريقاً رفيع المستوى لكرة القدم في المدرسة الثانوية فتم ترشيحه أو وقع عليه الاختيار للعب في أحد المراكز والقيام برحلة خارج البلدة «لكن» اللاعب الأساسيّ خرج من التدريب أو سقط رأساً على عقب في الطريق إلى المدرسة أو ربما لأن أمه مانعت في ذهابه، لسبب ما غاب عن ذهنه لأنه كان مشغولاً إلى حد بعيد يوم الخميس والجمعة وأرهق ذهنه دون جدوى بالتفكير في طريقة

يخبر أمه فيها بذهابه إلى موتستاون كي يلعب مع الفريق الأساسي، حتى اللحظة الأخيرة التي كان عليه فيها أن يخبرها بأية حجة وتصرّف: على نحو فاضح: ونفذ بجلده لأن الوالد تصادف أن يكون حاضراً (رغم أنه لم يحسب الأمور على هذا النحو، ما كان ليفعل لو لم يكن بالغ القلق والارتباك المقترنين بمزيج من الغيظ والعار ذلك العار الناجم عن كونه غاضباً وخجلاً فقد صرخ في وجهها في إحدى اللحظات: «هل ذنب الفريق أن أكون الإبن الوحيد الذي أنجبتِه؟» من تفكيره بالإقدام على ذلك)[1] مضى بعد ظهر ذاك الجمعة مع الفريق كجندي شعر بالإفلات من قيد ذراعي أمه وذهب للقتال في معركة دفاعاً عن قضية معيبة؛ سوف تحزن له بالطبع إذا سقط وسوف تتفرس في وجهه مرة أخرى إن لم يسقط ومن ناحية أخرى ظل بينهما أمر يتعذر التخلص منه ألا وهو رمز حادثة قديمة حاضرة دائماً وأبداً: طيلة مساء الجمعة حاول أن يخلد إلى النوم في سرير غريب وبقي فترة الصباح بكاملها حتى الظهيرة بانتظار بدء المباراة وهو يفكر أن من الأفضل للفريق لو لم يأت هو طالما تراكمت في ذهنه أشياء كثيرة جديرة بالاهتمام، إلى أن انطلقت صافرة البداية ومابعدها وماتلاها فبات تحت الجمع المكوّم من كلا الفريقين، الكرة ملتصقة إلى صدره بإحكام وفمه ومنخراه ممتلآن بالدهان الأبيض الجاف المتناثر الذي يحدد خطّ المرمى فسمع وتحقق من بين كل الأصوات صوتاً يصيح بانتصار وحماس في النهاية نهض فحملت الريح إليه صوتاً مكتوماً وشاهدها في مقدمة الجمهور لم تكن جالسة على المدرجات بل كانت مع الذين يهرولون ويركضون مباشرة ذهاباً وإياباً بمحاذاة خط التماس وهم يتابعون مجريات المباراة، في طريق العودة إلى جيفرسون بعدئذ ذاك المساء بواسطة السيارة، كان هو في المقعد الأمامي إلى جانب السائق المأجور بينما كانت أمه وثلاثة لاعبين في المقعد الخلفي جاء صوتها فخوراً هادئاً لا إشفاق فيه مثلما كان صوته: «أما زالت ذراعك تؤلمك؟».

..دخل الردهة فاكتشف أنه توقع أن يجدها ماتزال داخل الباب الرئيسي بشعرها المرسل وملابس النوم وأن يجد نفسه يجدّ السير عائداً وقد

---

(1) ـ تعود إلى غاضباً وخجلاً.

انخرطت في عويل متواصل غير متقطع بعد ثلاث ساعات. بدلاً من ذلك كان والده خارجاً في ذلك الوقت من غرفة الطعام وهو يصدر الضوضاء ويقف على بابها حتى مع صرخة الخال في وجهه: «تشارلي. تشارلي. بحق الجحيم هل لك أن تنتظر؟»، من ثم أقبلت أمه بكامل ثيابها، رشيقة، مهتمّة هادئة إلى القاعة من الجزء الخلفي حيث المطبخ قائلة لأبيه دون أن ترفع صوتها:

«عد وانته من تناول فطورك يا تشارلي. بارالي ليْسَتْ على ما يرام هذا الصباح ولا تريد أن تعد الطعام طيلة النهار»: بعدئذ قالت له ـ إنه الوجه الولوع الصارم الذي عرفه طيلة حياته وبالتالي لم يعد باستطاعته أن يصفه بحيث يتمكن شخص غريب أن يتبيّنه ولا يتبيّنه بنفسه من وصف ايّ كان سوى أنه وجه رشيق هادىء بالأحرى وجه فيه الآن مسحة من الغفلة، والصرخة نفس الصرخة الناتجة عن عادة قديمة في حشوها ضمن سياق الكلام: «لم تغسل وجهك». قبل أن تتوقف لتتأكد إن كان يتبعها، صعد الدرج المؤدي إلى الحمام، فتح الصنبور ووضع الصابون في يديه ووقف وأفرد المنشفة وراح ينتظر، وقد علا الوجه المألوف تعبير ذهول وتذمّر وقلق ورفض اعتيادي لا يقهر كان وجهه يكتسي به طيلة حياته في كل مرة يقدم فيها على أمر يجتاز به سن القصور، وعمر الطفولة مقدار خطوة إلى الأمام: ومنها وقت أعطاه الخال فرس شتلاند القزم حيث علمه أحد الأشخاص أن يقفز به عدة قفزات مسافة كل منها ثمانية عشر متراً وأربعة وعشرين بوصة وعندما أعطاه الوالد بندقية البارود أول مرة وعندما ربط سائس الخيل الحصان هاي بوي إلى العربة بعد الظهر فوقف هاي بوي على قائمتيه الخلفيتين جاءت صرختها مع صوت هادئ من السائس يقول: «اضربه بشدة على رأسه كلما فعل ذلك. لا تدعه ينقلب رأساً على عقب ويسقط فوقك». غير أن العضلات خارت قواها من مدى الغفلة وكثرة الاستعمال بينما اختار صوتها بلا اهتمام وبطريقة خاصة في استعمال الألفاظ الكلام المحشوّ المستهلك زعيقا لأمر آخر في هذه المرة ـ وهذا ما كان في السيارة بعد ظهر ذلك اليوم إذ قالت: «لم تؤلمك ذراعك مطلقا فهل تؤلمك الآن؟» وما كان بعد ظهر يوم آخر عندما عاد والده إلى البيت ووجده يقفز بالحصان

هاي بوي فوق قناة الماء الإسمنتية في الأرض المحيطة بـالبيت، كـانت أمـه متكئة على السياج ووالده في حالة غيظ من شـدة الإنفعـال والغضب، هـذه المرة جاء صوت أمه هادئاً: «ولم لا؟ هذه القناة لا تقارب ارتفاع ذاك السياج المهلهل بتماسكه الذي اشتريته دون أن يكون مثبتا بعضه إلى بعض»: حتى أنه لاحظه وقد غالبه النعاس في نفس الوقت فأدار وجهه ويديـه المتعرقتـين وصرخ بهـا بغضب ملؤه الذهـول والاستغراب: «لـن تذهبي أيضـاً. لـن تستطيعي الذهاب»! كما أنه تحقق وهـو يتـأهب للنـوم بعدئـذ مباشرة من السـذاجة الخرقـاء في اسـتخدام أي لـف أو دوران معهـا حـول اي موضـوع نلعب ورقته اليائسة الأخيرة: «إذا ذهبت، فلن أذهب! هل تسمعينني؟ لن أذهب!» فقـالت: «جفّف وجهـك وسرّح شعرك. ومـن ثـم انـزل وتنـاول قهوتك».

بالطريقة نفسها، كانت بارالي كذلك الأمر على خير مـا يـرام لأن خالـه كان يتكلم بالهاتف عندما دخل هو غرفة الطعام، في اللحظة الـتي استوى فيها جالساً علا صراخ الأب:

«لماذا لم يخبرني عمّا جرى الليلة الماضية؟ لا تعد إلى ..».

أجاب الخال وهو يدخل من الردهة: «لأنك ماكنت لتصدقه أيضـاً. ومـا كنت لتسمع بأي شكل من الأشكال. تطلّب الأمـر ولديـن وامـرأة، لتصديـق الحقيقة وهي الحقيقة بعينهـا بغـض النظر عـن أي سـبب آخـر، حسـبما جاءت علـى لسـان عجـوز في حالـة ثبـات جديـرة بـالتصديق والتعـاطف، بالنسبة لمن هو قادر على الشفقة حتى لو أن أحدا لم يصدقه في واقع الأمـر. هذا ما لم تفعله أنت بادىء ذي بدء». أردف الخال قائلاً له: «متى بـدأت تصدقه فعلياً؟ عندما فتحت التابوت أليس كذلك؟ أرغب في أن أعـرف كمـا ترى. وقد لاأكون متقدماً جداً في العمر على التعلم بأي حال. متى كان ذلك؟».

ردّ هو: «لا أدري». لأنه لم يكن يدري. بدا أنه علـى علـم بذلـك طيلـة الوقت. كما بدا له بعدئذ أنه لم يصّدق لوكاس فعلياً. ومـن ثمّ تهيّـأ لـه أن هذا لم يحدث، زفر في حالته السويّة زفـرة أخـرى دونمـا حركـة صعـود أو هبوط في حمأة نوم عميق ليمضي بعض الوقت يكسبه قـد تكفـي لجعلـه في مأمن لبرهة اشبه بالأقراص التي كان يتناولها سائقو العربات الليلية والـتي

لا يكاد حجمها يزيد عن حجم زر القميص والتي يتركز فيها مقدار من اليقظة كاف لهم كي يصلوا إلى البلدة التالية لأن والدته كانت في الغرفة رشيقة وهادئة، تضع فنجان القهوة أمامه بطريقة لو أن بارالي اتبعتها لقيل بأنها تنوي دلق القهوة عليه: والتي، أي القهوة، كانت سبب عدمِ نظر من الخال أو والده إليها، بل على العكس من ذلك استغرب والده قائلا:

«قهوة؟ ماهذا بحق الشيطان؟ ظننت أن الاتفاق كان عندما تقبلين في النهاية أن يشتري جافن ذلك الحصان بحيث لايطلب أو يتناول ولو ملء ملعقة من القهوة قبل أن يصبح عمره ثمانية عشر عاماً»: لم تكن أمه تصغي، كانت بيد واحدة وبالأسلوب عينه تدفع حيناً وتقحم أحياناً كلاً من طبق الكريما وزبدية السكر على التوالي بحيث تغدوان في متناول يده وعندما استدارت نحو المطبخ جاء صوتها غير متسارع أو نافذ الصبر: بل حاداً فحسب:

«اشربها الآن. فقد تأخر الوقت بنا». في هذه اللحظة نظروا إليها للمرة الأولى، كانت ترتدي أحسن ما عندها انتهاء بالقبعة، كان في كوع يدها الأخرى سلة القش التي كانت تستخدمها لرتق الجوارب والكلسات له ولوالده ولخاله منذ زمن بعيد حسبما يذكر، برغم ذلك شاهد الخال القبعة فحسب بادىء ذي بدء وبدا للحظة أنه شاركه شعور الدهشة الرهيبة الذي شعر به في الحمام.

قال الخال: «ماجي لا يمكنك! إن تشارلي..».

ردّت الأم دون توقف يذكر: «لا أقصد. في هذا الوقت لا بد أن تنبشوا القبور أيها الرجال. أنا ذاهبة إلى السجن» في هذه اللحظة دخلت إلى المطبخ ومن ثم عادت فجاء صوتها في النهاية: «لن أترك الآنسة هابرشام تجلس وحدها هناك ليحدق كل من في البلدة إليها. وذلك فور انتهاء مساعدتي للسيدة بارالي في إعداد العشاء فنحن» دون أن ينتهي[1] إلى التلاشي، أو التبدد، أو التناثر، من ثم تجاهلتهم رغم استمرار والده في محاولة أخرى للقول: «لابد أن يذهب إلى المدرسة».

---

(1) - تعود إلى صوتها.

غير أن الخال لم يسمع على الفور. فقد قال: «تستطيع قيادة سيارة الآنسة يونيس، أليس كذلك؟ وطالما أن مدارس السجن. وحتى لو كانت مدارس الزنوج مفتوحة فأنا اشك بأن بارالي ستسمح له باجتياز ساحة الندار طوال الأسبوع القادم».

بعدئذ بدا وكأنّ الخال سمع والده تماماً أو على الأقل قرر أن يردّ عليه فأجاب: «وكما كانت أيّة مدرسة من مدارس البيض علمت بذلك الأمر، لو أن هذا الولد لم يستمع إلى لوكاس، وهذا ما لا أفعله، أو لو أنه لم يستمع إلى الآنسة هابرشام، وهذا ما لم أفعله. أليس كذلك؟ هل يمكنك البقاء يقظاً كل هذه المدة؟ يمكنك أن تأخذ قسطاً من النوم ونحن في الطريق».

أجاب هو: «نعم يا سيدي».

وهكذا تناول القهوة وقد شوشه كل من الماء والصابون وقماش المنشفة الخشن بما يكفي ليعرف أنه لم يفضلها ولم يرغب بها وبما لا يكفي بالنسبة له ليختبر أي أمر بسيط يفعله على علاقة بها، سوى أن يشرب، يتذوق، يرتشف ومن ثم يضيف السكر إليها حتى لا يعود أي ـ من القهوة والسكر إلى ما كان عليه بل تغدوان أشبه بمحلول ملغم[1] حلو أشبه بالكينين[2] مقزّز للنفس أسوأ من كلا النوعين إلى أن قال الخال:

«توقف عند هذا الحد» نهض وذهب إلى المطبخ وعاد بكفت[3] من الحليب المغلي وزبدية حساء وأفرغ القهوة في الزبدية ودلق الحليب الساخن فوقها وقال: «تابع. انس الأمر. اشرب فقط». وهكذا شربها، من الزبدية التي رفعها بيديه الإثنتين مثل شرب الماء من القرعوش[4] تذوقها بصعوبة فيما استمر والده مستلقياً جانباً إلى الخلف في كرسيه يرمقه ويتحدث إليه، ويسأله إلى أي مدى كان خوف ألك ساندر، وإذا ما كان هو خائفاً أكثر من

(1) ـ الملغم: AMALGAM زئبق ممزوج بمعدن آخر أو معادن.

(2) ـ الكينين: QUININE مادة شبيهة بالكينين تعالج بها الملاريا.

(3) ـ الكفت: SAUCEPAN قدر صغيرة ذات مقبض.

(4) ـ القرعوش: A GOURD وعاء من القرع المبيس والمجفف يستعمل لنقل الماء في القرى ـ المترجم ـ

ألك ساندر فإن غروره لـن يسمح لـه بإظهـار الخـوف أمـام زنجـي ويقـول الحقيقة الآن، ولو أن الآنسة هابرشام لم تحثهما لما لمس أي منهما القبر ولما تجرّأ بما يكفي لإزاحة الزهور عنه، قاطعه الخال: «ألم يخبرك ألك سـاندر فيما بعد أن القبر كان منبوشاً على عجل من قبل أحد الأشخاص؟».

أجاب هو: «نعم يا سيدي». فأردف الخال قائلاً:

«هل تعلم بِمَ أفكر الآن؟».

قال هو: «لا يا سيدي».

« .. أنا مسرور لأن ألك ساندر لم يتمكـن مـن اخـتراق الظلمـة والمنـاداة باسم الرجل الذي جاء هابطاً المرتفع حاملاً شيئاً ما على البغل أمامه».

تذكر، كانوا هم الثلاثة يفكرون في ذلك لكن أحداً منهـم لم يصـرخ بـه، إذ وقفوا دون أن يشاهد أحد منهم رفيقه فوق حفـرة قـبر غـير مرئـي فـاحم السواد.

قالت الآنسة هابرشام: «أعيدوا ردم الحفرة». فأهـالوا الـتراب المحفـور (للمرة الخامسة في ذلك الحين)، كانت التربة المخلخلـة تـنزلق إلى الأسـفل بأسرع مما صعدت رغم أنها بدت في ضوء النجـم الشـاحب مشـوبة بصـوت متواتر صادر عن صنوبر لاتهزه الريح كأنه طنينٌ لانهاية له، وذلك ليس بسـبب الدهشة وإنما بسبب الانتباه والمراقبة والفضول الآثـم المسـتقل الـذي لايقبـل التورط ولايفوّت شيئاً. قالت الآنسة هابرشام: «أعيدوا الزهور إلى موضعها».

أجاب هو: «هذا يستغرق وقتاً طويلاً».

كررت الآنسة هابرشام: «أعيدوا الزهور كما كانت». فأعادوها.

قال هو: «سأركب الحصان. أما أنت وألك ساندر فـ ...». ردّت الآنسة هابرشام: «سنذهب جميعاً». سحبوا العدة والحبـل إلى أعلـى (لم يسـتعملوا ضوء المصباح هذه المـرة) قـال ألـك سـاندر: «انتظـروا» ووجـد بـاللمس لـوح الخشب الذي استخدمه بمثابة رفش وحمله إلى أن دفع به تحـت الكنيسـة وفكّ هو عنان هاي بـوي وأمسـك بـه غـير أن الآنسـة هابرشـام قـالت: «لا تركبه. لأننا سنقوده. ألك ساندر يستطيع أن يمشـي ورائـي بـالضبط وأنـت تسير خلف ألك ساندر بالضبط وتقود الحصان».

من جديد قال: «يمكننا أن نسرع» لم يستطيعوا أن يتبيّنوا وجهها بل هيكل الجسد المنتصب، والظلّ، والقبعة التي لا يمكن أن تبدو قبعة على رأس أحد سواها ماعدا القبعة التي بدت في الوضع الصحيح على رأس جدته تحديداً، والتي لا مثيل لها، وصوتها غير المرتفع الذي لا يعلو عن صوت التنفس بكثير، وكأنها لا تحرك شفتيها بتاتاً، دون أن تتحدث إلى أحد، إذ تكتفي بالهمس:

«على حد علمي هذا أفضل تصرف. ليس في ذهني أمر آخر نعمله».

ردّ هو: «قد يتوجب علينا جميعاً السير في الوسط» بصوت عالٍ، عال جداً، أعلى بمرتين مما قصد أو حتى مما ظن، لابد أن يصل إلى مسافة أميال خاصة في فضاء الريف الذي كان سكانه في ذلك الوقت بيأس مستيقظين ونشيطين من جراء صافر مؤرق ربما اعتاده بارالي، وبالتأكيد كانت تنظر إليه في هذا الوقت. أحس هو بذلك.

قالت: «لن أكون مطلقاً قادرة على شرح أي شيء لأمك سوى أن ألك ساندر لم يكن لديه البتة عمل هنا. سيروا خلفي تماماً ودعوا الحصان في المؤخرة». استدارت وتابعت المسير رغم أنه لم يكن يعرف ما هو جدوى هذا التصرف بالنسبة لهم لأن كلمة «كمين» حسب فهمه كانت تعني «من الخاصرة، من الجانب» ونزلوا في رتل أحادي على ذلك الطريق إلى حيث قاد ألك ساندر العربة نحو الحرش، فكر في نفسه *لو كنت مكانه لما وضعتها غير هنا* دار هذا في خلدها، قالت: «انتظر».

قال هو: «كيف تستطيعين الوقوف أمامنا ما لم نبق مع بعضنا؟» هذه المرة لم تقل أن هذا كل ما أستطيع القيام به غير أنها اكتفت بالوقوف هناك بحيث مرَّ ألك ساندر بها وتابع طريقه إلى الحرش وشغّل السيارة وأرجعها إلى الخلف وتركها تتهادى نازلةً التل، المحرك يعمل والأضواء مازالت مطفأة قالت: «لو ربطنا العنان وتركناه يمضي ألا يعود إلى البيت؟».

قال هو: «آمل ذلك». نهض.

قالت: «بعدئذٍ اربطه إلى شجرة. سنعود ونجلبه فور مشاهدتنا خالك والسيد هامبتون».

قال ألك ساندر: «بعد ذلك يمكننا أن نراه جميعاً وهو يجتاز الطريق وأمامه إما جواد أو بغل على حد سواء». أدار المحرك ثم تركه على حالهِ من جديد.

«هيا بنا، اصعدوا. إما أن يكون هنا من يراقبنا وإما ألا يكون، فإذا لم يكن فلا بأس علينا أما إذا كان فقد تأخر في مراقبتنا جداً إلى الآن وسمح لنا بالصعود إلى السيارة».

قالت: «تركب حصانك وتبقى خلف السيارة. لأننا سنسير على مهلنا..».

قال ألك ساندر: «هيا. ابدأ. علينا أن ننتظرك بأي حال عندما نصل إلى البلدة».

على هذا النحو ـ لم يكن في حاجة إلى التحريض انزلق بالحصان هاي بوي على المرتفع، شاداً رأس الحصان إلى الخلف، المصابيح أضاءت والسيارة تحركت وتهادت ولدى وصوله إلى السهل في المنطقة المكشوفة المحدودة نحو الطريق المرتفع الذي حاول الحصان هاي بوي أن يزيد من سرعته، إلا أنّه شدّ الحصان إلى الخلف والأعلى على الطريق الصاعد، أضواء السيارة كانت تدور كالمروحة في كافة الاتجاهات لدى هبوطها المنحدر من ثم خفّف هو من الشد على الشكيمة، وشرع الحصان هاي بوي بالعدو، كالعادة صدر عن شكيمته قعقعة، فكر كسابق عهده، شكيمة إضافية توضع في فم الحصان تدفع بهذا الأخير بما يكفي ليضع أسنانه فيها، استمر في العدو فيما كانت أضواء السيارة تتأرجح في الصعود على الطريق العالي كذلك الأمر، أرخى له العنان إذ أحنى رأسه في الريح المعتمة الشريدة فضربت أقدامه أربع ضربات جوفاء على الجسر، في نفس اللحظة لم تعد أضواء السيارة في مدى البصر طيلة نصف الميل الأول إلى أن خفف سرعته بعد ذلك إلى مشيةٍ طويلة تناسب طريقاً وعرة لمسافة ميل قبل أن تدركه السيارة وتتجاوزه فيما كان الضوء الخلفي الياقوتي يدنو ويقترب ومن ثم يتلاشى لكنّه كان قد تجاوز الصنوبر آنذاك، حيث تحرر من الصفير الهائل المتربص به قريباً غير مبال ودون أن يفقد شيئاً وهو يقول لكلّ ما يحيط به: انظروا. انظروا، لكنهم في ذلك الوقت كانوا قابعين في مكان ما لفترة طويلة يتكلمون ويخبرون جميع سكان «بيت فور» بها من آل جوري

وآل إنجرم وآل ووركيت وآل فريزر وكأنهم جميعاً قد سمعوا بذلك غير أن كلّ هذا لم يشغل باله بتاتاً بل امتنع عن التفكير به الآن، تماماً في نفس الومضة التي تذكره فيها، عندما كان يبتلع آخر لقمة من السلطانية وينزلها فيما كان والده يهم بالنهوض عن الطاولة، محدثاً قرقعة صادرة عن أرجل الكرسي على الأرض في حركة ارتدادية نحو الخلف وهو يقول:

«قد يكون من الأفضل لي الذهاب إلى عملي. لابد أن يبقى هنا من يكسب القوت طالما أن أغلبكم تلعبون لعبةَ عسكر وحرامية»، من ثم خرج وعلى نحو جليّ فعلت القهوة فعلها فيما يسميه هو تقدم التفكير أو ما يدعوه الناس على وجه العموم اطّراد فعاليات التفكير لأنه علم الدافع وراء تصرّف والده ـ إنه الغيظ الذي كان بمثابة الانتعاش بعد الحادثة التي لا بدّ أن تفرض نفسها بطريقة ما فلجأ إلى الغضب لا توبيخاً له على ذهابه وإنما لعدم وجود خيار آخر أمامه، إضافة إلى التشكيك الهازل المزدري الزائف بشجاعته وشجاعة ألك ساندر دون أن يتجاهل القبر المنبوش وتصميم الآنسة هابرشام ـ بل كان في حقيقة الأمر تشهيراً كليّاً بالغ القسوة بالمسألة كلها باختزالها إلى مجرد تعابير عن حكايا مطاردة الساحرات وتعذيبهن في إحدى رياض الأطفال، ربما كان هذا مجرد صيغة ذكورية في رفض الاعتراف بأنه قد بات حسب تسمية الخال يافعاً إلى حد يزرّر فيه أزرار بنطاله بنفسه وعلى هذا النحو تجاهل هو والده، استمع إلى أمه التي كانت على وشك الخروج من المطبخ ودفع كرسيّه إلى الخلف ورفع جسده وراح يفكر على حين غرة كيف كانت القهوة أكثر فعالية بكثير مما كان يتصور، غير أن أحداً لم يحذره بأن القهوة تؤدي إلى الأوهام مثل الكوكائين أو الأفيون. راح يتابع ضجيج وإزباد والده يتصاعدان ويتلاشيان مثل دخان منفوث أو ضباب دون اكتفائهما بكشف الرجل الذي أنجبه بل بعرضه ينظر إلى الخلف نحوه بعين ملؤها الحسد لا الفخر من خلف هاوية الإنجاب التي لا معبر فوقها، وإذا كان عذاب الضمير لدى خاله متكلفا تنكريا من نمط زائف فإن والده كان يقضم عظمة حقيقية مرة الطعم دون أن يعرف شفاء من كل ما فيه من عدم تماش مع الزمن، وذلك لأنه هو نفسه بغض النظر عن ولادته المبكرة أو المتأخرة وهو في السادسة عشرة من عمره

يجري بحصان مسافة عشرة أميال في الظلام لينقذ رقبة زنجي متغطرس لا أصحاب له.

استيقظ أخيراً بعد أن فعلت القهوة فعلها. كان بحاجة لأخذ قسط من النوم غير أن الوقت غير مناسب لأي شيء من هذا القبيل؛ الرغبة في النوم موجودة إلا أنه لابد أن يصارع الأرق في هذا الوقت ويتغلب عليه. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة مرّ باص إحدى مدارس المقاطعة بينما كان هو يستعد لقيادة سيارة الآنسة هابرشام بعيداً عن قارعة الطريق كما امتلأ الشارع بالأطفال البالغي النشاط في صباح الإثنين حاملين كتبهم وصّرات ورقية فيها زوادات يأكلونها وقت الاستراحة ومن وراء باص المدرسة عبر خط من السيارات والشاحنات الملطخة بوحل الريف وغباره متصل غير متقطع بحيث أن خاله وأمه وصلا أثناء ذلك إلى السجن وشاهدهما قبل أن يتمكن من النفاذ خلال حركة المرور لأن يوم الإثنين هو يوم المزاد العلني في الحظائر الواقعة خلف الساحة، كانت السيارات والشاحنات الفارغة في صفوف مزدحمة متوالية بموازاة حاجز السرايا أشبه بخنوّصات في سنتها الأولى فوق المعلف والرجال بعصيّهم المشتراة من تجار الخردوات لا يتوقفون بل يعبرون الساحة ويجتازون الزقاق المؤدي إلى الحظائر كي يعلكوا التبغ ولفائف السيجار غير المولعة، متنقلين من حظيرة إلى آخرى، وسط رائحة السماد والمروخ النشادرية التي تزكم الأنوف، مصحوبة بخوار العجول وآثار حوافر الخيول والبغال وعطساتها والسيارات وعدة المحاريث والبنادق وتجهيزات الخيول والساعات المستعملةً بينما النسوة (وجود قلة منهن يعني أن يوم المزاد على خلاف يوم السبت وقت لحضور الرجال) يبقين عند الساحة والمخازن بحيث تخلو الساحة سوى من السيارات والعربات المتوقفة إلى حين عودة الرجال ليقضوا معهن ساعة في المقاهي والمطاعم وقت الظهيرة.

عندئذٍ انتفض بجسده هذه المرة، لا كردة فعل آنية، من فعل النوم، وإنما تحت تأثير وهم ما، فقد ظل في حالة تنويم مغناطيسي منذ أن كان في البيت وحتى خروجه إلى أشعة شمس النهار المتألقة، لم يتحقق منها قبل ليلة خلت أثناء قيادة السيارة وقد باتت منذ الليلة الماضية جزءاً لا يتجزّأ من ذاكرته وتجربته وتنفسه أشبه بتمزيق رفش على التراب أو صرير نصل

معدني على صندوق من خشب الصنوبر، وسط خواء سرابي لم تمر الليلة الماضية أثناءه ببساطة ولم يمر أي سبت مثله، تذكر هذا وكأنه قد شاهده[1] هذه اللحظة بالتحديد كما لم يشاهد أطفالاً في باص المدرسة وإنما أناساً بالغين فحسب في خضم السيارات والشاحنات التي جاءت في أعقاب الباص وباتت الآن في أعقابه في المكان الذي قطع فيه مسيرها، من المفترض أن يُقلّ بعضها يوم مزاد الإثنين العلني (في يوم السبت نصف الأسرّةِ في الشقق تزدحم وتمتلئ بالرجال والنساء والأطفال القادمين إلى البلدة وهم يرتدون ملابس مبهرجة خفيفة زهيدة الثمن) زنوجاً[2] إلا أنها لم تكن تقلّ أيّ وجه قاتم البشرة.

لم يكن في الشارع أي تلميذ في طريقه إلى المدرسة، رغم أنه سمع دون أن يصغي كالواجب إلى الخال، وهو يتحدث بالهاتف وعرف أن ناظر المدرسة سأل عن افتتاح المدرسة أو اقفالها فردّ الخال بالإيجاب، في الساحة الواقعة ضمن مدى بصره شاهد ثلاثة باصات صفر أُخر، كان من المفترض والمقرر أن تنقل أطفال المنطقة إلى المدرسة يحولها أصحابها المتعاقدون القائمون على تشغيلها إلى وسائط لنقل الركاب بالأجرة أيام الآحاد والعطل، بعدئذٍ شاهد الساحة برمتها، التي من المفترض أن تكون مزدحمة بالسيارات والشاحنات الواقفة، غير أنّ الساحة بحدّ ذاتها كانت خاوية على عروشها: لم يكن فيها عدد كبير من الرجال متجهين إلى الحظائر ولا نساء متجهات إلى المخازن فقاد الشاحنة الصغيرة إلى الإفريز خلف سيارة خاله ورأى المكان واضحاً جليّاً خالياً من اضطراب وازدحام حركة السير، في موجة واحدة مصحوبة بهدير يملأ الساحة يتدفق الحشد من مدينة الملاهي أو ملعب كرة القدم إلى الشارع ويحتشد على الفور في الجهة المقابلة للسجن إلى أن تجتاز طليعته محلّ الحداد حيث وقف البارحة محاولاً التخفي[3] لتترقّب تلك الطليعةُ مرور الموكب (وسط الشارع تقريباً فيضطر سيل السيارات

---

(1) ـ مشهد ساحة البلدة الذي تحدث عنه في المقطع السابق.

(2) ـ مفعول به لـ (يُقِلُّ بعضُها).

(3) ـ يعود لـ (طليعته).

والشاحنات المتواصل دون انقطاعٍ للإنعطاف حولهم وهم مجموعة مؤلفة من اثني عشر شخصاً أو أكثر قليلاً أشبه بعصبة في موقف استجوابي في وسطه قبّعة رئيس التشريفات، في البدلة المميزة بإشارة، وهو عادة في ساعة كهذه من النهار يقف أمام مبنى المدرسة كي يوقف حركة المرور ليعبر الأولاد الشارع ولم يتذكر هو أن اسم رئيس التشريفات كان إنجرم، أحد ابناء عائلة إنجرم في منطقة بيت فور الذين وفدوا إلى المدينة هاربين من بيت فور فتزوجوا من فتيات المدينة وعملوا حلاقين وحراساً ليليين وحجاباً أشبه بالأمراء الجرمانيّين الصغار البؤساء الذين هبطوا من موطنهم في تلال براندبرج ليتزوجوا وريثات العروش الأوروبية) ـ الذي يستعرض الرجال والنساء من دون أي طفل، والوجوه الريفية المتأثرة بعوامل الجو والأعناق وقفا الأيادي التي لوحتها أشعة الشمس، والقمصان البارشة النظيفة بلون الأرض، من غير ربطات العنق والسراويل والفساتين القطنية المزركشة المحتشدة في الساحة والشوارع، وكأن المحلات مغلقة، قبل أن ينظروا إلى واجهة السجن البيضاء والنافذة الشبكية الوحيدة التي ظلت فارغة وهادئة على مدى الثماني وأربعين ساعة الماضية وباتت للتوّ تعجّ بحشد، غير مترقب أو مبال أو منتبه بل لا يعدو عن كونه مجرد تجمع عفوي أشبه بتجمّع يترقب افتتاح الستارة في أحد المسارح:

فكر في نفسه ان القصة وما فيها هي أن: اليوم عطلة، هذا يعني أنه يوم يقلب الأطفال فيه الوضع رأسا على عقب هنا، لاحظ فجأة مدى فداحة خطئه، لم يكن السبت هو اليوم الذي لم يحل، وإنما كان مساء الأمس هو الذي لم يحل عليهم بعد، في خاتمة المطاف لم يعرفوا عن الليلة الماضية شيئاً سوى أن لا أحد، حتى هامبتون، يمكن أن يخبرهم بما حدث لأنهم ما كانوا ليصدقوه، أمام عينه أزيح شيء أشبه بالغلالة الشفافة أو الخمار مثل النشاء الذي يغطي عين الصوص من تلقاء نفسه دون أن يعرف هو بوجوده فشاهدهم للمرة الأولى ـ الوجوه ذاتها الملفوحة الباقيّة في حال عدم انتباه نفسها والقمصان والسراويل والفساتين القطنية البارشة النظيفة نفسها غير أن الحشد هذه المرة ليس حشداً يترقب رفع الستارة في جو إيهام المنصة بل حشداً في صالة السراي ينتظر صياح منادي الشريف انصتوا!

اسمعوا! انتبهوا: هذه المحكمة المبجّلة، غير ملول لأن اللحظة الملائمة لم تحن بعد ليجلس في المحكمة لا في محاكمة لوكاس بو شامب، الذي أدانوه من قبل بل في محاكمة سكان بيت فور، بحيث لا يأتي لمشاهدة ما يدعونه نفاذ العدل أو العقوبة المنفذة إنما ليرى أن على بيت فور ألا تُسقط قناعتها برفعة الإنسان الأبيض.

ما أن توقف حتى وجدَ السيّارة خارج الساحة وقد بدأت بالإسراع عندما سيطر على نفسه: تذكّر بشيء من الفخار وبشيء من العز الليلة الماضية عندما أثار وإلى حدٍ ما قاد بشكل أو آخر رافق عملاً فذاً لم يتمكن أي من الذين أكبر منه سناً في موقع المسؤولية من تثمين قيمته على وجه التحديد، أو حتى الحاجة إليه، تذكّر بشيء من الحذر أيضاً كيف أن الخال قال أيَّ شيء تقريباً يحث الدهماء على التحرك، وهكذا يكفي ولد يركض باتجاه السجن لإثارتهم: بعدئذ استعاد من جديد منظر الوجوه المذهولة المتشابهة إلى حد يثير الفضول من حيث افتقارها إلى التمايز الفردي، وتخليّهاالمطلق عن التمايز الفردي وتحوّلها إلى وجه واحد/نحن/ غير ملول وغير مستعجل، إنّه أشبه بمهرجان في حالة تجاهل مطلق للخطر الكامن فيه، من المستحيل تشتيته على يد مئة طفل راكضين: من ثم تذكر في الومضة نفسها الوجه الآخر للقضيّة: عليه ألا يتوقف أو يغيّر مسيره حتى لو كان عددهم مائة ضعف عما هو عليه، بعد التأكد من عدم جدوى تلك الفكرة قطعياً منذ كانت مجرد وهم ومن ثمّ التأكّد من تجسيدها الواقعي لدى دخولها حيّز التنفيذ تحقّق من جسامة الأمر الذي دس أنفه فيه كيفما اتفق ومن أنّ أول حافز لا إرادي تملّكه ــ في أن يجري إلى البيت ويضع السرج واللجام على الحصان ويمتطيه مثلما يطير الغراب إلى أن يترنح من فرط الإجهاد ومن ثم ينام ويعود بعد أن ينقضي الأمر ـ كان على صواب[1] (وهو الذي لم يتمكن من تفادي ذلك ببساطة لأنه تصادف ألا يكون يتيما الآن) لأنه حسبما تتهيأ الآن كان في موضع المسؤولية عن الإتيان بأمر صاعق وشائن في وضح النهار يسيء إلى تكتل المقاطعة الأبيض بكامله والذي

---

(1) ـ يعود إلى حافز لا إرادي..

كان يتوجب عليه الالتصاق به طالما أنه تفرّغ عنه، وإلا فإن هذا الأمر يكون قد أضاء وتوهج من ناحية أخرى في منطقة بيت فور ومن ثم تلاشى في عتمتها أو على الأقل اختفى أي أثر له مع الجمرات المترمدة من محرقة لوكاس.

ولكن فات الأوان، لم يعد بوسعه التراجع، أو الانسحاب، أو التهرب: كان باب السجن مفتوحاً وفي الجانب الآخر شاهد الآنسة هابرشام جالسة على الكرسي الذي كان ليجيت يشغله، عند قدميها على الأرض صندوق الكرتون وعلى حضنها أحد الأثواب؛ مازالت ترتدي القبعة كما شاهد حركة يدها وكوعها المطّردة وفي اللحظة نفسها لمح بريق واختفاء الإبرة في يدها بالرغم من صعوبة الرؤية من هذا البعد، لكن خاله كان في الطريق، بالتالي كان عليه أن يتحرك لمسافة أبعد على طول الممر من جانب آخر التفت الخال في تلك اللحظة وخرج من الباب وعبر الشرفة من جديد فبات بوسعه مشاهدتها أيضاً على الكرسي الثاني بجانب الآنسة هابرشام؛ انتصبت سيارة خلفه عند الحاجز وتوقفت عندما تناولت هي دونما استعجال جورباً من السلة وأدخلت فيه الخشبة البيضوية الملساء، على الفور أدخلت الخيط في خرم الإبرة مباشرة أمام فستانها فشاهد بريق الإبرة ووميضها وقد يكون مردّ ذلك إلى أنه عرف جيداً، دقة الحركة، وطواعيتها لليد التي كان يراقبها طيلة حياته كما خطر في ذهنه أن أحداً لن يناقشه في الحد الأدنى أن ذلك الجورب القصير له.

جاء صوت الشريف خلفه: «من هناك؟». التفت نحو الخلف. كان الشريف جالساً خلف عجلة القيادة في سيارته، رقبته وكتفاه مائلان ومنحنيان بحيث حدق للأسفل تحت ذروة إطار النافذة. المحرك مازال يعمل وفي مؤخرة السيارة شاهد مقابض الرفشين والمعول الذين لن يحتاجوهم، في المقعد الخلفي شاهد اثنين من الزنوج في ثياب العمل الزرقاء والسراويل الملطخة ببقع سوداء ملوثة بالتراب أشبه بالملابس التي يرتديها عمال ورشات الشوارع، جالسين بهدوء دون حركة تذكر سوى فتح وإطباق بياض العيون.

من خلفه أيضاً قال الخال: «من سيكون؟» غير أنه هذه المرة لم يلتفت ولم يسمع المزيد لأن ثلاثة رجال ظهروا على حين غرة في الشارع ووقفوا

بجانب السيارة وبينما كان هو يراقبهم ظهر خمسة أو ستة غيرهم وبظرف لحظة واحدة بدأ الحشد يتدفق في الشارع؛ في الوقت ذاته فرملت سيارة فجأة (من ثم فرملت السيارة التي كانت في إثرها) بادىء الأمر لكي تتجنب دهسهم ومن ثم كي يطل راكبوها ويرقبوا سيارة الشريف حيث كان أول الواصلين من الحشد قد انحنى للتوّ ليلقي نظرة إلى داخلها، تشبثت يداه الفلاحيتان السمراوان بحافة النافذة المفتوحة، وجهه الأسمر اندس في داخل السيارة بفضول محاولاً الاستطلاع دونما أدنى خجل بينما أصغى أقرانه المحتشدون الذين ارتدوا قبعات لبادية أو قبعات بنما ملطّخة وملوّثة بالعرق.

قال الرجل: «ماذا تنوي يا هوب؟ ألا تعلم بأنّ هيئة المحلفّين ستصل إليك، وأنت تهدر مال المقاطعة بهذه الطريقة؟ ألم تسمع عن قانون الحرق الجديد الذي أصدره اليانكيون[1]؟ ألم تسمع أنّ الذين يحرقون الزنجي من المفترض أن يحفروا القبر؟».

قال رجل آخر: «قد يكون مصطحباً هؤلاء الأولاد لاستعمال هذه الرفوش في خدمة ناب جوري».

قال رجل ثالث: «شيء جميل أن يأخذ هوب عاملين مع الرفوش أيضاً. أما إذا اعتمد على أيّ من آل جوري في حفر الحفر أو في أي عمل آخر فقد يتعب وتغدو الحاجة إليهما أكيدة».

قال رجل رابع: «قد لا تكون الغاية من إحضارهم استعمال الرفوش. من المحتمل أن يجري إلى جوري تجربة الإحراق عليهم». لم يضحكوا رغم أن أحد الأشخاص انفجر مقهقهاً، في هذه الأثناء تجمع ما يزيد على اثني عشر شخصاً حول السيارة لإلقاء نظرة خاطفة شاملة على جزئها الخلفي حيث كان الزنجيان جالسين بلاحراك مثل خشب مقطوع وقد نظرا مباشرة إلى الأمام إلى شيء غير محدد دون حركة تذكر سوى التنفس واتساع لامتناه وانغلاق في بياض العيون حول المقل، من ثم نظروا من جديد إلى الشريف بالتعبير نفسه الذي شاهده على الوجوه التي تترقب خلف الزجاج توقّفَ جهاز التسجيل السريع الحركة الذي يعمل بإدخال النقود في شق ضيق فيه.

---

(1) - YANKEES: أحد أبناء الشمال الأمريكي.

قال الشريف: «سيعني ذلك بالفرض على ما أعتقد».

طوّح برأسه وبإحدى ذراعيه الضخمتين من النافذة وبالذراع دفع أقرب الموجودين إلى الخلف بعيداً عن السيارة دونما أدنى جهد كأنه يزيح ستارة، ونادى بصوت مرتفع قليلاً: «ويلي». جاء رئيس مخفر البلدة؛ سمعه يقول آنذاك: «افتحوا طريقاً يا أولاد. دعوني أرى على أيّ أمر عقد الشريف عزمه هذا الصباح».

قال الشريف: «لماذا لا تبعدون هذه الجموع خارج الطريق بحيث يتسنى لهذه السيارات أن تدخل البلدة؟ ربما يريدون الوقوف حول السجن من أجل الاستطلاع كذلك الأمر».

قال رئيس مخفر البلدة: «إنكم تقامرون».

التفت وحرك يده مشيراً للمقتربين دون أن يلمسهم، كأنه يسوق قطيعاً من الغنم.

أردف قائلاً: «هيا يا أولاد».

لم يتحركوا، وقد تجاوزت نظراتهم رئيس المخفر وتركزت على الشريف، دونما تحدٍّ، لأنهم لم يكونوا يجرؤون على ذلك فعلياً كانوا مهادنين فحسب أو بالأحرى لطيفين ووديعين.

جاء صوت: «لماذا أيها الشريف»، تلاه آخر: «إنه شارع عام، أليس كذلك أيها الشريف؟ أنتم سكان البلدة لا يهمكم وقوفنا فيه لوقت طويل طالما أننا ننفق مالنا لديكم أليس كذلك؟».

ردّ الشريف: «لكن ليس إلى حد أن تتكتّلوا وتمنعوا الآخرين من محاولة دخول البلدة كي ينفقوا قليلاً من المال. تحركوا الآن. اطردهم من الشارع ياويلي».

قال رئيس مخفر البلدة: «هيا يا جماعة. هناك أناس غيركم يريدون الصعود حيث يغدو بإمكانهم مراقبة قطع القرميد تلك». بعد ذلك تحرّكوا، دونما إسراع، يقودهم رئيس المخفر كالقطيع معيداً إياهم إلى الخلف عبر الشارع مثل امرأة تقود رفّاً من الدواجن عبر القن، غايتها الحفاظ على الاتجاه بغض النظر عن السرعة وعن عدم ضرورة زيادتها، فيما الدجاجات

تتحرك غير حرونة إلى الأمام بعد تلويح السيدة بمريولها، غير خائفة منها أو متحسبة للخطر، تحركت السيارة المتوقفة كما تحركت السيارات التي كانت خلفها أيضاً، ببطء، ساحبة بتؤدة شديدة حمولتها من الوجوه المشرئبة؛ سمع رئيس المخفر يصيح على السائقين: «هيا، هيا، توجد سيارات خلفكم؟».

نظر الشريف من جديد إلى خاله وقال: «أين الآخر؟».

أجاب الخال: «عمن تتحدث؟!».

«عن التحري الآخر. الذي يستطيع الإبصار في الظلام».

قال الخال: «تقصد ألك ساندر. أتريده هو الاخر؟».

أجاب الشريف: «لا. أنا أتفقده فحسب. أنا مندهش تماماً لوجود شخص في هذه المنطقة له من التجربة والحكمة ما يكفي لجعله يلزم البيت هذا اليوم. هل أنت مستعد؟ لنبدأ إذن».

قال الخال: «تماماً». كان الشريف يتمتع بسمعة سيئة كسائق يعطب سيارة كل عام مثل كنّاس أخرق يعطب المكانس: ذلك ليس بسبب السرعة وإنما بمجرد الإحتكاك؛ بالفعل انطلقت السيارة من جانب الإفريز تقريباً وقبل أن يلمحها هو؛ كانت قد مضت. مضى خاله إلى سيارتهم وفتح الباب.

قال الخال: «اقفز إليها».

بعدئذ قال ما عنده؛ بالأحرى كان هذا أمراً في غاية البساطة «لن أذهب».

يتوقف الخال وبات يشاهد وجهاً ساخراً ينظر إليه، أشبه بعيون غريبة لم تضيّع مزيداً من الوقت المحدد لها؛ كانت في الحقيقة كما عرفها لم تفوّت شيئاً حتى ليلة أمس.

قال الخال: «آه. الآنسة هابرشام امرأة بالطبع لكن هذه الأنثى الأخرى تخصك».

أجاب هو دون أن يتحرك وقد حرك شفتيه بعد جهد جهيد: «انظر إليهم في الشارع. في الساحة أيضاً لا أحد هناك ولا من يحزنون سوى ويلي انجرم وتلك القبعة اللعينة».

قال الخال: «ألم تسمعهم وهم يتحدثون إلى هامبتون؟».

قال هو: «سمعتهم. لم يكونوا يضحكون من نكاتهم هم تحديداً بل كانوا يهزؤون منه».

قال الخال: «لم يوبخوه بطريقة ساخرة. لم يهزؤا منه.

كانوا يراقبونه فحسب. يراقبونه ويراقبون منطقة بيت فور ليروا ما سيحدث. أولئك الناس جاؤوا إلى البلدة فقط ليشاهدوا ما سيفعل أي منهم أو كلهم معاً».

قال هو: «لا. الأمر أخطر من ذلك».

قال الخال بوقار تام أيضاً هذه المرة: «لابأس لنفرض ذلك جدلاً. ماذا بعد؟»

«افترض» لكن الخال قاطعه: «لنفترض أن سكان منطقة بيت فور جاؤوا أو أزاحوا كرسيّ أمك وكرسيّ الآنسة هابرشام وحملوهما إلى الفناء الخارجي بحيث تغدوان خارج الطريق؟ لوكاس ليس في الزنزانة. إنه في منزل السيد هامبتون، ومن المحتمل أنه يتناول فطوره في المطبخ هذه اللحظة. ماذا كنت تظن أن يفعل ويل ليجيت طوال خمس عشرة دقيقة عند الباب الخلفي عندما ذهبنا إلى هناك وأخبرنا هامبتون؟ حتى ألك ساندر سمعه يتحدث بالهاتف».

قال هو: «لماذا إذن السيد هامبتون في هذه العجلة من أمره؟»، جاء صوت الخال بالغ الرزانة هذه المرة: بالغ الرزانة والهدوء ليس إلا:

«لأن أفضل حل هو امتناعنا عن الافتراضات ونفيها والذهاب إلى هناك لكي نقوم بما يتوجب علينا القيام به والعودة إلى هنا. اركب في السيارة».

الفصل السابع

لم يشاهدوا سيارة الشريف مرة أخرى قبل أن يصلوا إلى الكنيسة. بالنسبة له لم يكن النوم سبباً سيما وأنه توقع ذلك بالرغم من القهوة وحصل ما توقع. حتى لحظة اقترابه من دولاب الشاحنة لمشاهدة الساحة ومن ثم حشد الناس المتجمهرين على الطرف المقابل من الشارع أمام السجن كان قد توقع ذلك على الفور حيث كان هو وخاله في طريق العودة إلى الكنيسة، قرر ألا يصارع النوم مرة أخرى بقهوة أو دون قهوة بل أن يستسلم ويذعن بحيث يستعيد في الطريق المفروش بالحصى البالغ طوله تسعة أميال والطريق الترابي الصاعد الموحل الذي يبلغ طوله ميلاً واحداً نصف ساعة نوم من الساعات الثمانية التي فاتته ليلة البارحة إضافة إلى ـ تهيّأ الآن ـ المرات الثلاث أو الأربع التي حاول فيها الإقلاع عن التفكير بلوكاس بوشامب قبل ليلة خلت.

لدى وصولهم إلى البلدة قبل الساعة الثالثة هذا الصباح بوقتٍ قصير لم يستطع أحد إقناعه أنه بحلول هذا الوقت، الساعة التاسعة تقريباً، يكون قد فوّت على الأقل خمس ساعات ونصف أو ست ساعات بالأحرى من النوم.

تذكر كيف أنه ـ دونما أدنى شك الآنسة هابرشام وألك ساندر أيضاً ـ صدّق هذا عندما دخلوا مع الخال منزل الشريف وهذا كل مافي الأمر،

دخلوا من الباب الرئيسي ورموا في كفّ الشريف المقتدرة مثلما تلقي[1] قبعّتك على طاولة الصالون أثناء عبورك المكان، كوابيس الليلة الفائتة بأكملها من الشك والحيرة والأرق والإرهاق والإجهاد والصدمة والارتباك وبعض الخوف (باعترافه نفسه). غير أن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث وعرف الآن أنه لم يتوقع حدوثه في الواقع، وهذه فكرة ما كانت أبداً لتدخل رؤوسهم لو لم يكونوا منهكين، لم ينفقوا كثيراً من الأرق والإجهاد والتعب قدر إرهاقهم من الصدمة والدهشة والخمول؛ لم يكن بحاجة للوجوه المحتشدة التي كانت تراقب واجهة السجن القرميدية المصمتة ولا لأولئك الذين كانوا يعبرون الشارع ويغلقوه في آن معاً وهم يتجمعون حول سيادة الشريف، كي يتفحصوا ويتفقدوا ما بداخلها بتلك النظرة المنسجمة المشتركة الشاملة دونما خجل أو ثقة دونما إنكار أشبه باهتمام أب منشغل يتوقف برهة لتفقّد ولد محبوب وإظهار الاهتمام له رغم عقوقه. وإذا ما احتاج أيّ شيء فهو بالتأكيد لديه ـ لم تكن الوجوه والأصوات هازئة أو خائبة على وجه التحديد: بل كانت مشرقة هازئة خالية من الشفقة ـ ماثل تحت أول استرخاء للغفوة مثل دبوس في الفراش إذ كان على نفس القدر من اليقظة الذي كان خاله فيه علماً أن هذا الأخير نام طيلة الليل أو على الأقل معظمه، بعد أن قطعوا المدينة وانطلقوا بسرعة، في الميل الأول اجتازوا آخر السيارات والشاحنات ومن ثم لم يتجاوزا المزيد منها لأن كل الذين أتوا إلى البلدة اليوم وصلوا الآن إلى ذلك الميل الأخير المنحدر المعبّد ـ سكان المنطقة برمتهم استفادوا من الطرقات المقبولة والجيدة بكل ما في الكلمة من معنى وهي طرقات تخصهم قامت على أكتاف ضرائبهم وانتخاباتهم واقتراعات بني قومهم وأقاربهم القادرين على الضغط على أعضاء الكونغرس الذين في أيديهم تخصيص الاعتمادات اللازمة لإنشائها، كي يصلوا إلى البلدة التي صارت موطنهم في النهاية وبسبب معاناتهم ودعمهم باتت فيها سجن ودار حكومة فيها، ويحشدوا ويملأوا ويغلقوا شوارعها أيضاً إذا ما رأوا ذلك مناسباً: هي عملية استدراج حثيثة لا هوادة فيها ولا سبيل إلى تسريعها أو

(1) ـ من الملاحظ أن المؤلف في مواضع عديدة يخاطب القارئ بلسان بطل الرواية.

تدقيقها أو إنكارها أو إلغائها طالما أن بينهم القاتل والقتيل، والظالم والمظلوم والأبيض العاطل عن العمل وفي يدهم الحق ليس في تنفيذ العدل فحسب وإنما في الإقدام على الإنتقام أو الامتناع عنه.

كانوا منطلقين بسرعة، أقصى سرعة توصل إليها الخال في قيادة السيارة حسبما يتذكر، على الطريق الطويل حيث امتطى ليلة البارحة الحصان لكن في وضح النهار هذه المرة، في صباح أيّاري لطيف يفوق الوصف، شاهد هذه المرة أشجار القرانيا بارزة على خط السياج الذي يحدد خط مسح الأراضي منتصبات كراهبات بثياب النسك في مكان العبادة كما شاهد مجموعات من أشجار التفاح الخضراء إضافة إلى لون الدراق والإجاص الوردي الأحمر عدا عن القرنفلي المبيض لون أول أشجار التفاح في البساتين والتي كان البارحة قد شمها فحسب: بدت على الدوام خلفها وحولها الأرض الراسخة ـ وقد قسّمت الحقول فيها هندسياً بواسطة الأخاديد حيث تزرع الذرة مع شروع أوائل الحمائم بالقدوم أواخر آذار وأثناء نيسان، أو حيث يزرع القطن عندما تشدو طيور السيد الأمريكي في الليالي بحلول أوائل شهر أيار قبل أسبوع من الآن: غير أنها[1] كانت خاوية، خالية من أية حركة أو حياة ـ بيوت المزارع لم يخرج منها دخان لأن الفطور انتهى قبل زمن طويل من الآن وليس من غداء يُعدّ لأنه ليس في البيت من يأكله، في صباحات الإثنين تمتلىء الساحات المغبرّة الخاليةمن العشب والشجر الواقعة أمام أكواخ الزنوج غير المطلية بأولاد شبه عراة يزحفون ويخربشون وراء دواليب جرار محطم أو اطارات آلة منسقة وعلب سعوط فارغة وصفائح التنك أما في الساحات الواقعة خلف البيوت فتقرقر القدور المعدنية المشحورة بالدخان فوق نيران الخشب إلى جانب سياجات مساكب الخضار المتعرجة وأماكن مرور الدواجن والتي تتزين عند حلول المساء بسراويل ومراويل ومناشف وطقوم موضوعة كيفما اتفق: لكن ليس هذا الصباح، ليس الآن، كانت الدواليب والعجلات الضخمة الكعكيّة الشكل المهترىء مطاطها والصفائح والزجاجات ملقاة جميعها ومهملة في الغبار منذ تلك اللحظة من

(1) ـ يقصد الحقول.

بعد ظهر يوم الأحد عندما انطلق صوت صارخ من داخل البيت، في الفسحات الواقعة خلف البيوت كانت القدور متروكة فارغة باردة وسط رماد الإثنين الماضي وبين حبال الغسيل الفارغة ومن اندفاع السيارة باتجاه الأبواب الشاغرة البيضاء اللون التقط هو توهجاً خابياً من نار الموقد ولم يشاهد المزيد بل أحس في النهاية باستدارة العيون البيضاء وسط الظلال، علاوة على ذلك، امتلأت الحقول الفارغة بحد ذاتها برمتها في هذا اليوم وهذه الساعة يوم الإثنين الثاني من شهر أيّار بفزاعات طيور مثبتة بتكرار رتيب ـ إنّ المجموعة الرسمية ذات الأهمية الطقوسيّة شبه الصوفية المتطابقة والمتكرِّرة كصلة وصل مشتركة تاريخياً تربط عاصمة المنطقة بأقصى أصقاعها خير ربط: هي الإنسان والمحراث والدابة الذين يندغمون على أساس واحد في موجة جامدة لسكّة محراثهم ضخمة بالجهد لا تقدم فيها، راسخة إلى حد ملموس لاحراك فيها مثل مجموعات من الإرتفاعات المتداخلة على صفحة الأرض ـ على حين غرة (باتوا على بعد ثماني أميال من البلدة؛ في المدى لاحت التلال المرتفعة المكسوّة بلون أخضر مزرق) قال بذهول غير مصدق وشبه مصعوق لأنه لم يشاهد أحداً باستثناء بارالي وألك ساندر طوال ثمان وأربعين ساعةً: «هناك زنجي».

أجاب الخال: «نعم. اليوم هو التاسع من شهر أيار. شرع سكان هذه المنطقة في زراعة نصف أراضيهم البالغة مساحتها مائة واثنين وأربعين أكراً. لابد أن يبقى في البيت من يعمل»، ـ اندفعت السيارة مكرهة نحو الأمام بحيث تبادل النظرات مع الزنجي الواقف خلف محراثه عبر نهاية الحقل ومسافة الخمسين ياردة الفاصلة بينهما والتقت عيونهما قبل أن ينظر الزنجي بعيداً ـ كان وجهه أسود تلألأت حبات العرق فوقه من فرط الإجهاد، بالغ التوتر والقلق، مع اقتراب السيارة منه أخرج هو جسمه على الفور واستند إلى النافذة المفتوحة كي ينظر إلى الخلف ومن ثم استدار في المقعد ليشاهد المنظر خلفه عبر النافذة الخلفية، كان الرجل مستمراً في مراقبتهم وهم يبتعدون سريعاً وتختفي معالمهم ـ رجل وبغل يضمهما محراثٌ خشبيّ متضامنان هائجان ثابتان في المكان دون تقدم في الأرض، متكئان بشكل استثنائي على لا شيء.

أوشكوا على الوصول؛ أشرفوا الآن على التّلال ـ بان أولّ المرتفع الطويل المكسو بالصنوبر الرابض في منتصف الأفق وقد خبّأ خلفه شعوراً غامضاً وإحساساً بوجود تلال أخرى لا تبدو كتلتها من الضخامة بمكان بحيث تنبثق منتصبة على حين غرة من النجد كي تتدلى وهي معلقة به أشبه بمرتفعات اسكتلندا التي حسبما أخبره الخال لا تختلف عنها سوى من حيث الإنحدار واللون؛ وذلك قبل عامين أو ربما ثلاثة أعوام عندما قال الخال: «لهذا السبب الناس يفضلون العيش فوقها على بقع صغيرة من الأرض لا يدرّ الأكر الواحد منها سوى ثماني بوشلات[1] من الذرة أو خمسين رطلاً إنكليزياً[2] من نسول القطن هذا إذا لم تكن منحدرة بحيث يصعب على البغل جرّ المحراث فيها (غير أنهم على ما يبدو لا يرغبون بإنتاج القطن بأي حال من الأحوال، ولا ينتجون سوى الذرة بكميات ضئيلة لأنهم لا يحتاجون مزيداً من الذرة لتشغيل جهاز تقطير يستنفذ وقت شخص مع أسرته) أقوام يسمّون آل جوري وآل مالكوم وآل فريزر فآل إنجرم كان اسمهم انجراهام وآلووركيت كانوا أوركهات الإسم الذي لم يتمكن من نطقه بشكل صحيح حتى الذي أتى به إلى أمريكا ومن ثم إلى منطقة الميسيسبي، هم أناس يحبّون الشجار ويخافون ا لله ويؤمنون بعذاب النار» بدا كأنّ الخال قرأ أفكاره، في الميل الأخير من الطريق المكسو بالحصى أبقى إبرة عداد السيارة على الرقم خمسة وخمسين (من ثم أخذ الطريق بالانحدار باتجاه السفح المكسو بالصفصاف والسرو عند المجرى المائي الفرعي البالغ طوله تسعة أميال) متحدثاً، من تلقاء نفسه للمرة الأولى منذ أن غادروا البلدة:

«لدينا آل جوري وآل فريزر وآل ووركيت وآل إنجرم. أما في الوديان بموازاة الأنهار حيث الأرض المنبسطة والسهلة الخصبة التي يستطيع المرء أن ينتج منها ما يمكن بيعه في وضح النهار على الملأ، فيوجد أناس بأسماء ليتلجون وجرين ليف وأرمستيد ويلنجهام وبوكرايت» صمت برهة، انزلقت

---

(1) - BUSHELS مكيال للحبوب يساوي 8 غالونات أو نحو 32 ليتراً ونصف الليتر.

(2) - POUND رطل انكليزي (حوالي 453 غراماً).

السيارة نازلة المنحدر، ازدادت سرعتها بفعل الوزن فقط، فشاهد في هذه الأثناء الجسر الذي انتظره ألك ساندر فوقه في الظلام وشم الحصان هاي بوي الوعث في مكان ما تحته.

قا ل هو: «ننعطف عن الطريق الرئيسي بعده».

أجاب الخال: «أعرف ذلك. أما الذين يُسمّون بالسامبو فيعيشون في كلا المنطقتين، لقد اختاروا المنطقتين معاً لأن بإمكانهم الصمود في الموقعين معاً وفي مقدورهم تحمل أي شيء». بات الجسر قريباً جداً، انفتح درابزون مدخله الأبيض وبدا مندفعاً نحوهم: «لا يمكن لكل البيض تحمل الرق ومن الواضح أن أي إنسان لا يستطيع تحمّل الحرية (هي بمحض الصدفة ــ المقدمة المنطقية تقول إن الإنسان يريد السلام والحرية فعلاً ــ مشكلة علاقاتنا مع أوروبا في الوقت الحاضر، هناك لا يعرف السكان في النهاية ما هو السلام ـ باستثناء الأنجلو ساكسونيين ـ بل يخافون الحرية الشخصية ولا يأمنون جانبها بشكل فعلي، إننا نأمل دونما رجاء بأن قنبلتنا الذرية لا تكفي للدفاع عن فكرة أكل الدهر عليها وشرب شبيهة بفكرة سفينة نوح)؛ إذ يرهن حريته عن طريق إجماع فوري بالاشتراك مع الآخرين في يد أول ديماغوجي يظهر على الساحة: ويغفل أنه بنفسه يدمّرها ويطمسها في بصره وبصيرته وحتى من ذاكرته في معمعة إجماع جيرانه الحماسي وهم يطفئون حريقاً شبّ في العشب. لكن أولئك السامبو واصلوا العيش في المنطقة الأولى ومن يدري؟ قد يتحملون الثانية ـ من يدري؟».

بعد ذلك لاح في الرمل وميض وفي الماء تلألؤ وبريق؛ أصدر سياج الجسر الأبيض هديراً وصخباً وقعقعة من الألواح الخشبية المستعرضة وهم يعبرون. *لابد أن يخفّف من سرعته الآن*، خطر في ذهنه، إلا أن الخال لم يفعل، بل اكتفى بالفصل بين محرك السيارة وعجلاتها، فاندفعت السيارة أماماً بقوة دفعها الذاتية التي حملتها في حركة انزلاق جانبي بطيئة نحو الطريق الموحل ومن ثم ترجرجت في الأرض الرطبة اللينة الواقعة بين آثار الدواليب مسافة خمسين ياردة وصولاً إلى أول انحدار خفيف نحو الأمام في نهاية الأرض المنبسطة، استمرت السيارة ماضية بقوة دفعها الذاتية في سرعة كبيرة إلى أن شاهد بعد ذلك من أعلى المنحدر الدروب التي قاد ألك ساندر

البيكآب عليها بين الأحراش بعيداً عن الطّريق حيث وقف على أهبة الإستعداد بوضع يده على منخريّ الحصان هاي بوي بينما كان الحصان أو البغل، كائناً من كان، يهبط التل وفوق ظهره حمولة أمام الراكب فوقه والذي فشل ألك ساندر، ذو العينين الشبيهين بعيون البومة أو عيون المنك[1] أو أي حيوان آخر يصطاد فرائسه في الليل في اكتشافه (لم يتذكر من جديد خاله على الطاولة فحسب وإنما تذكر كيف وقف بنفسه في فناء الدار ليلةٍ أمس فور ابتعاد ألك ساندر وقبل إدراكه الآنسة هابرشام إذ صدق فعلا تنطعه وحيداً للأمر برمته وكيف قال في نفسه في تلك اللحظة مثلما قال في نفسه عندما كان على الطاولة: *لن أفكر في هذا الأمر*)؛ في ذلك المكان تقريباً، حيث كان ماتبقّى من المسافة الفاصلة في حقيقة الأمر لا يمكن قياسه بالأميال.

رغم مضيّ قليل من المسافة في التقدم البطيء، هدرت السيارة على غيار السرعة الثاني حيال الإندفاع اللاّحركي لسفح التل الرئيسي والتدفق الصّمغي المتواصل للصنوبر وبدت أشجار القرانيا كأنها راهبات في الممرات الخضر الطويلة، صعوداً إلى حتى الذروة الأخيرة حيث النجد وعلى الفور بدا أنه أشرف على كامل تراب بلاده، وطنه ـ المتمثل في الوحل، الأرض التي كوّنت عظامه وعظام أجداده على مدى ستة أجيال ومازالت تكّون شكله لا كإنسان فحسب وإنما كإنسان ذي مميّزات خاصة، لا من حيث عواطف ومطامح ومعتقدات الفرد فحسب وإنما كعواطف وقناعات وطرق تفكير سلالة خاصة أو عرق معين: علاوة على ذلك: كإنسان متفرد متميّز بين أفراد قوم أو عرق (حسب فلسفة معظم، وبالتأكيد جميع أولئك الذين اندفعوا إلى البلدة هذا الصباح ليقفوا في عرض الشارع المؤدي إلى السجن ويحتشدوا حول سيارة الشريف، هو جدّ متفرد).

طالما أن تلك الأرض زوّدته بدافع مجهول حثّه على التوقف والإصغاء إلى زنجي صفيق لعين عالي الأنف حتى لو أنه لم يكن قاتلاً فهو على وشك نيل، إن لم يكن النهاية التي يستحقها، فعلى الأقل الغاية التي أمضى

(1) ـ المنك MINK: حيوان ثدي لاحم.

سنوات عمره الستين الغريبة في البحث عنها على وجه التحديد ـ وانبسط أمامه كخريطة في انفجار بطيء مكتوم الصوت، باتجاه السلسلة الجبلية الشرقية تلال تتعرّج نحو ألاباما ونحو الغرب والجنوب وحقول شبيهة برقع الشطرنج وغابات تمتد نحو الأفق الضّبابي الأزرق الذي لاح خلفه في الأفق البعيد جسم السد أشبه بغيمة إضافة إلى النهر العظيم المنساب ليس من الشمال بل من خارج أراضي البلاد بدءاً بالحدود الشمالية التي يرسمها قلب[1] أمريكا الذي يضم الثرى الذي كان وطناً له إلى الأصل بعد أن أخفق قبل ثلاثة أجيال بالانسلاخ عنه دموياً، أدار رأسه فشاهد بقعة واهية من الدخان وهي بلدة على بعد عشرة أميال كما شاهد بالعين المجردة أمامه سفح الأراضي المنحدرة الخصبة الطويل المزدان بنقاط علام أرضية في وسط الأراضي الشاسعة، والمزروعات (إحدى هذه الأراضي كانت لإدموندز وفيها ولد كلّ من إدموندز الحال ولوكاس، من نسل الجد نفسه) بمحاذاة النهر الصغير المار فيها (رغم أن القوارب البخارية أبحرت فيه حسبما يتذكر جدّه) وخطّ مجرى غابة النهر الكثيفة بحد ذاته: بعيداً ينتشر إلى الشمال والشرق والغرب لا إلى حيث تبرز رؤوس الخلجان واحداً تلو الآخر على رقعة قفراء مترامية الأطراف من مياه المحيطين والحدود الكندية الطويلة فحسب وإنما إلى أقصى حافة الأرض بحد ذاتها، المتمثلة بالشمال، الشمال لا شمالاً، الأرض الأجنبية وخط الحدود لا كمجرد موقع جغرافي وإنما كفكرة محسوسة، رضع الوضع الناشيء عنها مع حليب أمه لكي يكون أزليّاً وثابتاً لامن أجل الإنذار بالخوف مطلقاً وليس من أجل الكره بأي حال من الأحوال في الواقع بل على وجه الخصوص ـ ببعض الحذر أحياناً وبلسان وقح أحياناً أخرى ـ في سبيل التحدي: وهو الذي جلب منذ نعومة أظافره معه صورة الطفولة التي لم تجد سبباً أو وسيلة للتغيير على عتبة الرجولة إضافة إلى أنه لم يجد مبرراً لذاته يجعله يصدق بإمكانية تغيّرها في كهولته كذلك الأمر: جدار متعرج شبه دائري قليل الارتفاع (يمكن أن يتسلّقه أيّ امرىء يرغب في ذلك؛ ظن هو أن بوسع أي ولد أن يتسلقه)

(1) ـ فاعل مؤخر للفعل انبسط.

تشعر هناك في أعلى قمته أن لا حيّز للفضول إزاء المنظر الكلّي الشامل لأرضهم الخصبة المزدحمة غير المفهومة بتاتا والمدن غير الملوثة والمدن الصغيرة غير المحروقة والمزارع غير الخربة المحمية والفتيّة، هناك راحت صفوف لا عد لها في إثر صفوف من وجوه تقلّب النظر فيه وبما يخصه وهي تشبه وجهه ويتكلّم أصحابها اللغة التي يتكلّمها وفي بعض الأوقات يجيبون على نداء بأسماء شبيهة بالاسم الّذي يحمله على الرغم من عدم وجود أية صلة بينهم وبينه هو واسمه ومن عدم إمكانية أي تواصل طالما أن نفس الكلمات التي يستعملونها لن يكون لها المدلول ذاته وبذلك ينتهي الأمر على الفور لأنهم سيكونون من التباعد كل عن الآخر بمكان بحيث لا تغدو هناك إمكانية للاستماع: في النهاية تبقى وجوه متجمعة لا حصر لها تنظر إليه وإلى وجهه في حيرة متلاشية وغيظ وغضب وأقصى فضول ممكن، وسذاجة: قابلية وتوق يائسان مستلبان تقريباً لتصديق أي أمر عن الجنوب لاسيّما إذا كان بالغ العجب والغرابة: إذ ذاك تحدّث الخال مرة أخرى لحظة كاملة معه ومن جديد دونما دهشة رأى تفكيره غير منقطع وإنما يبادل قمة بأخرى:

«ذلك لأننا وحدنا في الولايات المتحدة (لا أتحدث الآن عن السّامبو تحديداً، لأني سأتناولهم بعد هنيهة) شعب مشترك وأعني الأثنيّة الواحدة من أي مواصفات. فالشعب النيو انجلاندي فيما مضى استقر طبعاً في البلاد بعد الهجرة من الساحل الأوروبي وطّوقه هذا البلد بإحكام وشدة كتطويق الشرطة بمصنع ومسبك وبشيكات المصارف المحلية وجعله مستأصل الجذور في مدن سريعة الزوال، فلم يبق لهذا الشّعب كما لم يبق لأبناء سويسرا الذين لا يعدّون شعباً بحد ذاتهم سوى العمل الدقيق المنظم البسيط النزيه. على هذا النحو نحن لانقاوم ما يسميّه الأجنبيّ (وما نسميه نحن) تقدماً وتنويراً. نحنُ لا ندافع في الواقع عن سياساتنا ومعتقداتنا ولا حتى عن أسلوب حياتنا، إنما ندافع ببساطة عن إنتمائنا إلى أصل عرقي واحد في وجه الحكومة الفيدرالية التي سلّم هذا البلد طوعياً لها بيأس غالبيته شيئاً فشيئاً حريته الخاصة والشخصية من أجل الاستمرار في ترسيخ الولايات المتحدة. سنواصل الدفاع عنها بالطبع. نحن (وأعني كلنا قاطبة: سكان

بيت فور لـن يغمض لهـم جفن في الليـل إلى أن يصفّـى لوكـاس بوشـامب جسدياً «أو أيّ شـخص آخـر» لونـه كلـون الحـبر مقـابل فنسـون جـوري، وسكان بيت ون، وتو، وثري، وفايف، يريدون مشـاهدة سـكان بيـت فـور وهم ينفذون الإعدام انطلاقاً من المبدأ غير المتشدد) لا نعرف أهمية المسـألة. ولسنا بحاجة للمعرفة. قلة منّا فحسـب تعلـم أن الإنتمـاء العرقـي المشـترك فحسب يعود لشعب ما أو على شعب ما أي أمر ذي قيمة مستمرة أو أزليـة ـ كالأدب، والفن، والعلـم، والحـد الأدنـى مـن سـلطة الحكومـة والشـرطة كمعنى للتحرر والحرية، أهم من ذلك كله الشخصية الوطنية الجديرة بكـل شيء أثناء المحنة ـ تلك الأزمة لابد أن نواجهـها ذات يوم عندمـا نقـف في وجه عدو يوازينا عُدَّةً وعدداً ـ من يدري؟ ـ من يستطيع أن يفـاخر بـالذات قدر تباهينا واعتزازنا».

«ذاك سبب وجوب مقاومتنا للشمال، لا كي نحافظ على ذاتنـا فحسـب ولا كي يبقى لكلينا قومية واحدة لأن ذاك حصيلة جانبية لامناصّ منها لمـا سوف نبقي عليه: هو الشيء نفسه الذي خسـرنا حربـاً داميـة قبـل ثلاثـة أجيـال ماضيـة في سـاحاتنا الخلفيـة مـن أجـل الحفـاظ عليــه: ألا وهـو الافتراض بأن السّامبو[1] كائن بشري يسـكن في بلـد حـرّ وبنـاء علـى ذلـك يجب أن يكون حراً. هذا في الواقع ما ندافع عنه، إنه امتياز منـحِ الحريـة للسامبو على يدنا، وهـو مـا يتوجـب علينـا القيـام بـه لأن أحـداً غيرنـا لا يستطيع أن يفعـل ذلـك فمنـذ قـرن تقريبـاً مـن الآن حـاول سـكان الشـمال واعترفوا بفشلهم في تحقيق هذه الخطوة بعد خمسة وسبعين عاماً. على هـذا النحو لا بد من قيامنا بالمحاولة. في الوقت الحاضر لم يعـد شـيء مـن هـذا القبيل يشكل تهديداً البتة. ولن يشـكل تهديـداً الآن. كمـا أنـه لـن يشـكل تهديداً فيما بعد. حتى الآن ظهر تهديده يوم السبت الماضي وربما يهدد من جديد، لمرة، أو مرتين أخريـين. ولا أكـثر بعـد ذلـك، إذ ينتهـي، ويبقـى العيب موجوداً بالطبع. من جانب آخر تسـتمر بعـد ذلـك سلسـلة أحـداث خلود الإنسان في العذاب الذي تحمله ومسعاه نحو النجوم بواسطة حجـارة

---

(1) ـ السامبو: SAMBO مولد أحد أبويه زنجي والآخر خلاسي أو هندي أحمر.

كفّارته المسرعة. فيغدو باستطاعة لوكاس بوشامب إطلاق النار على أحد البيض في ظهره متمتعاً بالحصانة نفسها التي يتمتع الأبيض بها ضد حبل السحل أو الإحراق، والاقتراع في نفس الزمان والمكان اللذين يقترع الأبيض فيهما ويرسل أولاده إلى ذات المدرسة التي يذهب إليها أولاد البيض ويسافر إلى أي مكان يسافر إليه الأبيض بنفس الطريقة. غير أن هذا لن يحصل يوم الثلاثاء المقبل. من جانب آخر مازال سكان الشمال يعتقدون بإمكانية ترسيخ ذلك حتى يوم الإثنين المقبل بتصديق بسيط من خلال الاستفتاء على إحدى فقرات القانون: من نسي أن حرية لوكاس كانت قبل ربع قرن مادة من مواد دستورنا وأن سيّد لوكاس بو شامب لم يتعرض للجلد على ركبتيه فحسب وإنما غمر وجهه في الطين طوال عشر سنوات كي يجبر على القبول به، في النهاية بعد ثلاثة أجيال باتت الضرورة أشد إلحاحا لإصدار تشريع بإعتاق لوكاس بو شامب من جديد.

«فيما يتعلق بلوكاس بوشامب، كسامبو، هو إنسان نقي الأصول كذلك الأمر، عدا عن نزعته إلى التحول لا إلى العرق الأبيض الأفضل فحسب وإنما إلى أفضلية من الدرجة الثانية ــ إن الموسيقى الرخيصة الزائفة الكاذبة، والمال الرخيص اللماع ذا القيمة الزائدة، والمبنى المتلألىء للدعاية القائم على أسس واهية أشبه ببيت من الكرتون فوق هاوية وكل الفوضى الصاخبة للنشاط السياسي كانت من ميلنا الوطني للاعتدال وباتت الآن هوايتنا وتسليتنا الوطنية ـ كل الضجيج الزائف الناجم عن أناس ينشؤون باناة ومن ثم يصبحون أثرياء على حساب الذين يحلمون بالغد حتى ولو كان مشوّشاً وغير واضح وهم الوحيدون على وجه الأرض الذين يتفاخرون علينا بكونهم من الفئة الثانية أي من أهل الثقافة الضحلة. لا أقصد السامبو بهذا الكلام. إنما أقصد الصفة الغالبة لديه في كونه يتمتع بتكوين عرقي متجانس أفضل من تكويننا برهن عنه بإيجاد جذور له في الأرض حيث لا بد له من إزاحة البيض ليمدّوها عميقاً: ليمدّها لأنه يتمتع بالصبر ولو فقد الأمل، وبالمقدرة على الإبصار في مدى بعيد حتى ولو لم يَرَ شيئا في نهايته، وبالرغبة في التجمل لا الاستعداد له فحسب لأنه أحب الأشياء القديمة البسيطة القليلة التي لم يقبل أن يأخذها منه أحد، وهي ليست سيارة ولا ملابس شفافة

ولاصورته المنشورة في الجريدة بل قليل من الموسيقى (موسيقاه الخاصة)، ومدفأة، وأي طفل ولو كان للغير، إضافة إلى إله في السماء يفيد الإنسان في أي وقت كان دون أن يضطرك لإنتظار الموت، وأرض صغيرة يبذل عرقه على منحدراتها ونباتاتها الخضراء. يجب علينا ـ نحن وهو ـ مقايضة معظم الإمتيازات الإقتصادية والسياسية والثقافية التي تحق له، مقابل إرجاعٍ مقدرته على الانتظار والتحمل والاستمرار. بعد فترة، نسود، ونسيطر معاً على الولايات المتحدة، نشكّل جبهة ليست حصينة فحسب وإنما لا يؤثر عليها تهديد مجموعة من الناس لا قاسم مشترك بين أفرادها سوى جشع مسعور للمال وخوف مبدأي من سقوط الشخصية الوطنية. يخفونه عن بعضهم خلف ولاء أجوف لعلم البلاد».

أصبحوا على بعد يسير خلف الشريف. رغم أن السيارة ابتعدت للتو عن الطريق ودخلت الأيكة الواقعة أمام الكنيسة، فقد ظل الشريف واقفاً إلى جانبها[1] بينما كان أحد الزنجيين يسحب المعول إلى الخلف خارج السيارة ويمده إلى السجين الآخر الذي وقف حاملاً كلا المعولين. خفف الخال من السرعة وأوقف السيارة إلى جانبها فشاهد الكنيسة الآن في وضح النهار، للمرة الأولى عملياً وهو الذي أمضى عمره على بعد عشرة أميال منها ومرّ بها مرات عديدة، وشاهدها على الأقل نصف هذه المرات. على الرغم من ذلك (حتى الان) لم يستطع أن يتذكر بأنه نظر نحوها من قبل ـــ إنها بناء صندوقي الشكل مبني بألوح الخشب دون برج لاتزيد طولاً عن بعض الأكواخ المؤلف كل منها من غرفة واحدة والتي يسكنها سكان المرتفعات، غير مطلية أيضاً لكن (وهذا ما يثير الفضول) غير بالية أو مهملة أو محتاجة إلى ترميم لأنه شاهد في بعض المواضع ألواحاً خشبية جديدة وخردوات صغيرة وكسرات مواد تسقيف اصطناعية تمّ ترميمها وتركيبها في الجدران القديمة وألواح السقف الخشبية ارتجالية بدائية تصل إلى حد الصفاقة غير رابضة أو جاثمة أو مستقرة وإنما منتصبة بين جذوع أشجار الصنوبر العالية المتينة ذات الأوراق الإبرية الخشنة، متوحدة لكنها غير مهجورة، صامدة

(1) ـ يقصد سيّارة الشريف المذكورة في أول سطر من الفصل السابع.

متفردة، لا تطلب من أحد شيئاً، ولا تقبل تسوية مذلة مع أيّ كـان فتذكّـر هو أبراجاً صغيرة تقول السلام وأبراج كنيسة هادفة إلى المنفعة ملأت الأرض كيفما اتفق تقول استغفر كما تذكر برجاً آخر يقول حذار لكنّ هـذه الكنيسـة كانت تقول: أحرق: خرج مع خاله، في الوقـت نفسـه كـان الشـريف مـع الزنجيين داخل السياج يحملون العدة فتبعهم هو برفقة الخال، عبر البـاب الرئيسي المنخفض في السياج القليل الارتفاع المزدحم بنبات صريمة الجـدي وورود القرنفل الصغيرة العديمة الرائحـة والـورود البيضاء المعربشـة فشـاهد المقبرة أيضاً للمرة الأولى، وهو الذي لم ينتهك حرمة قبر فيها فحسـب إنمـا فجّر موضوع جريمة بكشف اللثام عن جريمة أخـرى ــ وهـي قطعـة مربعـة مسيجة من الأرض أكـبر قليـلاً مـن أراضـي الحدائـق الـتي شـاهدها والـتي بحلول شهر أيلول تغدو نامية فلا يعود اختراقها ممكناً وتصبح غـير مرئيـة من جراء الحشيش الناعم الرجيد[1] والبيجارلس، والتي انبثقت منهـا دون تناسق أو ترتيب أشبه بمؤشرة[2] كتاب تقحم كيفما اتفق في السقالة أو مثـل المسـواكات في الرغيـف منحرفـة كثـيراً أو قليـلاً وكأنهـا اتخـذت سـطحها الخارجي شديد التحدر من صنوبرات شاقولية غـير مائلـة مضطربـة سـهلة الانثناء، بلاطات[3] جرانيتية متداخلة بسماكة لوح الخشب رماديـة اللـون رخيصة الثمن بلون الكنيسة غير المطلية الباهت وكأنها قطعت بالفؤوس مـن أحـد جوانبهـا (مـن دون عبـارات تأبينيـة منفـوش عليهـا أسمـاء المتوفـين وتواريخ الوفاة فحسب كأن المعزين لم يتذكروا عنهم سوى أنهم عاشوا ومـن ثم ماتوا فقط لا غير) لم يكن البلى أو عامل الزمـن سـبباً في تدنيـس الرقعـة الخام الجديدة من الخشب غـير المطلـي غـير المرتـب علـى الجـدران وإنمـا ببساطة ضرورات الزوال وفناء الجسد.

شق مع خاله طريقهما بحذر بين تلك البلاطات إلى حيث وقف الشريف والزنجيان فوق كومة بكر جديدة سبق له تدنيسها وقـد شـاهدها الآن فعليـاً

(1) - RAGWEED الرجيد: نبات اليعقوبية.

(2) - BOOKMARK شريطة أو نحوها توضع بين صفحتي كتاب إشارة إلى موضع بعينه.

(3) - فاعل انبثق منها.

للمرة الأولى. لم يكونوا قد شرعوا بالحفر بعد. بدلاً من ذلك التفت الشريف إلى الخلف وراح يرقبه إلى أن صعد مع الخال واستويا واقفين.

قال الخال: «والآن ما العمل؟».

من جانب آخر كان الشريف يتكلم إليه بصوت عال نوعاً ما: «في اعتقادي أنت والآنسة بونيس وأمين سرّك كنتم على أتم الحَذر بحيث لم تمكنوا أحداً من القبض عليكم في عملية الليلة الماضية، أليس كذلك؟».

أجاب الخال: «هذا هو الأمر الذي أردت شاهدا عليه بشق النفس، أليس كذلك؟».

إلا أن الشريف استمر في النظر إليه: «لماذا لم يعيدوا الزهور إلى مكانها إذن؟».

بعدئذ شاهدهم أيضاً ـ إكليل من الزهور الإصطناعية، وهو اختراع حمل معقد قوامه سلك وخيط وأوراق صقيلة وزهور عطرة أتى به أحدهم أو أرسلها من محل بائع الزهور في البلدة، وثلاث باقات من الحديقة الذابلة وورود حقل مربوطة بخيط قطني، قال عنها ألك ساندر ليلة أمس إنها ملقاة أو موضوعة على القبر كيفما اتفق كما تذكر أنه أزاحها من الطريق مع ألك ساندر وأعادوها بعد أن أعادوا ردم الحفرة؛ تذكر الآنسة هابرشام وهي تقول لهم مرتين بأن يعيدوها حتى بعد أن احتجّ هو بنفسه بعدم الحاجة لذلك أو بأن تلك المسألة مضيعة للوقت، في نفس اللحظة تذكر مساهمة الآنسة هابرشام في وضع الزهور في مكانها الأصلي: لم يتذكر فيما بعد أنها أعيدت إلى مكانها لكن خطر له فحسب أنه تذكر ذلك إذ من الواضح أنها لم تكن في المكان الصحيح، بل مرميّة في هذا الوقت تتمايل في وضع لا يمكن الخلاص منه على جانب واحد ومن الواضح أنه إما هو او ألك ساندر قد داس الإكليل بالرغم من أن ذلك لم يعد له أهمية في الوضع الراهن وهذا ما أشار الخال إليه على الفور: «لابأس الآن. لنبدأ العمل. حتى عندما ننتهي من هنا ونعود أدراجنا إلى البلدة فإننا سوف نبقى في البداية فقط»

قال الشريف للزنجيين: «ماشي الحال يا أولاد. اقفزوا إلى السيارة. دعونا نخرج من هذا المكان»، لم يكن ثمة صوت، لم يسمع أي شيء

يحذره، تطلّع فوقه وحوله مثلما فعل الخال والشريف فشاهد، رجلاً آتياً من جانب الطريق وراء الكنيسة وقد انبثق من وسط الصنوبرات التي تتلاعب الرياح بها، يرتدي قبعة متسعة رثة وقميصاً أزرق نظيفاً باهت اللون، كمه الأيسر فارغ مطوي بعناية، ثنيته مشبوكة إلى الكتف بواسطة دبوس، على صهوة فرس مزركشة لونها ضارب للصفرة يشبه لون بياض العيون يتبعه رجلان أصغر منه سنّاً ركبا سوية على ظهر بغل أسود كبير من غير سرج، في رقبته ندبة ناجمة عن الحبل وبدا وراءهما (مع الحفاظ بحذر واضح على مسافة فاصلة عن عقبَيْ البغل) كلبان قويان نحيلان لمطاردة الثعالب، مقبلين رملاً عبر الحديقة إلى البوابة الرئيسية حيث أوقف الرجل الفرس ونزل بخفّة وسرعة مستعملاً يدا واحدة وأسقط الركاب خلف عنق الفرس وجاء بخفة ورشاقة لا تنقصهما المرونة عبر البوابة متجها نحوهم - رجل قصير عجوز عيونه شاحبة كعيون الشريف ووجه لوّحته الشمس يبرز منه أنف أشبه بمنقار النسر المعقوف، بصوت عال رفيع قويّ غير مبحوح قال: «ماذا يجري هنا يا شريف؟».

قال الشريف: «ننبش هذا القبر يا سيّد جوري».

جاء الصوت الآخر فوراً، دونما أي تغيير يذكر في النبرة: خال من العداء، أو من أي شعور: في عبارة تقريرية، «لا. ليس ذاك القبر».

قال الشريف: «أجل يا سيد جوري. سأنبشه».

فكّ الرجل العجوز اثنين من أزرار قميصه الأمامية مستعملاً يده الوحيدة التي دفعها إلى الداخل دونما ارتباك أو تلكؤ بل بتأن بالغ، من داخل القميص سحب مسدساً ثقيلاً مطلياً بالنيكل أثبته دونما إسراع أو إبطاء على فخذه الأيسر بعد أن حرك وركه إلى الأعلى قليلاً ليلاقي اليد، ألصق كعب المسدس. بجسده مستعملاً نهاية اليد المقطوعة بينما كانت اليد الوحيدة تزرّر القميص، من ثم أعاد وضع المسدس في يده الوحيدة، وشهر المسدس دون أن يوجهه نحو هدف محدد.

قبل ذلك بكثير شاهد الشريف يتحرك، وينطلق بسرعة تفوق الوصف لا باتجاه الرجل العجوز وإنما حول الطرف الآخر من القبر، بحركة خاطفة

قبل أن يهم الزنجيان بالهرب بحيث بديا عندما انطلقا مسرعين يصطدمان بسرعة كبيرة بالشريف وكأنه جرف صخري، ويرتدان قليلاً إلى الخلف قبل أن يمسك الشريف كلا منهما في يد واحدة وكأنهما أطفال وفي اللحظة التالية بدا يحملهما معاً بيد واحدة وكأنهما دميتين من أسمال بالية، وقد استدار بجسده ليفصل بينهما وبين الرجل العجوز النحيل الذي يحمل المسدس، قال بصوت لطيف غير مبالٍ في آن معاً:

«توقفوا. ألا تعرفون أن اسوأ ما يحدث لزنجي وضيع هو الهروب من هذا المكان بسراويل السجناء المميزة في هذا اليوم؟».

رد الرجل المسنّ بصوته العالي دون تغيير في نبرته: «هذا صحيح يا أولاد. لن أمسّكم بأذى. أنا أتحدث إلى الشريف. هذا ليس قبر إبني أيها الشريف».

همس الخال بسرعة: «أرسلهما إلى السيارة».

غير أن الشريف لم يحرر جواباً وظل يحدق في الرجل المسنّ.

قال الشريف: «إبنك ليس في هذا القبر يا سيّد جوري». كان يفكر بكل ما قد يقوله الرجل المسن وهو يراقبه ـ بدهشة، وعدم تصديق، وربما غيظ، وحتى التفكير بصوت عال: *كيف جئت لتعرف أن ولدي ليس في ذاك المكان؟* ـ بالتفسير عن طريق التأمل الذي قد يعيد بواسطته صياغة كلام الشريف مع خاله قبل ست ساعات خلت، *كنت لن تقول لي هذا لو لم تعرف أن الأمور سارت على هذا المنوال*، راقب الرجل العجوز تابعه وهو يقطع هذه الأمور مجتمعة وعلى حين غرة خطر في ذهنه، *لماذا الرجل في حداد*: دار في ذهنه كيف شاهد مأتماً مرتين في السنتين الماضيتين حيث لم يتوقعه أويتحسب له بأي حال من الأحوال، حيث لا عمل للقلب الملتاع بمعنى من المعاني: ذات مرة لدى عجوز تصادف في خاتمة المطاف أن يمتد به العمر أكثر من زوجته المسنة وحالياً لدى ملحد مسن عنيف بذيء اللسان تصادف أن يفقد واحداً من أبنائه الستة الكسالى العنيفين العديمي النفع شبه الخارجين على القانون أو تقريباً هم أكثر من مجرد عديمي القيمة، واحد منهم فقط عاد بالنفع على قومه وجماعته في خاتمة الأمر وذلك من

خلال الملاذ الأخير بأن قتل مـن بينهـم: مـن جديـد سمـع الصـوت العـالي الممطوط مباشراً قوياً دونما انقطاع أو تغيير في طبقته، أشبه بنبرة المحادثة:

«لماذا، آمل فقط ألا تخبرني باسم الذي أثبت أن ابني ليس هنـاك أيّهـا الشريف. جلّ ما أرجوه ألا تذكره»، ـ عيون قاسية شاحبة تحدق في عيـون صغيرة باهتة، استمر صوت الشريف معتدلاً عميقاً الآن:

«لا يا سيّد جوري. القبر ليس فارغاً»: فيمـا بعـد، مـع انقضـاء هنيهـة لاحظ ذلك عندما صدق أنه ربما لم يعرف أن سبب وصول لوكـاس حيّـاً إلى المدينة كان واضحاً: وهو عـدم حضـور أيّ شـخص مـن آل جـوري في تلـك اللحظة سوى القتيل: بل عرف على الأقل كيف يتصادف خروج المسنّ مع اثنين من أبنائه من الغابة الواقعة خلف الكنيسة تقريباً بنفس اللحظة الـتي وصـل فيهـا مـع الخـال والشـريف إلى القـبر، وعـرف بالتـأكيد السـبب في استمرار لوكاس على قيد الحياة بعد الحادثـة بثمـانٍ وأربعـين سـاعة. قـال الشريف:

«إن الذي في القبر هو جاك مونتجمري».

استدار الرجل المسنّ، مباشرة، دونمـا اعتبـاط ولا إسـراع إنمـا ببسـاطة فحسب كأن هيكل جسده النحيـل الضئيـل القليـل اللحـم لَـمْ يبـدِ مقاومـةً للهواء ولم يرخ ثقلاً على عضلات التحريك، صرخ نحو الجدار حيث مازال الشابان جالسين على البغل منتصبين كتمـاثيل عـرض الملابـس في محـلات الأزياء أبكمين جامدين وقبل أن يبادرا للنزول مباشرة صرخ الرجل المسن:

«هنا يا أولاد».

قال الشريف: «لا تهتـم. سـنتولى نحـن الأمـر». التفـت إلى الزنجيـين: «لابأس . تناولا المعاول».

همس الخال من جديد بسرعة: «قلت لك أعدهما إلى السيّارة».

قال الرجل المسنّ: «هذا صحيـح أيهـا المحـامي ــ المحـامي سـتيفنس أليس كذلك؟ خذهما من هنا. هذا شغلنا. نحن نقوم به».

قال الشريف: «الآن هذا شغلي يا سيّد جوري».

رفع العجوز المسدس، بثبات دونما إسراع طاوياً كوعه حتى غدا أفقياً، لف إبهامه فوق أخمص المسدس ورفعه إلى أعلى حتى غدا مطوّحاً كيفما اتفق، أو مشيراً لا على التعيين إلى شيء غير محدد في مكان غير محدد على سوية ارتفاع عروة الزنار الفارغة على سروال الشريف.

قال الرجل المسن: «أخرجهما من هنا يا شريف».

قال الشريف دون حراك: «ماشي الحال. عودا إلى السيارة».

قال الرجل المسن: «علاوة على ذلك. أعدهما إلى البلدة».

قال الشريف: «هما سجينان. لا أستطيع أن أفعل ذلك». لم يتحرك. قال لهما: «عودا واصعدا إلى السيارة».

تحركا بعدئذٍ، دون أن يعودا أدراجهما سيراً إلى الباب الرئيسي وإنما عبر السياج مباشرة، سائرين بسرعة قصوى، رافعين أرجلهما وركبهما في السراويل القذرة المخططة إلى ارتفاع عالٍ، لدى وصولهما إلى السياج المقابل سارا بسرعة كبيرة واجتازاه سيراً وقفزا على رجل واحدة وفي النهاية بدّلا الإتجاه رجوعاً إلى السيارتين بحيث أنهما وصلا سيّارة الشيف ولم يعودا قريبين إلى الرجلين الأبيضين فوق البغل مثلما كانا لدى مغادرتهما القبر: نظر إليهما في جلستهما فوق ظهر البغل متماثلين كدبوسي ملابس على نسق واحد، الوجهان متطابقان لوحتهما الشمس بالقدر نفسه، وهما بالتأكيد سريعا الإثارة والهدوء، إلى أن صاح العجوز من جديد:

«هيا يا أولادي» نزلا نزول رجل واحد، في الوقت نفسه مثل فرقة فود فيل[1] مدربة ومن جديد خطيا خطوة رجل واحدة بالقدم اليسرى فوق السياج، متجاهلين الباب تماماً: ، توأمان من أبناء جوري، متشابهان حتى في الثياب والأحذية مع وجود خلاف واحد وهو أن أحدهما يرتدي قميصاً كاكيّاً والآخر يرتدي قميص جرسي[2]، في حوالي الثلاثين من عمرهما، يزيدان والدهما طولاً بمقدار ارتفاع الرأس وعيونهما كعيون والدهما

---

(1) - VAUDEVILE: الفودفيل، الملهاة: مسرحية هزلية خفيفة أشبه بحفلة منوّعات.

(2) - JERSY: الجرسي قميص صوفي محكم الحبك.

الباهتة وأنفاهما يطابقان أنفه مع فارق في أن أنفيهما اشبه بمنقار الصقر لا بمنقار النسر، جاءا بصمت دون أن يلقيا نظرة من وجوههم الكئيبة الكالحة غير المسرورة إلى أن أشار الرجل بالمسدس (شاهد قبضة المسدس تنزل الآن كيفما اتفق) إلى المعولين وقال بصوته العالي الذي بدا شبه مبتهج بنفس الوقت:

«خذاهما يا أولاد. هما من أملاك المقاطعة؛ إذا فقدنا واحداً منهما فهذا أمر لا يعني أحداً سوى هيئة المحلفين الكبرى»: واجه كلا التوأمين الاخر على طرفي الكومة المتناظرين وراحا يعملان بانسجام متناغم، إنهما الصغيران قبل الميت فنسون، بتسلسلهما الرابع والخامس من بين الأبناء الستة ـ فوريست، الولد البكر الذي لم يحرر نفسه من طغيان أبيه المستبد وإنما تزوّج وظل طوال عشرين عاماً مشرفاً على أرض دلتا مزروعة بالقطن فوق فيكسبورج؛ يليه كراوفورد، الولد الثاني، استلم قرعته للخدمة العسكرية في اليوم الثاني من تشرين الثاني عام 1918 وفي ليلة العاشر منه (لسوء طالع في التقدير لا يحصل مع أي إنسان حسبما قال الخال ـ كانت في الواقع وجهة النظر التي أقرّ بها معتقلوه الفيدراليون على ما يبدو نظراً لأن مدة عقوبته في سجن ليفنهورث كانت عاماً واحداً فقط) فرّ من الخدمة الإلزامية وعاش مدة ثماني عشرَ شهراً تقريباً في سلسلة من الكهوف والأنفاق في المرتفعات على بعد خمسة عشر ميلاً من دار الحكومة الفيدرالية في جيفرسون إلى أن تم إلقاء القبض عليه في خاتمة المطاف بعد معركة ضارية (رغم ذلك لم يتعرّض أحد للإصابة لحسن طالعه) حصّن أثناءها كهفه جيداً طيلة ثلاثين ساعة عجيبة متسلّحاً (قال الخال، تماسك واقتدار أكيدان: هارب من جيش الولايات المتحدة يدافع عن حرّيته ضد حكومة الولايات المتحدة مسلّحاً بقطعة سلاح صودرت من العدو الذي رفض هو قتاله) بمسدس أوتوماتيكي سبق لأحد أبناء مكّالوم أن أخذه من ضابط ألماني أسير قايضه على الفور برباط أحدِ كلاب صيد الثعالب لآل جوري بعد أن عاد إلى وطنه، وبعد أن أمضى سنته في السجن عاد إلى البيت فسمعت البلدة عنه بعد ذلك أنه في ممفيس حيث قيل بأنه 1) يهرّب الخمور من نيو أورليانز 2) يعمل لدى إحدى الشركات شرطياً خاصاً لضبط المستخدمين أثناء

الإضراب، بأي حال من الأحوال عاد إلى منزل ذويه على حين غرة حيث لم يشاهده أحد قبل سنوات قليلة خلت عندما بدأت البلدة تسمع أخباره بعد أن كان قد استقر تقريباً، وراح يتاجر بالأخشاب والماشية على نطاق محدود ويستثمر أرضاً صغيرة في آن معاً، أما الإبن الثالث بريان فقد كان مكمن القوة، والسّطوة، وصلة الوصل سَمِّ ذلك ما شئت، في مزرعة الأسرة أو خلفها وهي مورد رزقهم جميعاً، بعده يأتي التوأمان فاردامان وبيلو اللذان كانا يمضيان الليالي مقرفصين أمام جذوع وجذور الأشجار المتحرقة بينما الكلاب تطارد الثعالب ويمضيان النهار بالنوم متسطّحين على الألواح الخشبية العارية للشرفة الأمامية إلى أن يحلّ الظلام ويأتي وقت تجهيز كلاب الصيد من جديد، أما الإبن الأخير، فنسون، الذي أظهر مهارة في أمور التجارة والمال أيضاً منذ نعومة أظافره بحيث لم يمتلك عدة قطع من الأرض الزراعية في أراضي المنطقة فحسب وإنما كان أوّل شخص من آل جوري قادر أن يوقع اسمه على شيك ويحظى بثقة أي مصرف كان في دفع قيمته الآن رغم أنه مات وهو في الثامنة والعشرين من عمره ـ كان التوأمان، بادىء ذي بدء غائصين إلى الركبتين، وبعدئذ حتى خصريهما، يعملان بسرعة عنيفة لا هوادة فيها، أشبه بالإنسان الآلي وبانسجام تام بحيث أن المعاول راحت تقرع في اللحظة نفسها على الصندوق الخشبي وبدا أنهما يتواصلان بلا أية أداة فيزيائية مثلما تفعل الطيور أو الحيوانات: لا صوت لا إيماءة: في خاتمة المطاف ترك أحدهما المعول يتتابع مع نفس الضربة التي تقلب التراب ومن ثم رفعه دونما جهد إلى الأعلى خارج الحفرة ووقف وسط الجماعة فيما كان شقيقه يتخلص مما بقي من التراب فوق النعش، من ثم رمى معوله إلى الأعلى خارج الحفرة دون أن ينظر البتّة ـ مثلما فعل هو ليلة أمس ـ وضرب نهاية الأرض بقدمه خارج حافة الغطاء وعلى رجل واحدة وقف وأمسك الغطاء ورفعه إلى الأعلى باتجاه خارج الحفرة فبات بوسع جميع الذين كانوا واقفين مجتمعين بموازاة حافة القبر أن ينظروا من ورائه إلى الصندوق.

كان الصندوق فارغاً. لا شيء فيه على الإطلاق إلى أن سقطت فيه حفنة من التراب مصدرةً صوتاً هامسا مهذاراً.

الفصل الثامن

راح يسترجع في ذاكرته: كيف وقفوا هم الخمسة على حافة الحفرة فوق التابوت الخالي، وكيف صعد ابن جوري الثاني من القبر بعدئذ بحركة انثنائية انسيابية كحركة شقيقه التوأم وانحنى ليشرع بنفض وإزاحة جسيمات الغبار من الساقين السفليتين لبنطاله بنشوة ضمنية يخالطها الاستياء والغيظ الدفين، وتحرك أول التوأمين كانحناء أخيه، واتجه إليه على الفور بحركة رجوع لاانحراف فيها دونما إسراع أشبه بقطعة تطابق الأخرى في آلة، لنقل كعمود تحريك مخرطة معادن، ينزلق باتجاه التجويف على نفس المنزلق المتعذّر اجتنابه، بدوره انحنى وشرع بنفض وإزالة الوسخ من على قفا بنطال أخيه؛ في هذه المرة انزلق ما يقارب ملء رفش من التراب على الغطاء المزاح وقرقع على الصندوق الفارغ، محدثاً صوتاً عالياً إلى حدما أو بكتلة أو وزن كافيين لإحداث صدى ضئيل أجوف.

قال الخال: «لقد تخلص من كليهما الآن».

قال الشريف: «أجل. لكن أين؟».

قال جوري المسن: «لعنة الله عليهما. أين ولدي أيها الشريف؟».

قال الشريف: «سنجده في الحال يا سيّد جوري. كنت مصيباً في إحضار كلاب الصيد هذه. أعد مسدسك ودع ولديك يمسكان تلك الكلاب ويبقونها جانباً حتى نخرج من هذه المعمعة».

قال جوري المسنّ: «لا تشغل بالك بالمسدس ولا بالكلاب. سوف تنتشر وتلتقط أي شيء سبق له أن جرى أو مشى على حد سواء. لكن ولدي وجاك مونتجمري ذاك ـ هذا إذا كان جاك مونتجمري أو أي شخص لا على التعيين شوهد راقداً في تابوت إبني ـ فهو لم يسر خارج هذا المكان دون أن يترك أثراً».

قال الشريف: «اسمع الآن يا سيّد جوري» حدق الرجل المسن إلى الشريف ناهضاً للخلف. لم يكن مرتجفاً، أو قلقاً، أو مرتبكاً، أو حائراً، أو في أية حالة أخرى. تذكر وهو يراقبه ألسنة لهب واضحة عديمة الحرارة باردة على شكل الدموع الزرقاء اللون باهتة توازن نفسها فوق خراطيم الغاز على مساحة تقل عن مساحة رؤوس أصابع القدمين.

قال الرجل المسنّ: «أنا موافق. ها قد سكتّ. فابدأ أنت الكلام. يبدو أنك من يعرف كل شيء عن هذا الموضوع، حيث بلغني منك على طاولة الفطور في الساعة السادسة من صباح هذا اليوم وجوب مقابلتك في هذا المكان. فهيا ابدأ الآن بالكلام».

قال الشريف: «هذا ما سوف نقدم عليه. علينا أن نجد في هذه اللحظة نقطة البداية». التفت نحو الخال وقال بصوت معتدل حيّ: «افترض أن الوقت الآن حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً. لو أتيت ببغل أو حصان، أو بالأحرى بشيء قادر على السير بحمولة مضاعفة، وفي سرجك رجل ميت. ولم تبق لوقت طويل. أو بالأحرى لم تبق بتاتاً. كان هذا بالطبع حوالي الساعة الحادية عشرة، عندما يكون معظم الناس نائمين، مساء يوم الأحد أيضاً وعلى الناس أن ينهضوا باكراً صباح الغد ليبدأوا أسبوعاً جديداً في أوج موسم زراعة القطن، لا قمر في السماء وحتى لو كان الناس يقظين في الجوار فأنت في جزء معزول من الريف حيث لا تتوفر أية فرصة لك لمشاهدة أيّ كان. وأنت علاوة على ذلك أخذت جثة إنسان في ظهره أثر طلقة في الساعة الحادية عشرة من يوم منقض عاجلاً أو آجلاً، أليس كذلك، ماذا[1] كنت تفعل؟».

---

(1) ـ جواب شرط لو الواردة قبل تسعة أسطر.

تبادلا النظر، والتحديق، بالأحرى كان خاله هو الذي حدّق ــ الوجه قلق بالغ النحالة ناتئ العظام، العيون متألقة مصممة خاطفة النظرات، بالمقابل كان وجه الشريف الواسع الناعس، العيون غير محدقة، بشكل جليّ واضحة النظرات، ترفّ شبه ناعسة، كل منها تقاطع مع الآخر دون كلام ومن خلال ذلك كله أيضاً قال الخال: «بالطبع أعيده إلى الأرض من جديد. في مكان غير بعيد عن هنا، طالما أنك قلت إن النهار آت عاجلاً أو آجلاً باعتبار أن الساعة حوالي الحادية عشرة. خاصة عندما يكون لديه وقتاً للعودة والإقدام على فعلته من جديد، لوحده، بمفرده، ولا يد سوى يده على الرفش ـ فكّر أيضاً: بالحاجة، الحاجة البغيضة، لا لإعادة النبش من جديد بل لإعادة النبش لغاية ما في نفسه؛ إن التفكير أنه فعل كل ما بوسعه، أو كل ما يتوصل إليه الخيال أو كل ما يطلب أو يتوقع منه الغير، كان أمراً باعثاً على اطمئنانه حسبما يأمل ــ من ثم يرتد بعد ذلك إلى الخلف بفعل صوت أوضجة وربما يعثر كيفما اتفق على السيارة المتوقفة بمحض الصدفة أو بضربة حظ، حظه السعيد، أو لكون ا لله أو الجنيّ أو العفريت لا على التعيين يشملون القتلة بعنايتهم لفترة وجيزة، مما جعله يشعر بالأمان والاطمئنان إلىأن يبدأ القضاء والقدر بحياكة الحبل وعقده فيضطر إلى الزحف كيفما اتفق، ويربط البغل أو الحصان أو أيّ شيء كان إلى شجرة ويزحف على بطنه عائداً للصعود إلى هذا المكان للإستراحة (من يدري؟ ربما وصل خلف السياج الأبعد) ومراقبة امرأة عجوز وولدين يتدخلون فيما لا يعنيهم بدل أن يكونوا بالضرورة راقدين في أسرّتهم منذ ساعتين على بعد عشرة أميال، وهم يخربون كامل الصرح الذي أشاده بعمله الحثيث بدقة وحذر، فلا يبطلون عمل. حياته فحسب وإنما عمل موته أيضاً...».

توقف خاله، شاهد تلك اللحظة العيون متألقة شبه ساطعة محدقة إليه: «وأنت لم يكن عندك فكرة البتّة أن الآنسة هابرشام آتية معكم إلى أن وصلت البيت. ومن دونها لم يكن عندك أي أمل على الإطلاق بقدوم ألك ساندر معك لوحده. هذا إذا ما كان لديك أية فكرة للمجيء إلى هنا لحفر هذا القبر، لا تقل لي أبداً».

قال الشريف: «لنسلّم بذلك الآن. أنا موافق. في مكان ما من الأرض. أيّ نوع منها؟ أيّ تراب حفره أسهل بالنسبة لرجل في عجلة من أمره وبمفرده حتى لو كان معه رفشاً؟ بأي نوع من التربة تتوقع أن تخفي جثة بسرعة لو أنك لا تحمل سوى سكين جيب؟».

قال الخال على الفور، سريعاً، بلهجة شبه حيادية، متظاهراً بعدم المبالاة: «أخفيه في الرمل، في قعر مجرى الماء الفرعي. ألم يخبروك أنهم شاهدوه في الساعة الثالثة هذا الصباح ذاهباً إلىهناك بالجثة؟ فيم انتظارنا نحن؟».

قال الشريف: «هذا صحيح. لنذهب إذن» أردف قائلاً له: «أرنا المكان بالضبط».

قال هو: «عدا عن ذلك قال ألك ساندر أن ما شاهدناه قد لايكون بغلاً».

قال الشريف: «لابأس قد يكون حصاناً. أرنا المكان بالضبط».

تذكر المشهد: راقب الرجل المسن يطقطق بالمسدس من جديد ويضع عقب السلاح على تماس مع ردفه ويثبته هناك بطرف اليد المقطوعة فيما اليد الوحيدة تفك أزرار القميص وتأخذ المسدس من الخصر وتقحمه في مكانه داخل القميص ومن ثم تزرر القميص من جديد بعدئذٍ استدار بأسرع من الولدين اللذين في نصف عمره، وفي نفس الوقت على مرأى من الجميع قفز عن فوق السياج على قدم واحدة ومضى إلى الفرس وأمسك الأعنّة ومقبض السرج بيد واحدة، آنذاك تأرجح: بعد ذلك تحركت السيارتان على الغيار الثاني نازلتين بفعل الجاذبية الأرضية على الأرض المنحدرة في طريق العودة إلى أن قال:

«هنا» حيث انحرفت آثار عجلات البيكآب من الطريق نحو الأحراش ومن ثم عادتا إلى الطريق من جديد فتوقف خاله: راح يراقب الرجل المسنّ المغتاظ المقطوع اليد يقفز بالفرس المكسوّ ظهرها بجلد الغزال خارج الطريق نحو الغابة في الجانب الآخر هابطاً نحو مجرى الماء الفرعي، بعده انسل كلبا الصيد فوق الضفة خلفه ومن ثمّ اندفع البغل حاملاً الشابين ذوي الوجوه المتخشّبة المتطابقة: خرج مع الخال من السيارة التي كان رفراف

سيارة الشريف خلف رفرافها تماماً، وسمعا الفرس تخبط نازلة إلى مجرى الماء الفرعي بعدئذ جاء صوت الرجل المسنّ عالياً مديداً ينادي على كلاب الصيد:

«هه! هه! همّ ياولد! آتوا به!» بعدئذ صوت خاله: «قيّدْهما إلى عجلة القيادة» من بعده صوت الشريف:

«لا، سوف نحتاج الرفوش»، تسلق الضفة بدوره، أصغى إلى الخبط والصياح بعيداً باتجاه الأسفل، بعد ذلك كان إلى جانبه كل من الشريف والخال والزنجيَّيْن اللذين يحملان الرفوش. بالرغم من أن مجرى الماء الفرعي يقطع الجوانب اليمنى للطريق الرئيسي خلف المكان الذي ينعطف فيه الطريق الترابي بالضبط، كان على بعد ربع ميل من المكان الذي وقفوا فيه حالاً أو مشوا إليه بالأحرى وبالرغم من أنهم سمعوا جوري يصيح بالكلاب وأصوات أقدام الفرس والبغل أيضاً في الأجمة الكثيفة تحتهم لم يذهب الشريف في ذلك الإتّجاه، بدلاً من ذلك شقّ طريقه بمحاذاه التل بموازاة الطريق لبضع دقائق وفي النهاية شرع بالنزول عنه عندما وصلوا السهل المكسوّ بالغار والعشب المنشاريّ المغبّر الواقع بين التل ومجرى الماء الفرعي، تابعوا السير مجتازين هذا الأخير، ظل الشريف في المقدمة إلى أن توقف وراح ينظر إلى الأسفل ومن ثم استدار برأسه ونظر إلى الخلف نحوه وهو يقترب مع الخال.

قال الشريف: «للمرة الأولى يكون سكرتيرك على صواب. كان ذاك بغلاً».

قال الخال: «ليس بغلاً أسود في رقبته ندبة مكان الحبل. ليس كذلك بالتأكيد. لايكون المجرم منبسطاً[1] كليّاً وبغرور».

قال الشريف: «أجل. هذا هو سبب خطورتهم وسبب وجوب أن ندمرهم ونحتجزهم» شاهدهما بدوره وهو ينظر إلى الأسفل: كانت آثار حوافر بغل ضئيلة ناعمة مفصحة عن ذاتها دون أي تناسب مع حجم أثر

(1) - EXTROVERT المنبسط: شخص يتجه انتباهه اتجاهاً كلياً أو بشكل شبه كليّ لنحو ما هو خارج عن الذات.

حافر الحيوان فعلياً، عميقة مضغوطة مهروسة، في الروث الحيواني الرطب، أعمق بكثير من آثار بغل واحد يحمل شخصاً واحداً مهما كان وزن هذا البغل كبيراً، كانت المسالك مليئة بالماء بينما كان يراقب حيواناً مائياً بالغ الصغر لا على التعيين ينطلق بسرعة عبر أحدها تاركاً فيضاً من الوحل المائع أشبه بالخيط؛ وقفوا في الممر، وإذ اهتدوا إليه تمكنوا من مشاهدة الممر الفعلي بحد ذاته من خلال أثر جسم زاحف خلال نباتات كثيفة توازي كتف المرء طولاً منسحقة على الأرض باقية في وضع ثبات مثل الأخدود في الحقل أو الأثر الجامد الذي يخلفه قارب في المياه، يقطع السبخة كالسّهم المستقيم ويختفي في الغاب الذي يتاخم مجرى الماء الفرعي. اقتفوه، ساروا عليه، داسوا على مجموعتي آثار الحوافر غير الذاهبة وعائدة فحسب بل الذاهبتين كلاهما في الاتجاه نفسه، بين حين وآخر كان ينطبق أثر الحافر على سابقه، استمر الشريف في المقدمة متحدثاً مرة أخرى، بصوت مرتفع تكلّم دون أن ينظر إلى الخلف وكأنه ـ فكر في البدء ـ لا يتحدث إلى أحد:

«لم يسلك هذا الطريق أثناء العودة. هذه هي المرة الأولى التي لم يكن لديه وقتاً فيها. لقد مضى إلى الأمام إلى أعلى التلة تلك المرة، غير مبالٍ بالغابة أو بالظلام. وذلك عندما سمع شيئاً لا على التعيين».

بعدئذٍ عرف مع من كان الشريف يتكلم: «ربما كان سكرتيرك يُصفّر هناك أو شيئاً من هذا القبيل. وهو في المقبرة تلك الساعة من الليل».

بعدئذٍ وقفوا على ضفة المجرى المائي ـ ممر مائي عريض قناة ينساب سيل من أمطار االشتاء أو الربيع وحيث يجري في الوقت الحاضر ماء بعمق بوصة بمنسوب محدود لا يزيد عرضه عن ياردة من بركة إلى بركة على امتداد الرمل الأبيض ـ في الوقت نفسه قال الخال:

«بالتأكيد الأحمق...» على بعد عشر ياردات أو أبعد بموازاة الضفة:

«إنه هنا»: ذهبوا إليه فشاهد المكان الذي توقّف فيه البغل وربط إلى شجيرة والآثار حيث تابع الرجل شقّ طريقه على طول الضفة، آثار أقدامه كانت أيضاً أعمق من آثار أقدام أي إنسان مهما بلغ وزنه من الضخامة وفكر أيضاً: اليأس والكرب، والاستعمال في الظلام الدامس والورد البريّ والإنسحاب النهائي بظرف ثوانٍ وهو ينوء بحمل رجل مسجّى لم يكن

مستهدفاً بالنقل: بعدئـذ سمع صوت تقصـف وشقّ طريـق بـين الأشجار النامية تحت الأشجار الكبيرة يأتي من مسافة لا بـأس بهـا بموازاة الضفـة كما سمع الفرس وفي إثرها صراخ جوري المسنّ وبعده صخباً آخر ناجماً عـن صعود البغل ثم جلبة محدودة: إضافـة إلى صـراخ العجـوز المسـن وشـتائمه ونباح كلاب الصيد يعلو مصحوباً بصوت مكتوم صـادر عـن اصطـدام حـذاء بأضلاع كلب: لم يكن في وسعهم الإسـراع نهائيـاً، وهـم ينطلقـون محدثـين الضوضاء من خلال نباتات معرّشة وورود بريّة تصدر عنها خشخشة متقطعة إلى أن شاهدوا المسيل المائي والكومة المنخفضة من الطين السـطحي المنبـوش حديثاً الذي كـانت تحفـره كـلاب الصيـد فيمـا راح جـوري المسـنّ يركلهـا ويشتم، ومن ثم باتوا جميعاً في القناة باستثناء الزنجيين.

قال الشريف: «توقف يا سيّد جوري فهذا ليس فنسون». إلا أن الرجـل المسنّ لم يسمعه على ما يبـدو. في قـرارة نفسـه تهيّـأ لـه ان لا أحـد هنـاك سواه: في الوقت نفسـه بـدا أنـه نسـي لمـاذا كـان يرفـس الكـلاب، إذ بـدأ يسوقها بعيداً عن الكومة فحسب، راح يعرج ويثب على قدم واحدة خلفهـا بحيث يتوازن على رجل واحدة ويطوّح بالأخرى على جانبه ليرفسها حتى بعد أن تراجعت عن الكومة في محاولة لتفاديه والخـروج مـن القنـاة إلى بـر الأمان، استمر في شتمها ولعنها حتى بعد أن أمسكه الشريف بيده الوحيـدة وأوقفه.

قال الشريف: «أنظر إلى الـتراب. ألا تـرى؟ عندمـا كـان في عجلـة مـن أمره، مع اقتراب طلوع النهار كان لا بد أن يخفيها؟» بات باسـتطاعتهم في الوقت الحاضر أن يروا في الأكمة السفلية من الـتراب الجديـد المرمـي قريبـاً تحت الضفة وعلى سطحـها فوق الأكمة علامات عشوائية غير متقنة للرفوش أشبه بحك على الضفة بحد نصل مثل معول متأرجح (من جديد، فكر، إنه اليأس، التسرّع، قتال رجل لرجل بضـراوة إزاء القصـور الذاتـي المـتراكم في الأرض نفسها غير الممكن احتماله) إلى أن انقصم وانهال منه[1] نحو الأسفل ما يكفي لإعادة طمر ما كان على المجرم أن يطمره.

---

(1) ـ تعود للتراب.

هذه المرة لم يكونوا بحاجة إلى الرفوش. كانت الجثة بالكاد مغطاة؛ أظهرتها الكلاب على الفور وتحقق هو الآن من الخطر الحقيقي للتسرع واليأس، كان شخصاً مفلساً من الوقت يائساً مسعوراً لا وقت لديه كي يخفي الدليل على يأسه وسبب تسرعه؛ كان ذلك بعد الساعة الثانية عندما كان هو وألك ساندر يعملان بسرعة كبيرة، في إعادة ردم القبر من جديد: بحلول ذلك الوقت، لم يكن القاتل وحده فحسب إذ أزاح ستة أقدام من التراب ومن ثم أعاد ردمها مرة واحدة منذ غياب شمس الأمس، وأخرج الجثة الثانية وردم القبر مرة أخرى مع حلول النهار على الأغلب، أو ربما بعد حلول النهار، بينما كانت الشمس تراقبه يمتطي البغل للمرة الثانية هابطاً التل عابراً المجرى الفرعي، والصبح يراقبه يسقط الجثة من فوق كتفه ويقتطع بضربات متوالية غاضبة قليلاً من التراب لإخفاء الجثة عن الأنظار مؤقتاً وقد انتابه بعض اليأس الشديد أشبه بيأس زوجة تقذف ثوبها فوق قفاز نَسِيَهُ عشيقها ــ واضعاً (الجثة) الوجه نحو الأسفل ومؤخرة الجمجمة المحطمة ظاهرة إلىأن انحنى الرجل العجوز وهزّها بقوة بيده الوحيدة ليعيد قلبها على الظهر.

قال جوري المسن: «أجل» بصوت عال حاد مديد: «هذه جثة مونتجمري، اللعنة إن لم تكن...»: انتصب بقّوة وسرعة كزنبرك ساعة منتفض رافعاً صوته صارخاً على كلاب الصيد من جديد: «هيّا يا أولاد! اعثروا على فنسون» بعدئذ صاح الخال كي يسمعه: «انتظر يا سيّد جوري. انتظر» بعد ذلك أردف قائلاً للشريف: «كان أحمق إذن فقط لأنه لم يكن لديه وقت، لا لأنه أحمق. أنا لا اصدق أن الأمر حدث مرتين» نظر حوله، زاغت عيناه: تركز نظره بعد قليل على الشقيقين التوأمين. قال بحدة: «أين الوعث؟».

قال أحد التوأمين: «ماذا؟».

قال الخال: «الوعث. حوض الرمال المتحركة هنا في المجرى الفرعي. أين موضعها؟».

قال جوري المسنّ: «الوعث؟ أيها المحامي ابن العاهرة، رجل يوضع في الوعث؟ ولدي في الوعث؟».

قال الشريف: «اخرس يا سيّد جوري». أردف قائلاً للتوأمين: «حسناً؟ أين؟».

إلا أنه أجاب أولاً. كان ينوي الإجابة قبل دقيقة أو دقيقتين. وها هو يجيب: «إنه عند الجسر»، من ثم قال ـ دون أن يدري السبب: بالتالي هذا لايغيّر من الأمر شيئاً ـ «لم يكن ألك ساندر هذه المرة بل كان الحصان هاي بوي».

صحح التوأمان: «تحت جسر الطريق الرئيسي. حيث كان طيلة الوقت».

قال الشريف: «أوه أيّ حصان كان هاي بوي؟» كان على وشك الإجابة على ذلك: على حين غرة فيما بعد بدا أن العجوز نسي فرسه أيضاً، وانطلق بسرعة، وهرول على الفور قبل أن يتحرك أيّ منهم وحتى قبل أن يتحرك هو نفسه، ركض عدة خطوات مديدة على الرمل الذي لا يعطي أية قوة دافعة وهم يراقبونه، قبل أن يعود بخفة القطة ويمتطي صهوة الفرس، ويثبت نفسه بالخفة ذاتها بيد واحدة وقد شق طريقه على الضفة المنحدرة مختفياً عن الأنظار قبل أن يصعد أي كان فوق الضفة باستثناء الزنجيين اللذين لم يبارحاها ولم يمسكا به. قال الشريف للتوأمين: «اقفزا. أمسكا به». بهرج عارم شق الجميع طريقهم خلفه، أحد التوأمين في المقدمة يليه البقية والزنجيان من خلال الورود البرية والحرش، صعدوا عائدين بموازاة المجرى الفرعي خارجين من الغاب مجتازين الأرض المكشوفة المستملكة لمد خطوط السكة الحديدية تحت الطريق عند موقع الجسر؛ شاهد آثار حوافر ضئيلة حيث سبق للحصان هاي بوي أن دنا من الماء ومن ثم أحجم، والجدول المائي يصبّ في قناة الري الإسمنتية المقابلة متدفقاً في حزمة ضيّقة يختفي طرفها الأقرب بلا حد مميز في امتداد من الرمل الرطب الناعم البكر الخالي من أية علامات على السطح الشبيه بالحليب؛ خطا فوق جذع صفصافة طويل موضوع فوق حافة الجدول تغطي طبقة ضئيلة من الرمل الجاف ثلاثة أو أربعة أقدام منه فيبدو أشبه بعصا تغرزها في دلو أو راقود[1] من الطلاء، في الوقت نفسه عندما نادى الشريف التوأمين أمامه:

---

(1) ـ راقود VAT: وعاء ضخم للسوائل يستخدم للتكرير أو التخمير أو الصباغة أو الدباغة.

«أمسكا به» شاهدَ الرجلَ المسنّ يقفز بقدمه أولاً من الحافـة ويتـابع دون أن يوقفه تدفّق الماء أو أي عائق آخر نحو الأمام لا من خلال السّطح النـاعم وإنما مروراً به وكأنه لا يقفز نحو حيّز معين وإنما من حافة جرف أو عتبـة نافذة ومن ثم يتوقف على حين غـرة فيكـاد يختفـي دون صدمـة أو رجّـة: ثابتاً لا حراك فيه كأنّ رجليه قطعتا من العورة بضربة منجل، تاركاً جذعه ينتصب على الرمل الرقيق العديم العمق الشبيه بالحليب.

صاح جوري المسنّ بصوت حاد مديد: «لابـأس يـا أولاد. إنـه هنـا. أنـا واقف فوقه».

أتى أحد التوأمين. بحبـل اللجـام مـن البغـل والحبـل الجلـدي وحـزام السرج من الفرس وقطع الزنجيان أغصاناً مـن الصفصـاف بضربـات متواليـة مستخدمين الرفوش بمثابة بلطات بينما قام البقية بسحب أغصـان وجـذوع أخرى أو أي شيء آخر استطاعوا الوصول إليه أو إيجـاده أو سحبه وبـات كلا التوأمين وكلا الزنجيّـين، بعـد تـرك أحذيتهـم الفارغـة علـى الضفـة، غائصين بعمـق في الرمـل وبـاطراد راح يتنـاهى حفيـف الصنوبـر قويـاً دون انقطاع من التلال ولم يتناهى صوت آخر بالرغم من أنه وجّه أذنيه ليُصغـي السمع في كلا الاتجاهين بمحاذاة الطريق. ليس إجلالاً للمـوت لأنّ لامهابـة للموت إنما على الأقل من قبيل اللياقة في حضوره: بعض مـن تلـك اللياقـة على الأقل لا بد أن تكون حقاً بائساً لأي إنسان إلى أن تخفى الجيفة التـي خلّفها بعيداً عن الهزء والعيب، في البداية بـانت قـدم الجثـة، إلى الأعلـى ارتفعت كلها من التربة الإمتصاصية الغامضة من جراء الرفـع بواسـطة عـدة سحب بدائية مـن الحبـال متخلصـة مـن الـتراب بصـوت لـه دوي ضئيـل كصوت ارتطام جسم بالماء، أشبه بتلمظ شـفاهٍ قـد يحصـل في المنـام دون أن يظهر شيء علـى السـطح الرقيـق، في هـذه الأثنـاء تلاشـت مويجـة ضئيلـة متغضنة واختفت كتلاشي نهاية ابتسامة خفيّة باهتــة، بعـد ذلـك اسـتوت على الضفة وقد تحلقوا حولها وفوقها هذه المرة راح يصغي بتركيز أكبر مـن ذي قبل في كلا الإتجاهين الموازيين للطريق بما يشبه الإسراع المذعور للقاتل ورغم ذلك لم يكن هنالك شيء: فقـط كـان يسمع ويتحقـق مـن صوتـه هـو بوضوح بعد مدة طويلة من سماع أي شـخص آخرلـه، وهـو يراقـب الرجـل

المسنّ مغموراً حتى وسطه مثل جذع منغمس في الطبقة الشفافة ذاتها من الرمل، ينظر إلى الجثة، بوجهه المجعّد وشفته العليا المجعدة نحو الأعلى كاشفة عن وهج الخزف الصيني العديم الحياة واللون الزهري للثّة لا دماء فيها لطقم أسنان اصطناعية:

«هيّا يا خال جافن، يالطيف ياخال جافن، لنأخذه بعيداً عن الطريق، على الأقل لنأخذه إلى الغابة».

قال الخال: «أثبت. جميعهم مروا في الوقت الحاضر. الآن هم برمتهم في المدينة»، استمر في مراقبة العجوز الذي انحنى وراح يزيح بطريقة غير متقنة بواسطة يده الوحيدة الرمل العالق فوق العينين والمنخرين والأنف، فبدت يده متفحصة وثابتة في هذا العمل، وهي التي تمتعت بالمرونة والرشاقة، تأهباً للعنف:

وهي تمر على أزرار القميص وعقب المسدس وزنده: بعدئذٍ انتقلت اليد إلى الخلف فمرت على جيب وركه غير أن الخال في الوقت نفسه أخرج محرمة ومدها فجاء تصرفه هذا بعد فوات الأوان إذ جثا الرجل المسنّ عندها على ركبتيه وهز طرف قميصه وانحنى كي يكون قريباً من الجثة، ومسح به وجه الميت أو ما كان يعلوه ومن ثم حاول الإنحناء لينفخ الرمل الرطب عنه ناسياً أن الرّمل مازال رطباً. من جديد انتصب العجوز واقفاً وقال بصوت مديد عال عريض لا تغيّر في طبقته بتاتاً: «لابأس يا شريف؟».

قال الشريف: «ليس لوكاس بو شامب يا سيّد جوري. كان جاك مونتجمري في جنازة فنسون البارحة. كما كان لوكاس محتجزاً عندي في سجن البلدة بينما كان دفن فنسون مستمراً».

قال جوري المسنّ: «أنا لا أتحدث عن جاك مونتجمري يا شريف».

قال الشريف: «ولا أنا يا سيد جوري. لأن المسدّس القديم من عيار واحد وأربعين الذي قتل فنسون لم يكن مسدس لوكاس».

فكر في نفسه وهو يراقب *لا! لا! لا تقل ذلك! لا تسأل!* لأول وهلة أعتقد أن العجوز لم يصدق وقد وقف مواجهاً الشريف إنما دون أن يظهر إليه لأن أجفانه المرتجفة نزلت وأخفت عينيه من جانب آخر بنفس

الطريقة التي تنزل بهـا عندمـا ينظـر المـرء إلى الأسـفل نحـو شـيء لا علـى التعيين تحت قدميه فلم يكن بوسعك في حقيقة الأمر القول فيما إذا أغلقهـم العجوز أو فقط كان ينظر إلى الأسفل نحو ما كـان واقعـاً علـى الأرض بينـه وبين الشريف. لكنه كان مخطئاً، فقد ارتفعـت الأجفـان مـرة تلـو الأخـرى وراحت عيون العجوز الشاحبة القاسية تتفرس في الشريف، من جديد عـلا صوته كأنـه ينـادي تسـعمائة شـخص مـن أصـل تسـعمائة بنـبرة يخالطهـا الابتهاج:

«ما السلاح الذي قتل فنسون أيها الشريف؟».

أجاب الشريف: «قتل بمسدس لوجر ألماني أتوماتيك يـا سيّد جـوري. مثل الذي جلبه بودي مكّالوم من فرنسا عام 1919 وقايضه في ذلك الصيـف مقابل زوج من الكلاب الصائدة للثعالب».

فكر: كيف للأجفان أن تطبق من جديد عند هذا الحد؟ لكنه كان علـى خطأ مرة أخرى: حتى التفت العجوز في النهاية، بسرعة ومرونة بـآن معـاً في حركته، وتحدث في الوقت نفسه بلهجة قطعيـة وصـوت عـال، دون أن يكون رافضاً للمعارضـة أو الجـدل، بـل ببسـاطة غـير قـادر علـى تصوّرهـا «لابأس يا أولاد. لنحمل جثّة ابننا على البغل ونعود أدراجنا إلى البيت».

الفصل التاسع

كانت الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم وكانوا في سيّارة خاله خلف العربة (وهي شاحنة بيكآب أخرى صادرها الشريف، مع قفص ماشية مضلّع، متروكة فوق مسكبة في باحة مرصوفة بالحجارة أمام دار مهجورة على مسافة ميلين، فيها هاتف أيضاً على حد علم أحد أبناء جوري التوأمين - تذكر كيف تساءل في نفسه لماذا كانت العربة هناك، وكيف وصل من تركوها أنفسهم إلىالبلدة - وكيف أدار ابن جوري مفتاح التشغيل بواسطة شوكة طعام وجدها هو في المطبخ غير المقفل حسب توجيهات جوري عندما دخل خاله إلى زاوية الهاتف للإتصال بالمحقق بالوفيات المشتبه بها ومن ثم قام ابن جوري بقيادتها) بسرعة وثبات، طرفت عينه لا من جرّاء الضوء بل من جراء جسم حار خشن لا على التعيين أشبه بنُثار زجاجٍ عليٍ الأرض دخل أجفانه (لابد أن يكون غباراً بعد قطع اثنين وعشرين ميلاً من الطرقات الغريبة المليئة بالغبار والحصى في صباح واحد وما من غبار مثل هذا يقاوم الذوبان في اخضلال العين) بدا أنه شاهد حشداً على الجانب الآخر من الشارع المقابل للسِّجن لا يضم أناساً من المقاطعة أو من مناطق بيت ون وتو وثري وفايف يرتدون بدلات الكاكي الباهتة دون ربطات عنق مع بنطال دنيم أزرق وثياب قطنية مزركشة وإنما أناساً من البلدة أيضاً — ليس فيهم فقط الوجوه التي كان يشاهدها تخرج من سيارات بيت فور المغبرة أمام الحلاق وصالة البليياردو

بعد ظهر يوم السبت ويشاهدها فيما بعد في صالون الحلاقة صباح الأحد والتي شاهدها هنا في الشارع بعد ظهر السّبت عندما قاد الشّريف السيارة مصطحباً لوكاس، وإنما وجوهاً أخرى بما فيها وجوه المحامين والأطباء ورجال الدّين الذين لا يشكّلون مجرد بلدة وإنما «البلدة» على وجه التحديد، من تجار وشراة القطن وتجار السيّارات ورجال أكثر فتوة من الموظفين في مخازن ومكاتب ومستودعات القطن ومن العمال في الكراجات والعمّال في محطّات الوقود وهُمْ في طريق العودة إلى العمل بعد الغداء ـ اندفعوا سلفاً دون انتظار اقتراب سيارة الشريف للتأكد منها وبدأوا يتدفقون إلى الخلف نحو الساحة أشبه بانعطاف مياه المد والجزر، لدى وصول سيارة الشريف إلى السجن، كما تدفقوا في موجة واحدة عائدين إلى الساحة مجتمعين في اتجاه واحد عبرها عندما استدارت سيارة الشريف أولاً والعربة ثانياً وسيارة الخال بعدهما إلىزقاق واقع خلف السجن يؤدي إلى طريق شديد الانحدار نحو باب الحانوتي الخلفي حيث كانت زاوية الشارع تنتظرهم: بحيث، أن سيارة الشريف لم تتحرك على استقامة واحدة مع الآخرين خلف الكتلة البشرية المعترضة في الطريق بل باتّجاه الأمام، فقد وصلت إلى الحانوتي أولاً، بعدئذ على حين غرة علم أن الكتلة البشرية سالت في الزقاق قبل أن يتمكن من الالتفات في المقعد كي ينظر إلى الخلف وخلال جزء من الثانية بدأ هديرها يتعالى عليهم ويباغتهم ويطبق عليهم على التّوالي: بدءاً بسيارة الخال مروراً بالعربة وانتهاءً بسيارة الشريف كثلاثة أخمام دجاج دفعت بهم الكتلة البشرية إلى الأمام وقذفت بهم وعزلتهم وسط خضم لا سبيل إلى الخروج منه لا قيمة له حالياً نحو الطريق المنحدر عن منعطف الزاوية، بعد أن توقف في المكان تهيّأ له في هذه الأثناء أنه اتكأ خارج النافذة أو ربما تشبّث بالقدميّة صائحاً بهم على وجه التحديد بشيء من الحنق لا يحتمل ولايمكن تصديقه:

«أيها الحمقى، ألا ترون بأنكم تأخرتم كثيراً، وأنكم يجب أن تبدأوا كل شيء من جديد لإيجاد سبب آخر؟» بعدئذ شاهدهم بالفعل بعد أن التفت في مقعده ونظر إلى الخلف عبر الزجاج الخلفي لثانية أو ثانيتين شاهده ـ لم يكونوا وجوهاً عديدة بل وجهاً واحداً، لم تكن هنالك كتلة أو

صورة فسيفسائية من الوجوه بل وجهاً واحداً: غير مفترس ولا شرس إنما في حالة حركة، معدوم الحس، خال من التفكير أو حتى العاطفة: يعلوه انطباع لا ماض له ولا قيمة أشبه بانطباع يتبلور في لحظته بعد ثوان أو دقائق من التحديق المتعب إلى تجاور الأشجار والغيوم والمعالم الجغرافية في صورة تجميعية لإعلان عن الصابون أو رأس مقطوع في صورة إخبارية تعبر عن الوحشية في البلقان أو الصين: دونما تبجيل أو حتى إثارة إحساس بالهلع بدا له وجهاً لوجه دون رقبة بكل ما في الكلمة من معنى، عضلاته مرتخية يبدو النعاس عليه، تدلى عنوة وتعلّق مباشرةً خلف زجاج النافذة الخلفية وفي نفس اللحظة اندفع إليه سريعاً رهيباً فارتد إلى الخلف وشرع بالتفكير بمرور لحظة أخرى خاطفة! لم يتلاش الوجه فحسب وإنما تلاشت جميع الوجوه، فبدا الزقاق خلفهم خالياً تماماً: لم يكن ثمة شخص أو شيء فيه البتة أما في الشارع الواقع خلف المدخل الخاوي فقد وقف حوالي اثنا عشر شخصاً في تلك اللحظة يرقبون الزقاق وراءهم شاهدهم يستديرون ويأخذون بالتوجه عائدين أدراجهم إلى الساحة.

تردد للحظة فقط. ***جميعهم ذهبوا إلى أمام السجن*** فكّر هو بسرعة وبهدوء تام، اضطرب بعض الشيء (لاحظ أن السيارة أوقفت الآن) وهو يخرج يده إلى مسكة الباب، لاحظ أن كلا من العربة وسيارة الشريف قد أوقفتا عن سلم تحميل الأغراض فيما كان أربعة أو خمسة رجال ينزلون نقالة للجرحى من على باب نهاية الشاحنة المفتوح وسمع بالتحديد صوت الخال خلفه:

«نحن ذاهبون حالياً إلى البيت معا لتنام قبل أن تأتي أمك بالطبيب ليعطينا معاً حقنة من الإبرة»، بعد ذلك، اهتدى إلى المسكة وخرج من السيارة، متعثراً في خطاه نوعاً ما لكن لمرة واحدة فقط، رغم أنه لم يكن يركض محدثاً خلفه صوتاً مزعجاً على الإسمنت، عضلات ساقيه كانت تعيقه من كثرة الجلوس في السيارة أو من جراء تصلب في الساق ناجم عن تقليب وإزاحة أعقاب الأغصان عدا عن تمضية الليلة الماضية في حفر قبور وردمها لكن الارتجاج كان في الحد الأدنى يصفّي رأسه نوعاً ما أو قد تكون الريح الناجمة عن اطراد الحركة هي التي فعلت ذلك؛ على أية حال إذا ما

حصلت أوهام معه فإن لديه على الأقل ذهن صاف للنظر إليها من خلاله: على المشى الواقع ما بين دكان الحانوتي والبناء المجاور له بالرغم من أن الوقت متأخر بالطبع، بدا الوجه في انبثاق وتجلّ مديد أخير في عرض الساحة والرصيف، وفي ارتطام أخير في عرض صفحة زجاج النافذة ومن ثم في وسطها مباشرة حطم كلا من شعار العضوية في رابطة المشيّعين الوطنية الصغير المصنوع من البرونز والأبنوس والنخلة الرثة الوحيدة العديمة النمو في أصيصها الخزفي الداكن الإحمرار إلى شظايا، ومزّق إلى أسمال ضئيلة ستارة أرجوانية خفّفت الشمس من لونها كانت آخر حاجز سهل الإزاحة يحجب عن الأنظار ما تبقى لدى جاك مونتجمري من حصته في الكرامة الإنسانية.

بعدئذٍ خرج من الممر وسار على الرصيف الجانبي، في الساحة، وتوقف بثبات تام للمرة الأولى حسبما بدا له، بعد أن ترك مع خاله طاولة العشاء وخرجا من البيت قبل أسبوع أو شهر أو سنة أو متى كان ذلك في مساء الأحد الماضي. وذلك لأنه هذه المرة لم يكن بحاجة ولو إلى النقر على زجاج النافذة. كانوا هنالك بالطبع ضاغطين بأنفهم على الزجاج لكن لم يكن عدد الموجودين منهم كافياً لإغلاق الرصيف أو تكوين الوجه إياه؛ كانوا أقل من اثني عشر هنا أيضاً بينهم أولاد من المفترض أن يكونوا في المدرسة تلك الساعة ـ ليس بينهم أي وجه ريفي أو أي شخص في سن الرجولة لأن الخمسة أو الأربعة الاخرين كانوا بحجم الرجال وما هم برجال أو أطفال اعتادوا أن يتواجدوا عندما كان أنكل هو جي موسبي العجوز المصاب بالصرع ينفجر من الملجأ مرغياً مزبداً على البالوعة الواقعة إلى جانب الطريق أو عندما يصمم ويلي إنجرم في النهاية إطلاق النار من تحت رجله أو من بين ساقيه نحو كلب مسعور بناء على هاتف إحدى السيدات: توقف على المدخل واتجه إلى ممر المشاة بينما كان خاله آتياً وقد أحدث صوتاً خلفه. من جراء المشي، بعد أن طرفت رموش عينيه المتعبتين الجافتين راح يراقب السبب: الساحة ليست خالية بل أخذت تخلو لأن الكثيرين، ممن يرتدون الخاكي والدنيم والقطن المنقوش أخذوا يحتشدون إليها وعبرها باتجاه السيارات والشاحنات المتوقفة، يتكتلون على أبوابها ويزحفون واحداً تلو الآخر ويتسلقون إلى المقاعد والمضاجع وسيارات الأجرة؛

فتشتغل في هذه الأثناء مشعلات الحركة الذاتية في السّيارات وتأخذ المحركات بالعمل ويعلو هديرها ويهدأ فتصّر تعشيقة ناقل الحركة في السيارة وتضج بصوتها بينما المارة مستمرون بالإسراع إليها عند ذلك لا يخرج إليها على الفور واحد فحسب من جانب الطريق بل خمسة أو ستة يستديرون ويسيرون مع اتجاه المستمرين بالجري نحوها ويتزاحمون فوق السيارات فلا يعود هو بعد ذلك قادراً على متابعتهم رغم المحاولة، إلى جوار الخال كان يراقبهم يتكاتفون في أربعة جداول في الشوارع الرئيسية الأربع المؤدية إلى خارج المدينة في الاتجاهات الأربعة، منطلقين بسرعة حتى قبل أن يغادروا الساحة، طوال اللحظة الأخيرة، الوجوه تنظر إلى البعد لا إلى الخلف لا على التعيين نحو هدف بعيد لمرة واحدة لاتتكرر ولوقت محدود، ويختفون بسرعة في مشهد جانبي وعلى ما يبدو يسافرون بسرعة أكبر من سرعة العربة التي تقلهم، حاملة وجوههم خارج المدينة قبل أن يختفوا من المشهد بوقت طويل: وبضعفي سرعة اختفائهم عن السيارة؛ على حين غرة انتصبت أمه واقفة دون أن تلمسه، من الواضح أنها عبرت الممر من السجن تماماً إلى حيث كانوا على الأغلب منهمكين في سحب مونتيجمري خارج العربة من جانب آخر قال الخال بعدئذ أن بوسعهم إيقاف أيّ أمر إذا ظلوا محتفظين دائماً بالحق في رفض الإعتراف أنه كان مرئياً، وخاطبت الخال قائلة:

«أين السيارة؟» من ثم سارت في الممر نحوهم، دون أن تنتظر جواباً، بجسدها الهزيل المنتصب الصلب ومنظرها الخلفي وأخذت أعقابها تطقطق وتقرقع على الإسمنت أشبه بالضجيج الذي أحدثه في البيت، هو وألك ساندر ووالده وخاله، ففضلوا السير بخفة متناهية لبرهة، عائدة في المنحدر إلى حيث كانت في النهاية سيارة الشريف الخالية والعربة الخالية الأخرى تقفان وتابعت سيرها في الزقاق حيث فتحت باب السيارة عندما وصل مع الخال إلى هناك وشاهدتهم من جديد يعبرون مدخل الزقاق أشبه بعبور المنصة ـ السيارات والشاحنات، إضافة إلى منظر جانبي لوجوه لا تقهر غير مندهشة أو مذعورة إنما يعلوها انكار متعذر تغييره، تتدفق إلى مدخل الزقاق باطّراد دونما انقطاع إلىحد أن الكثير منها بدا أشبه بفرقة طلاب مدرسة

عليا في سنة التخرج أو بفرقة جوالة تقدم عرضاً مسرحياً عن معركة سان جوان هيل في النهاية أنت لا تسمع الأصوات المتداخلة المكتومة الدفينة خلف الخشبة ولا تحتاج حتى للإصغاء إليها مثل حاجتك إلىمشاهدة وحدات عسكرية في موكب أو استعراض تمضي فور وصولها إلى جانحي المسرح المظلمين في ركض مسعور مضطرب وتبدّل القبعات والمعاطف والضمادات المزيّفة وتتكتل في الخلفية وراء القماش الجبنيّ المتموج المطليّ برسم يجسد المعركة والشجاعة والموت الذي يُسْدَلُ على آخرهم مع تسليط أضواء مقدم المنصة على الاهتمام بالبطولة من جديد.

قال هو: «سنوصل الآنسة هابرشام إلى البيت أولاً».

قالت أمه: «ادخل» باستدارة إلى اليسار نحو الشارع الواقع خلف السجن كان بوسعه متابعة الاستماع إليهم وباستدارة أخرى إلى اليسار نحو الشارع المتقاطع التالي هناك بدوا من جديد يتدفقون باستمرار دون انقطاع كأنهم يتحركون عبر الجزء الأمامي من خشبة المسرح، وجوه صلبة في منظر جانبي فوق صوت متقطع طويل صادر عن الإسمنت والمطاط استغرق هو دقيقتين أو ثلاث في الشاحنة هذا الصباح حتى تسنّى له اختراقها والذهاب في نفس الطريق الذي كانت تسير فيه؛ وقد يستغرق الخال خمس دقائق أو عشرة لإيجاد ثغرة ينسل منها ويعود أدراجه إلى السجن.

قالت أمه: «تابع. أرغمهم على السماح لك بالدخول»: عرف أنهم ليسوا ذاهبين بجانب السجن على الإطلاق؛ فقال: «يا آنسة هابرشام».

قال الخال: «كيف أتصرف؟ هل أغمض عينيّ وأدوس بشدة بقدمي اليمنى؟» ربما فعل؛ كانوا أيضاً في موكب متصل مستديرين به نحو البيت وكان هذا أمراً ، لم يكن قلقا البتّة بشأن الدخول في الموكب وإنما بشأن الخروج منه ثانية قبل أن تدفع فوضىالسير العارمة بهم إلى الأمام ليس من جراء الهروب أو مما قد يطيب لأحدهم أن يسميه تراجعاً لتقذفهم مع حلول الظلام في النهاية على بعد عدة أميال وساعات في حالة إنهاك ويأس ترمي بهم الريح في مكان ما عند أبعد نقطة من حدود المقاطعة المرسومة بشق النفس على الخريطة فيعودون سيراً على الأقدام في الظلام: أردف قائلاً من جديد: «يا آنسة هابرشام...»

«لديها سيارة خاصة بها. ألا تذكر؟» قال الخال الذي كان ثابتاً لا يفعل شيئاً على مدى الدقائق الخمس الأخيرة، سوى القيام بثلاث محاولات لنطق تلك العبارة: كانت الآنسة هابرشام في العربة، وبيتها ليس على مسافة لاتزيد عن نصف ميل وكل ما كان يدفعها إلى الخلف هو أنها لم تستطع دخول الموكب، البيت في جانب والعربة في الجانب الآخر من ذلك الحاجز المستحيل اختراقه من السيارات والعربات المتدفقة المتلاصقة رفرفاتها بحيث يستحيل الوصول إليه من قبل عانس عجوزفي عربة بيكآب مستعملة لبيع الخضار وكأنه واقع في منغوليا أو على سطح القمر: جالسة[1] في عربة يعمل محركها وتلاحمت تعشيقة علبة السرعة فيها في التروس واضعة قدمها على دواسة البنزين متوحدة منعزلة مهجورة منتصبة مهملة تحت القبعة الموغلة في القدم المشرفة على التلف تنتظر وتراقب، لا ترجو في خاتمة المطاف شيئاً سوى المرور من الموكب حيث يغدو بوسعها وضع الثياب المرقعة جانبا وإطعام الدواجن وتناول طعام الغذاء والتماس بعض الراحة أيضاً بعد أن استمرت في رحلة على مدى ست وثلاثين ساعة هي بالنسبة لعجوز في السبعين أسوأ من رحلة طولها مائة ساعة ليافع في السادسة عشرة، بعد أن راقبت وانتظرت تلك الغشاوة الجانبية الباعثة على الدوار للحظة لبرهة طويلة لكن ليس لفترة طويلة جداً إلى الأبد لأنها كانت سيدة عملية لم تستغرق طويلاً ليلة أمس لتقرر أن أفضل طريقة يخرج بها جثمان ميت من قبره تتلخص في الذهاب إلى القبر ونبشه، لم تستغرق وقتاً طويلاً الآن لتقرر أن السبيل للتخلّص من العائق سيّما وأن الشمس مشرفة على الغروب يتلخص في الدوران حوله، كانت العربة تجري بخط مستقيم بموازاة العائق ونحوه، وكانت هي وحيدة متوحدة منعزلة متوترة الأعصاب إلى حد ما، ربما لأنها لاحظت على وجه التحديد أنها في ذلك الوقت تقود السيارة بأسرع قليلاً مما اعتادت وأحبت أن تقود، بأسرع في الحقيقة مما سبق لها أن قادت من قبل وعلى وجه التحديد بعد أن امتنعت عن ترك حيز بينها وبين العائق وبالغت في الاقتراب منه لأنها كانت في

---

(1) - خبر كانت قبل خمسة أسطر.

سرعة قصوى الآن، إلى جانبها تعالى أزيز دون انقطاع؛ آنذاك علمت أن لا مهارة لديها أو حتى برودة أعصاب كافية لإحداث فجوة في الموكب: واصلت القيادة بسرعة أكبر وأعلى بغية المبادرة لعدم فقدان الفجوة بعين واحدة ولمراقبة المكان الواصلة إليه بالعين الأخرى حتى أنها لم تلاحظ حتى مضت برهة أنها لم تنعطف جنوباً بل شرقاً ولم يأخذ بيتها وحده ينأى بسرعة وبشكل مريع خلفها وإنما جيفرسون أيضاً لأنهم أو لأن الموكب لم يكن يتحرك في اتجاه واحد نحو خارج المدينة بل في جميع الإتجاهات على كافة الدروب الرئيسة التي تحملهم على التوجه من غير تفكير بعيداً عن السّجن وعن دكان الحانوتي ولوكاس بوشامب وما تبقّى من فنسون جوري ومونتجمري أشبه بالبقّ المبعثر الهائج فوق بركة مليئة بالمياه الآسنة عندما تُلقي حجراً فيها:

باتت أكثر تشاؤماً من أي وقت مضى باجتياز المسافة الفاصلة بينها وبين البيت وقضاء مساء مقبل آخر، ولدى المرور فوق أيّة حفرة أو أي أخدود كانت أعصابها تتوتر، بالكاد كانت الشاحنة المعطوبة تطوي الأرض إلى جانب ذاك الضباب المتاخم غير المكن اختراقه الداني ببطء شيئاً فشيئاً منها عندما يقع ما لا يمكن تجنبه، كإصابة عينها ببعض الضعف أو الارتجاف أو إغلاق الأجفان لا إرادياً من جرّاء حملقة متوترة أو شاقة أو ربما من جرّاء التحديق في العالم الطبوغرافية البسيطة، كصخرة أو كتلة ترابية متعذّر الوصول إلى اتهامها بالحادثة تعذر الوصول إلى الله لكنّها على أية حال قريبة ومبطئة في الظهور، ارتفعت السيارة فوق وضمن وابل من مطاط الرولمانات[1] والصلب المضغوط الذي تم صرف المال مجدّداً من أجله ووسط فوضى اختلط فيها الحابل بالنابل راحت ببطء تحرّك عجلة القيادة العدمية اللزوم وتضغط على دواسة البنزين الضعيفة وحيدة معزولة أثناء الانسلال الآمن البطيء لفترة ما، في قبة الغسق البنفسجية الخالية من الريح، وتسرع شيئاً فشيئاً باتجاه تصعيد نهائي بالضبط في هذا الجانب من

(1) - BALL BEARING الرولمانات: جزء من الماكينة تدور فيه أجزاؤها المتحركة دوراناً سلساً على كرات معدنية مرنة.

حد المقاطعة الفاصل حيث ينفجرون متناثرين في كل مفترق طرق وممر ضيّق كالأرانب أو الجرذان الآخذين بالاقتراب كل من جحره في خاتمة المطاف، كانت الشاحنة تخفف من سرعتها وتتوقف قليلاً في مفترقات طرق فرعية على الطريق وقد تكون القوة الدافعة سبباً في ذلك لأنها كانت بسلام، في مقاطعة كروسمان حيث تمكنت من التوجه جنوباً من جديد على طول مقاطعة يوكناباتاوفا مشعلة الأضواء سائرة بكل ما لديها من سرعة على طرقات الريف المتعرجة غير الواضحة المعالم؛ مع حلول الليل بات بوسعها أن تتجه غرباً في مقاطعة موت أو تجرّب حظها في الاتجاه شمالاً وتضرب ضربتها، في الساعة التاسعة أو العاشرة على الطرقات غير الواضحة ذات الحوافّ المتخيّلة المتهدبة التي خلفها تومض المصابيح الأمامية المتوهجة البعيدة في السيارات وتندفع كالسهم إلى جحورها وأوكارها؛ ولدى وصولها إلى مقاطعة أوكاتوبا عند منتصف الليل يغدو بإمكانها حتماً الإتجاه شمالاً والعودة أدراجها إلى يوكنا باتوفا، شاحبة خائرة القوى متوحدة منتصرة وسط الجداجد وضفادع الشجر[1] والحباحب والبوم والسبد الأمريكي والخنازير وكلاب الصيد الراكضة النابحة تحت المنازل الهاجعة وفي حضور رجل يرتدي قميصه الليلي وحذاءه غير المربوط يحمل قنديلاً:

أين تنوين الذهاب يا سيدتي؟

إني ذاهبة إلى جيفرسون.

جيفرسون خلفك يا سيّدتي.

أعرف. يجب عليَّ الإنعطاف حول عجوز زنجي متعجرف لا يطاق أوقع البلدة برمتها في بلبلة في محاولة الادعاء أنه قتل رجلاً أبيض:

عندما اكتشف على حين غرة أنه موشك على الضحك، أحس بذلك في الوقت المناسب، ليس بالضبط في الوقت الملائم لكبت الضحك بل في اللحظة الملائمة للبدء في كبته بسرعة خاطفة، وقد تملكته الدهشة منه، قالت أمه بخشونة:

(1) - TREEFRG ضفدع الشجر: ضفدع صغير يسكن الأشجار.

«أطلق الزمور. شتتهم خارج الطريق» وتبيّن لـه أن ذاك لم يكـن ضحكـاً على الإطلاق أو بالأحرى لم يكن ضحكاً فحسب، بدا أكثر اضطراباً مع انطلاقه وبقدر ارتفاع الصوت وضخامته بقدر ما قلّ تذكره من أي شيء كان عليه أن يضحك وقد تعرّق وجهه على حين غرّة لا بسيلان وإنما بنـوع من الإنفجار أو الانبثاق المائي، بأي حال من الأحوال كان هناك، هو الشخص ذو الكتلة الضخمة الثاني من حيث الضخامة بينهم هم الثلاثة،يفوق والدته حجماً أكثر مما يفوقه خاله جسامة، وقد أشرف علـى السابعة عشرة من عمره في سن الرجولة تقريباً ونظراً لأنهم كانوا ثلاثة أشخاص محشورين في سيارة فلم يستطع تجنب الشعور بكتف امرأة يلامس كتفه ويدها الرفيعة على ركبته وقد جلس هناك مثل طفل مصفوع قبل أن يتلقى تحذيراً قطعياً بالكف عن تكرار خطيئة ارتكبها.

قال هو: «لقد ركضوا».

قالت أمه: «انسحب عليك اللعنة، انعطف حولهم» فانعطف الخال، على الجانب المعاكس من الشارع ومضى تقريباً بكل ما في وسعه من سرعة قاد بها السيارة هذا الصباح في الطريق إلى الكنيسة في محاولة للحاق بالشريف لا لأن أمه استنتجت أنهم طالما كانوا جميعاً في البلدة يبذلون أقصى ما في وسعهم للخروج منها فلن يكون هنالك أي شخص مقبل نحو الساحة في ذلك الجانب من الشارع بحيث أنك لاتحتاج أكثر من اصطحاب سيدة واحدة في سيارتك ولو لم تكن تقودها: تذكرهم مرة من قبل في سيارة الخال وقد قال الخال آنذاك: «تماماً، كيف أتصرف، أأغمض عينيّ ضغط على دوّاسة البنزين؟».

قالت أمه: «كم حادث اصطدام جرى مع نساء يقدن كلا السيارتين المتورطتين في الحادث سبق لك أن شاهدت؟».

قال خاله: «لا بأس، اصطدام واحد، ربما لأن واحدة من سيّارتهن ماتزال في الورشة لأنها صدمت رجلاً راكضاً نحوها البارحة»، بعد ذلك لم يعد بوسعه مشاهدتها وإنما بات يسمع صخباً طويلاً أشبه بصوت تمزق حرير خام صادر عن امّحاء عجلات السيارات من جراء احتكاكها بحجارة

الرصيف ومن حسن الحظ كان البيت على الجانب المخطىء[1] نفسه من الشارع لذا استمر في سماع الضجيج لدى دخول الفناء وطفق يجرب الضحك فيشرع به لحظة لأي سبب كان وسرعان ما ينفجر بالقهقهة رغم تأكده أن ذلك السبب لا يبعث على الضحك؛ بل بعيد مسير عشرة آلاف ميل عن الإضحاك مما حمل أمه على الشتيمة، هو قال: «لقد هربوا».

وعلى الفور علم أن ذاك خطأ، كان الوقت متأخراً جداً عندما وقف يتأمل نفسه هناك، أسرع الخطا عبر الفناء حتى توقف وقال دون أن يؤاتي بحركة سوى سحب الذراعين: «انظروا لست أعرج. أنا متعب فقط. سأصعد إلى غرفتي وأستريح لبرهة»: من ثم خاطب خاله قائلاً: «علاوة على ذلك سأكون على أحسن مايرام. اصعد وناداني بعد خمس عشرة دقيقة»، ثم توقف والتفت من جديد إلى خاله: «سأكون جاهزاً خلال خمس عشرة دقيقة» مضى هذه المرة حاملاً الضجيج معه إلى البيت وظلّ يسمعه حتى داخل غرفته من خلال الظلام المنسدل وهبط اللون الأحمر فوق أجفانه وبعد أن صعد حتى مسافة طيّة مرفق تحت يد أمه قال من جديد للخال الموجود وراء بداية الدرج: «خمس عشرة دقيقة. هل تعد ألا تذهب من دوني؟».

أجاب الخال: «بالتأكيد. لن أذهب من دونك. على وجه الدقة أنا».

ردّت أمه على الخال قائلة: «هل تفضلت بالذهاب من هنا إلى جهنم يا جافن؟» ثم أردفت قائلة له: «استلق» فانصاع للأمر وهناك مازال الكف على امتداد أو في نهاية اليد، نحيلاً بارداً وجافاً جداً وخشناً وربما كان بالغ البرودة والثبات، كان شعور جمجمته بحرارة وثبات العزم أفضل من شعور اليد به لأنه ألفه الآن، فقد رافقه زمناً طويلاً، استدار برأسه لا لشيء سوى لتجنّب ذلك الكف الرفيع السهل المكسر وكأنك تحاول إزاحة جبهتك من تحت وَخْمَةٍ ولم يعد هنالك ولو وجهاً واحداً لأن ظهورهم كانت نحوه، كان هنالك قفا الرأس: تركيب واحد لخلفيّة رأس واحدة وعاء صغير واحد بشكل البصلة سهل الكسر مليء بالعصيدة عديم المقاومة كبيضة مرعبة من حيث تكتلها المتناغم يندفع بعيداً لا نحوه.

---

(1) - يقصد بالجانب المخطئ وصول ضجيج الشارع إلى البيت.

قال هو: «لقد هربوا. وفّروا على ضمائرهم عشرة سنتات بامتناعهم عن شراء ربطة تبغ ليوضحوا أنهم سامحوه».

أجابت الأم: «إنسَ ذلك وخلّصنا» ودعوتها هذه أشبه بالطلب إلى رجل يتدلى بيد واحدة فوق جرف صخري أن يبقى متشبّثاً: لم يبق له الآن شيئاً سوى فرصة ليذهب وينسى في غيبوبة النوم أي أمر ضئيل ولو كان عدما مازال في ذهنه وهو الذي أراد ليلة أمس أن ينام وكان باستطاعته النوم غير أن وقته لم يكن كافياً ورغب بالنوم الآن أكثر من أي وقت مضى وكل الوقت المتوفر لديه لا يزيد عن الدقائق الخمس عشرة التالية (أو الخمسة عشر يوماً التالية أو الخمس عشرة سنة بقدر معرفة اي شخص كان لأن لا أحد يمكنه الإتيان بحركة سوى الأمل بأن يصمم كراوفورد جوري على التسلل والبحث عن الشريف ويقول لابأس أنا فعلت ذلك لأن كل ما يعرفونه هو أن لوكاس قال أن فنسون جوري لم يتلقّ عياراً نارياً من مسدس كولت واحد وأربعين أو بأي حال من الأحوال ليس من مسدسه، مسدس لوكاس الكولت طراز واحد وأربعين وبأن يقول بودي مكّالوم أو لايقول نعم بعث كراوفور جوري مسدساً ألمانيّا منذ خمسة وعشرين عاماً ماضية، بأن يحظى فنسون جوري بأحد عناصر الشرطة في ممفيس ليأتي ويفحصه ويحدد أية طلقة قتلته بعد أن سمح الشريف لجوري العجوز بإعادة الجثة إلى البيت وغسل الوعث عنها وموراتها الثرى من جديد غداً: بعدئذٍ يغدو بإمكان هامبتون وخاله الذهاب إلى هناك مساء الغد والقيام بنبش القبر) في النهاية نسي كيف: أو ربما تلخّص الأمر في النهاية أنه لا يجرؤ على التخلي عن أي شيء لديه مهما كان ضئيلاً ولم يكن لديه شيئاً يستحق الذكر: من حزن أو أسى أو حتى شعور بالعار، أو إثبات للنطق الأزلي لكلمة إنسان يقولها الإنسان لقرينه من خلال التطهير عن طريق الشفقة والعار لكن بدلاً من ذلك عجوز في أرذل العمر لا يشكل الحزن بالنسبة له عنصراً أساسياً من مقوّماته الشخصية بل مجرد ظاهرة آنية تتعلق بابنه الذبيح يقلب جثّة مجهولة رأساً على عقب لا استرضاء لصرخة اتهام مكتومة منه وليس بدافع الانتقام لكن في سبيل العدالة ليتأكد فحسب أنه لم يعثر على الجثة المطلوبة، يبكي بصوت عال بابتهاج دونما ارتباك: «إنه

مونتجمري اللعين عليّ اللعنة إن لم يكن هو» مجرد وجه لم يعد يتوقع سحب لوكاس من الزنزانة على الأكتاف في خضم التكفير عن الخطأ وحثه على التحدث احتفالاً بلحظة إعادة اعتباره وانتصاره لِنَقُلْ عند قاعدة النصب التذكاري الإتحادي (أو من الأفضل أن يكون على شرفة مبنى دائرة البريد تحت السارية التي يرفرف العلم الوطني في أعلاها) وبقدر ما توقع حدوث ذلك له ولألك ساندر والآنسة هابرشام، هو (نفسه) لم يرغب بذلك بل لم يقبل الأمر طالما أن هذا ألغى وأبطل كل الإسهام الذي قام هو به والذي سُجِّل باسم إنسان مجهول آخر وكان أمراً عديم القيمة:

بالطبع أراد أن يترك أثراً يدل على وجوده في زمانه لدى الإنسان فقط، لا أكثر ولا أقل، إشارة تدل على دوره فوق قطعة من الأرض لكن بتواضع، من يرغب وينتظر بلا غرور، دون أن يأمل في حقيقة الأمر شيئاً محدداً، لا شيء (كان بالطبع كل شيء) سوى فرصة مماثلة من جانب آخر في الإقدام على عمل بمنتهى الحماس فيه الكثير من الشجاعة والصرامة في خضم سيرة حياة مثابة جديرة بشغل موقع لها على وجه الأرض لا على هامشها فقط (من يدري؟ إضافة مثقال ذرة من القساوة إلى تأريخ عمل شجاع متهور) تعبيراً عن الامتنان للهدية التي وهبها زمانه له من خلال هذه الفرصة، كان يرغب بذلك دون أمل بنيله في واقع الأمر، أراد قبول حقيقة افتقاده لها لأنه لم يكن جديراً بها، لكنه بالتأكيد لم يتوقع ذلك ـ لا حياة أنقذت من الموت ولا موتاً أنقذ من المذلة وحظي بالقداسة ولاتم الامتناع المؤقت عن إصدار حكم قاس بل تم إغفال موعد تاريخي ما بدافع الضغينة، فالمعاملة المهينة ليست معيبة بتجاهلها المزري فلا يذكر السموّ والتواضع مع التواضع والإباء إلى جانب الافتخار بالشجاعة والغيرية والتعاطف والزهو والأسى، وإنما تنحط القسوة. بحد ذاتها بما وصلت إليه، والشجاعة والغيرية تتسخان بما كان عليهما أن يتغلّبا عليه ـ هو وجه، صارم يعبر عن أبناء قومه ووطنه، وشعبه ودمه ووجهه الذي معه تغدو بهجته وفخاره وأمله أموراً جديرة بالحضور في جبهة موحدة متكاملة لا تتجزّأ في لجة الليل البهيم ـ وجه كريه ضار مفترس نهم متخم، غير خائب أو معارض، لايلوي على شيء ولاينتظر ليس به حاجة للصبر طالما أن الأمس واليوم والغد كلّ

لا يتجزّأ، كيان واحد (الخال معنيّ بذلك أيضاً، وترقبه كذلك الأمر منذ عامين أو ثلاثة أو أربعة أعوام مضت كعادة خاله في التحسب لأي أمر آخر بينما كان هو يدخل مرحلة الرجولة شيئاً فشيئاً ويكشف الحقيقة:

تمّ كل شيء الآن كما ترى. لن ينتهي الأمس إلا غداً والغد يبدأ منذ عشرة آلاف عام مضى. كانت لحظة الفصل لكل ولد جنوبي في الرابعة عشرة من عمره، لا مرة واحدة وإنما في أي وقت يشاء، عندما شارفت الساعة على الثانية من بعد ظهر أحد أيام شهر تموز عام 1863، حين أخذت الأولوية مواقعها خلف السياج المقصّب، وأشهرت البنادق ووضعت على أهبة الاستعداد في الغابات وأشرعت الأعلام المطوية لتبدأ بالخفقان بينما كان بيكيت نفسه بخصل شعره الدائرية يحمل القبعة في يد والسيف في اليد الأخرى يتطلع إلى المرتفع منتظراً أمر البدء من لونج ستريت وقد بدا كل شيء في الميزان، لم يحدث شيء بعد، لم تبدأ الحرب بالأحرى لم تكن قد بدأت وتبقى لها وقت لكي لا تبدأ ضمن هذه الأوضاع وتلك الظروف التي جعلت المزيد من رجال مثل جارنت وكيمبر وأرمستد وويلكوكس يبدون وقورين قبل أن ينشب القتال، نحن جميعاً نعرف ذلك، جئنا من مسافات بعيدة نحمل الآمال العريضة وتلك لحظة لا تحتاج حتى إلى فتى في الأربعة عشر ربيعاً ليفكر الآن. *هذه المرة ربما هذه المرة* بكلّ ما يمكن فقدانه أو كسبه: من بنسلفانيا، أو ماريلاند، أو العالم، القبة الذهبية لواشنطن تتكلّل بنصر يائس لا يصدّق كان مغامرة يائسة طلع النرد بها قبل سنتين، أو بأي شخص أبحر بمركب صغير ذي مجاذيف تحت أشرعة مرفوعة، كانت لحظة الفصل عام 1492 عندما فكر امرؤ (وجدتها): وهي حافة اللارجوع المطلقة، في أن يعود الآن ويؤسس وطناً أو يبحر نهائياً فإما أن يجد اليابسة أو يغرق في خضم المحيط الهادر. الغد صوت رفيع، صوت أطلقته امرأة شاعرة مرهفة أيام شبابنا *في كلّ يوم تبيت الشمس غاربة، والشاي قد تمضي مع الأوراق*، جاء شطحة شاعرة تعكس الحقيقة في المرآة رأساً على عقب وبالمقلوب بشكل تام باعتبار أن الشخص العديم الحكمة الذي يتلاعب بالمرآة والمشغول بالافتراضات نسي أن قفا المرآة مصنوع من الزجاج أيضاً لأنهم إذا فكروا في النهاية، في بديل لغياب شمس الأمس

وتناول شاي الأمس لوجدوا أن كليهما أمران لا سبيل إلى استردادهما من رواسب غير قابلة للتلف والسكب تتناثر في مسالك الغد اللامتناهية، تغطي الأحذية التي نمشي بها وتغطي حتى الشراشف التي سننام (أو نحاول النوم بينها.

لأنك لن تنجو، ولن تهرب، والمطارد هو الشيء الذي يقوم بالركض ومساء الغد ليس سوى عراك لا يعرف النوم مع إغفالات الأمس وتوباته)، وهو لم يعلّق موتاً لا على التعيين مؤقتاً أو بالأحرى موت لوكاس بل أغفل لوكاس فحسب، بجعل لوكاس في عشرة آلاف تجسيد فكرة السامبو، ينطلق مسرعاً غير مكترث أو مدرك عبر تلك الفوّهة أشبه بفأر يمر من فتحة آلة القطع إلى أن تجيء لحظة غفلة تهوي فيها الشفرة بلا اكتراث ولا اهتمام ولامبالاة؛ وبجعل الغد على أقل تعديل أو الغد على أكبر تعديل أو ربما في هذا الوقت يتدخل حيث لا يهاب الملائكة أطفالاً بيضاً أو أطفالاً زنوجاً في سن السادسة عشرة وعانسا بيضاء تشارف على الثمانين؛ ركضوا، وهربوا ليتجاهلوا لوكاس أو ليتجنبوا واجب إرسال علبة تبغ إليه مع مستخدم الصيدلية لا ليقولوا إنهم كانوا أبدا آسفين بل ليوفروا على أنفسهم بعملهم هذا قول عبارة نحن مخطئون علناً وصراحة: وطأ الجرف الصخري ليصعد في اندفاع متهوّر شيئاً فشيئاً وراح يسمع الصوت كان صوتاً أقل تذبذباً يسمعونه الآن ويصغي إليه، دون أن يؤاتي بحركة أو يفتح عينيه وهو يستلقي لحظة كي يسمع ذلك الصوت، بعدئذ فتح عينيه وبدا خاله كصورة ظليلية مقابل الضوء على أوّل درجات السلّم في ذلك الصمت الكلّيّ المطبق الساكن الذي لا يعكر صفوه سوى تنفّس الظلمة والبق والضفادع: لا هروب ولا تراجع في هذه اللحظة ولاحتى المزيد من الإلحاح في أيّ مكان داخل الغرفة أو خارج الغرفة فوق أو تحت أو أمام أو خلف أصوات ضئيلة صادرة عن الوحوش الكثيرة وعن امتداد الصوت أو توقفه في ليلة صيفيّة.

قال هو: «لقد ذهبوا».

ردّ الخال: «أجل من المحتمل أنهم نائمون جميعا في هذا الوقت. دخلوا إلى البيت ليحلبوا الماشية وليغدو هناك متسع من الوقت قبل حلول الظلام لنشر خشب من أجل طعام الصباح في الغد أيضاً».

قال هو: «هربوا» لمرة واحدة وبقي ثابتاً دون أن يتحرك.

قال الخال: «لا. الأمر أكثر من ذلك».

قال هو: «هربوا. وصلوا إلى مرحلة لا يمكن أن يؤاتوا فيها بحركة سوى الاعتراف بأنهم مخطئون. وهكذا هربوا عائدين إلى البيت».

«على أقل تقدير كانوا يتحركون» قال الخال: عبارة ردّدها مرتين: وهو الذي لم يكن بحاجة إلى عبارة لمّاحة موجزة إذ أنه ليس فقط في حاجة ضرورية ليتحرك من جديد على الأغلب وليس بحاجة فعلياً لأن يتوقف عن الحركة إطلاقاً في تلك اللحظة على مدى أربع أو خمس أو ست ساعات أو مدة غير محددة مضت عندما أيقن بالفعل أنّه سيستلقي مدة خمس عشرة دقيقة فقط (عرف بالمصادفة إذا كان استراح بجلاء أم لا في فترة الخمس عشرة دقيقة نفسها) لم ترجع إلى الذاكرة فهي لم تكن في أي مكان لتعود منه، كانت ماثلة معظم الوقت، لم تنفصل البتة ولو للحظة عن الأوهام الغريبة المجتمعة في ذهنه المزدادة غوغائيتها واضطراباتها الضبابيّة، والتي اضاع معها أو في وسطها ما يقارب الخمس عشرة ساعة لا الخمس عشر دقيقة، إنما هي ماثلة هناك في حيّز لا متناه منه إذ أنها ليست مجرد علامة بالغة أصغر وإنما على الغالب علامة دقيقة جداً لخاله أو للشريف في عدم إمكانية زوال لوكاس بوشامب وكراوفورد جوري طالما أن كلاهما على حد علمهم لم يعرفوا ماذا يفعلون بالضبط بعد أن ضل الطريق بمدة قبل أن يقوم هامبتون بتسليم الدليل الواهي الذي حصلوا عليه بإعادته إلى جوري المسنّ المقطوع اليد حامل المسدس حيث لم يستطع ولدان وامرأة استعادته هذه المرة؛ إنها الحاجة للإبقاء على الحركة فحسب لا الحاجة إلى إنهاء أي شيء وإنما الاستمرار في الحركة فحسب وعدم البقاء حيث كانوا والإبقاء على وتيرة الحركة بجهد جهيد وكأنك تركض على طاحونة الدوس لارغبة منك في البقاء حيث وصلت الطاحونة وإنما ببساطة لكي لا تُرمى كيفما اتفق وتستمر في الجري بذعر نحو الخلف بعيداً عن المصطبة والأنظار، وعدم البقاء في انتظار وثبات حلول لحظة تعود حركة الطاحونة إليه وتجعله ينخرط في التحرك بل في وضع حركة دائمة مثل طوق طاحونة الدوس الذي لاينتهي ويقل ارتفاعه مقدار بوصة عن أقصى نقطة من أنفه وصدره حيث

يكفي نَفَسٌ عميق منه لإقحامه في دورانها الخاطف، وقد استلقى هو نفسه تحتها كمشرد علق ما بين خطي السكة الحديدية تحت قطار مسرع، فغدا وجوده على قيد الحياة مرهوناً بامتناعه عن الحركة.

على هذا النحو تحرك مؤرجحاً ساقيه إلى أعلى: «الوقت؟ كم الساعة الآن؟ قلت خمس عشرة دقيقة، ووعدت أنت...».

ردّ الخال: «إنها التاسعة والنصف فقط. لديك متسع من الوقت كي تستحم وتتناول طعام عشائك. فهم لن يغادروا قبل أن نصل إلى هناك».

أجاب وقد انتصب على قدميه العاريتين (فهو لم ينزع سوى حذاءه وجوربه) ووصل آنذاك إلى شحّاطته: «هم؟ هل عدت إلى البلدة قبل أن نصل هناك؟ ألن نذهب معهم؟».

قال الخال: «لا. ستطلب تهدئة الآنسة هابرشام وجودنا معاً. سوف تقابلنا في المكتب. فهيّا تحرك الآن لأنها قد تكون بانتظارنا في هذا الوقت».

قال هو: «نعم».

لكنه آنذاك لم يكن قد أكمل فكّ قميصه وزنّاره وبنطاله أيضاً باليد الأخرى، باستعداد كلي ليخرج جسمه من البنطال كان الصوت يضحك في هذه المرة، كل شيء على ما يرام. لم يكن بإمكانك أن تسمعه. أردف قائلاً: «ذاك هو السبب إذن. لا يمكن لنسائهم أن ينشرن خشباً في العتمة مع أطفال يغالبهم النعاس وهم يحملون القناديل».

جاء ردّ الخال: «لا. لم يهربوا بعيداً عن لوكاس. لقد تناسوه...».

قال هو: «هذا ما قصدته بالضبط. لم ينتظروا حتى ليرسلوا صفيحة من التبغ ويقولوا لابأس أيها الرجل العجوز، فكل إنسان عرضة للخطأ ولن نستمر في هذه الخطيئة ضدك».

قال خاله: «هل كانت صفيحة التبغ كلّ ما أردت؟ هل هذا كاف؟ بالطبع غير كاف. إن إلحاحهم هو السبب الذي يدفع لوكاس للحصول على علبة تبغ بشكل حتمي، وهم مضطرون لذلك. وهو سوف يتلقّى أقساطاً مترتّبة عليها معظم مراحل حياته في هذا البلد شاء أم أبى لكونه *لوكاس السامبو* لا لكونه لوكاس فحسب طالما أن ما يجعل المرء يتقلّب في

فراشه من الأرق في الليل ليس كونه آذى أخاه الإنسان وإنما لأنه على خطأ في هذا الإيذاء؛ فالأذى المجرد (إذا لم يجد منطقا يبرره) يستطيع أن يطمسه بتصفية الضحيّة والشاهد لكن الخطأ يقع على عاتقه في تفضيل قتل إحدى قططه خنقاً حتى الموت بواسطة الزبدة. هكذا سيحصل لوكاس على التبغ الذي يخصه. لن يريد ذلك بالطبع وسوف يرفضه. لكنه سيحصل عليها وهكذا علينا أن نراقب في هذا المكان تماماً من مقاطعة يوكناباتاوفا العلاقة الشرقية القديمة ما بين المنقذ وحياة من أنقذ تنقلب رأساً على عقب: لوكاس بوشامب الذي كان رقيقاً لأي إنسان أبيض يقع ضمن مدى بصره يغدو الان طاغية مهيمناً على وعي ضمير السكان البيض في المقاطعة. وهم ـ سكان بيت ون وتو وثري وفايف ـ تساءلوا أيضاً لِمَ تمضية الوقت في إرسال صفيحة تبغ بقيمة عشرة سنتات إليه طالما أن عليهم تبديد ما تبقى من رصيد أعمارهم في تأدية تلك المهمة؟.

وهكذا نبذوه في الوقت الحاضر. لم يهربوا منه بل هربوا من كراوفورد جوري؛ ببساطة هم أنكروا لا خوفاً بل على وجه التحديد بإجماع مطلق أن تتحوّل عبارة لن أو لا يجوز بدون أيّ تحذير كان إلى ***لا يجب. لا تقتل*** هل تفهم ـ ليست عبارة اتهامية ولا غاضبة: وعظ أخلاقي بسيط، تلقيّناه في أزمنة أسلافنا المجهولة، تم التعلق به طويلاً، تمَّ التأكيد إليه وإبقاء مدلوله الواضح حيّاً والكلمات بحد ذاتها غير متغيّرة، واستخدامه طويلاً باتت جميع الزوايا ناعمة من كثرة الاستعمال، نستطيع أن ننام في السرير تماماً معه؛ ولقد قمنا بتعبئة ترياقاتنا الخاصة المضادة له مثلما ترتبت ربة البيت المدبّرة محلول الخردل أو مسحوق السكر المعدّ لاستعمالات مختلفة على الرف ذاته إلى جانب سمّ الفئران؛ كان مألوفاً تماماً كوجه الجد، غير واضح المعالم مثل وجه الجد تحت قبعة الترباث الضيّقة لأمير هندي، مجرداً مثل ادعاءات الجد الفارغة على طاولة الغداء، وحتى عندما ينهار ويتدفق الدم المسفوك حاداً ومحدقاً في وجوهنا فإن الوصيّة لا تمسّ، وتبقى صحيحة: ***يجب علينا اجتناب القتل*** وفي مرة تالية على وجه التحديد لا نفعل. ***لا تقتل ابن أمّك***. قد حل زمن هبطت الوصيّة فيه إلى الشارع في وضح النهار لتمشي في الشارع على مقربة منك أليس كذلك؟».

«فإذا كان، في رأي الكثيرين من عائلة جوري ووركتس، إحراق لوكاس حتى الموت لقاء إثم لم يقترفه أمراً قائماً بحد ذاته، فإن قيام شخص من عائلة جوري بقتل أخيه أمر مختلف».

ردّ الخال: «أجل».

فأردف هو قائلاً: «لا يمكنك أن تقول ذلك».

قال خاله: «نعم. *لا تقتل* وصيّة وحتى عندما تقتل، يبقى المبدأ نقيّاً ولا يتأثّر، *لا تقتل*، وربما لا تقدم على القتل مرة ثانية. لكن *يجب ألا يقتل جوري أحد أشقائه من الجوريين*: لا كلمة ربما حولها: ولا كلمة، لا يجوز مرة ثانية قتل واحدة من عائلة جوري لأحد أقربائه لأنه يجب ألا يكون هناك مرة أولى. ولا يقتصر هذا على آل جوري بل يجب أن يشمل الجميع: من آل ستيفنس وماليسون وإدموندز ومكّالسن أيضاً؛ وإن لم نكن على يقين بأن تلك المرحلة المشار إليها لن تأتي فحسب بل يجب ألا تأتي *أو يستحيل أن تأتي* فيقدم عندها آل جوري أو إنجرم أو ستيفنس أو ماليسون على سفك دم آل جوري او آل إنجرم أو آل ستيفنس أو آل ماليسون، فكم يبقى من الأمل بالوصول إلى مرحلة *لا تقتل أبداً*، حيث يتم إنقاذ لوكاس بوشامب لا بغض النظر عن كونه لوكاس بوشامب وإنما لكونه لوكاس بوشامب؟».

قال هو: «هم يتهربون من إحراق كراوفورد جوري إذن؟».

أجاب الخال: «ما كانوا ليحرقوا كراوفورد جوري. كان هنالك الكثيرون منهم. ألا تذكر، كانوا يملأون الشارع أمام السجن والساحة أيضاً طيلة فترة الصباح بينما هم موقنون بأن لوكاس قد أطلق النار على فنسون جوري من الخلف دون أن يزعجوه على الإطلاق؟».

«كانوا بانتظار سكان بيت فور ليقوموا بذلك».

«وهو بالضبط ما أقوله أنا مسلّماً للحظة بأن هذا صحيح. إنّ ذاك الجزء من بيت فور المؤلف من آل جوري أو ووركيت أو الخمس أسر الأخرى الذين لا يعطون أيّاً كان من آل جوري أو ووركيت ولو مضغة تبغ والذين لم يهرعوا إلا لرؤية الدم المسفوك، إنما هو جزء صغير يكفي للقيام بعملية

التصفية الجسدية. من جانب آخر ليسوا كلهم مجتمعين لأن هناك حد عددي يتم عنده تفريق الحشد وتشتيته تلقائياً، ربما لأن الحشد تعاظم في الظلام، فالكهف الذي يأوي الحشد من الضوء لم يعد متسعاً بما يكفي لإخفائه وفي النهاية يغدو على ذلك الحشد شاء أم أبى أن ينظر إلى نفسه، أو ربما لأن مقدار الدماء في جسد إنساني واحد لم يعد كافياً، كحبة فستق تدغدغ فيلاً واحداً لا فيلين أو عشرة. وقد يكون مرد ذلك إلى أنّ الإنسان غدا من جديد إنساناً آخر موقناً بالشفقة والعدالة والضمير ولو بواسطة استعادة تجميع تطلّعه الطويل إلى تلك المفاهيم المفضية كيفما اتفق إلى ضياء كوني صاف أوحد بعد أن اجتاز حالة الجمهرة وتخطاها إلى الحشد الذي يلغي الجمهرة بالامتصاص والتحويل الحيوي وبعد أن تتضخم الجمهرة حتى تغدو حشداً أكثر ضخامة».

ردّ هو: «هكذا يكون المرء دوماً على صواب».

فقال الخال: «لا. يحاول أن يكون مصيباً إذا ما تركه الذين يستخدمونه من أجل سلطتهم الخاصة وتوسعهم. فالرأفة والعدالة والضمير في آن معاً ـــ إنما هي يقين لا بقدسيّة الإنسان كفرد (وهي ما تجادلنا في أميركا حول جعلها ديناً وطنياً في داخل الإنسان بموجبها لاتعير الإنسان بأي فضل واجب نحو ذاته وذلك لأنه متنصل منها وهو عوضاً عن ذلك كائن سكوني وارث بالفطرة المطالبة الكليّة بالزوجة والسيارة والمذياع والمعاش التقاعدي في أرذل العمر) وإنما بقدسية استمراره كجنس بشري برمته، فتأمل كم من السهولة بمكان بالنسبة إليهم الالتفات إلى كراوفورد جوري: وهم تيار عام لا يقبل التجزئة لا مجرد جمهرة من الناس تتحرك بسرعة في العتمة وتراقب بشكل مستمر فوق الكتف: يقرّ أن حبة الفول السوداني التي تتلاشى سحقاً تحت أقدام جماعة من الجمهور تضم فيلاً واحداً بالكاد تعرف أن حبة الفستق موجودة تحت أقدامهم طالما أن السبب الأساسي الذي يدفع الجمهور إلى ذلك هو يد حمراء قامت بمفردها بانتزاع خيط قد يتلاشى إلى الأبد في جمعية غياب الهوية الخيرية المقدسة، حيث لا يدفع المرء على البقاء مستيقظاً في الليل في هذه الحالة سوى المبرر الذي يدفع جلاداً يعمل بالأجرة. لم يكونوا راغبين بالقضاء على كراوفورد جوري وإنما

تنكّروا له. لو أنهم أعدموه حرقاً لظفروا بحياته فقط. غير أن ما أقدموا عليه كان أشنع من ذلك: لقد جرّدوه بكل ما أوتوا به من مقدرة من حق المواطنية الذي يتمتع به الإنسان».

لم يتحرك بعد. «أنت محام» أردف قائلاً: «لم يهربوا من كراوفورد جوري ولا من لوكاس بوشامب على حد سواء. بل هربوا من ذواتهم. من فرط عارهم هرعوا إلى منازلهم وأخفوا رؤوسهم تحت اللحافات».

قال الخال: «صحيح تماماً. ألم أقل ذلك دائماً؟ كان هناك كثيرون منهم. هذه المرة كان منهم عدد كاف لاجتناب العار، وتحقيق أمر مضن لا مناص منه في خاتمة الأمر يخص الجمهرة: التي «وهي جمهرة من الناس» بسبب ضآلتها واعتقادها بالسرّية والتكتم الذي علمها الإفتقار المطلق إلى الثقة بين أفرادها، قامت بالإقدام على الخيار السهل القاضي بالتخلص من الإقرار بالعار من خلال تصفية الشاهد على هذا العار. وهكذا إذا أحببت يمكن القول بأنهم فرّوا؟».

قال هو: «بحيث تركوك أنت والسيّد هامبتون لتنظيف القيء وهذا عمل لا تقوم به حتى الكلاب. بناء عليه يكون السيد هامبتون مأجوراً حقيراً وفي تقديري يمكن أن تدعى أنت مأجوراً حقيراً آخر أيضاً ــ والسبب لا تنسَ جيفرسون كذلك الأمر. كانوا يبتعدون متلاشين عن الأنظار بسرعة. لم يتمكن البعض منهم بالطبع لأن الوقت مايزال في منتصف فترة الظهيرة وبذلك لم يتمكنوا من إغلاق المخازن والهرب إلى البيت قبل ذلك الوقت؛ إذ ما زالت هنالك فرصة ليبيعوا ما تبلغ قيمته خمسة سنتات».

أجاب الخال: «لا تنسَ آل ستيفنس وآل ماليسون أيضاً».

قال هو: «ليس آل ستيفنس ولا آل هامبتون كذلك الأمر. لأن أحداً ما لابد أن ينهي الأمر، شخص يتمتع باستعداد لتنظيف الأرض بواسطة المسحة. فلابد من الشريف ليقبض (أو يحاول أو يأمل أو يفعل أي أمر كان تنوي القيام به) على القاتل ومن محام للمرافعة عن القائمين بعملية السحل».

قال الخال: «لم يحرق أحد الآخر لتتمّ المرافعة عنه».

قال هو: «لا بأس. اعذرهم إذن».

قال الخال: «الأمر ليس بهذا الشكل. أنا أدافع عن لوكاس بوشامب. أنا أدافع عن السامبو ضد الشمال والشرق والغرب - الدخلاء الذين سيقومون بإعادته عقوداً إلى الوراء وتعريضه من جديد لا للظلم فحسب بل للأسى والعذاب والعنف أيضاً وذلك بأن يفرضوا علينا قوانيناً قائمة على فكرة مفادها أن الظلم الواقع على الإنسان من أخيه الإنسان من الممكن إبطالها بين عشية وضحاها بواسطة الشرطة. سيعاني ابن السامبو من الظلم بالطبع؛ فحتى الآن لا يوجد الكثيرون مثله يأتون بأية حركة أخرى. سوف يتحملها لوكاس، ويتقبلها ويستمر في التحمل لأنه من عرق السامبو الذي يتمتّع بهذه القابليّة؛ وهو سوف يهزمنا لأن لديه المقدرة على التحمل والاستمرار ولكنه سوف يكون قد أرجع عقوداً إلى الخلف بعشرات السنين إلى الوراء ويكون ما استمر في سبيله غير جدير بالنيل لأننا بحلول ذلك الوقت نكون سائرين باتجاه إضاعة أميركا بسبب تفَرّقنا».

«لكنك ماتزال تبرر».

ردّ الخال: «لا. أنا أقول فقط بأن الظلم منّا، نحن سكان الجنوب. يجب علينا أن نكفر عنه ونلغيه بأنفسنا، من تلقاء أنفسنا ودون مساعدة من أحد ولو بالنصيحة (مع جزيل الشكر). إننا مدينون بذلك للوكاس شاء أم أبى (ولوكاس هذا بأيّ حال من الأحوال لن يأبى) ليس بسبب ماضيه طالما أن الإنسان - أو العرق - إذا ما كان في الإنسان نفعٍ يتمكن من البقاء حياً بعد ماضيه دون الحاجة للهروب منه وليس تماماً بسبب خطاب الإنسانية البليغ جداً الرفيع على الأغلب وإنما لسبب عملي غير مشكوك فيه ألا وهو مستقبله: المتمثل في تلك المقدرة على الاستمرار والقبول والتحمل وعلى البقاء رابط الجأش».

قال هو: «ماشي الحال. أنت ماتزال تتحدث كمحام وهم مازالوا يهربون. ربما كانوا يقصدون أن يقوم لوكاس لتصفية القضية طالما أنه من سلالة ماسحيّ الأرض. لوكاس وهامبتون وأنت طالما أن على هامبتون أن يفعل شيئاً عاجلاً أو آجلاً رغبة في المال وقد اختاروك أيضاً لقاء أجر. ألم يفكروا أن يخبروك كيف يقومون بفعلتهم كيف يمكن اللجوء إلى طُعم لإجبار

كراوفورد جوري على الحضور وقول لا بأس يا أولاد أنا أمتنع. اخلطوا الأوراق من جديد. أم أنهم مازالوا مشغولين بكونهم..... بكونهم....».

ردّ الخال بهدوء: «مصيبين»

آنذاك أخلد لصمت مطبق. استمر للحظة واحدة. وقال: «هربوا» بهدوء وحسم مطلق، دونما ازدراء، إذ هزّ القميص وطوّح به إلى الخلف وأسقط البنطال في اللحظة نفسها وخطا حافي القدمين دون أن يبقى مما يكسوه سوى سروال قصير. «علاوة على ذلك مرّ كل شيء على ما يرام. كنت في حالة حلم أثناء ذلك كله؛ كنت أحلم بهم، أمضي الوقت في تخيّلهم؛ ليقبعوا في منازلهم أو يجلبوا أبقارهم قبل حلول الظلام أو ينشروا الخشب قبل حلول الظلام أو بعده أو على ضوء القناديل وحتى من دونها. لأنهم لم يكونوا حلماً. وإنما أغفلتهم كي أدخل عالم الحلم» وراح يتحدث بسرعة، أكبر بكثير مما تحقق إلى أن جاء الكلام متأخراً جداً: «شيء ما... شخص لا على التعيين ... شيء ما حول احتمال أن يكون هذا فوق حدود ما يمكن توقعه منا، وكبير جداً بالنسبة لأناس في السادسة عشرة أو لسيدة على مشارف الثمانين أو التسعين أو أي شيء يمكنها أن تتحمله، وفيما بعد بوقت بعيد كنت أجيب عمّا سألتني عنه حول الأولاد الإنكليز الذين لا يكبروني بكثير ويقودون الوحدات المقاتلة ويطيرون بطائرات الإستطلاع في فرنسا عام 1918، أتذكر؟ وكيف قلت إنه بحلول عام 1918 كان جميع الضباط البريطانيين إما ملازمين في السابعة عشرة أو عقداء بعين واحدة أو ذراع واحدة أو ساق واحدة في الثالثة والعشرين؟!» وراح يدقّق أو يحاول ذلك لأنه تلقى تحذيراً بالغ الحدة في خاتمة المطاف دون أن يسمع باطّراد على حين غرة الكلمات التي سيقولها وكأنه من الجانب آخر قد اكتشف فجأة لا ما قاله من قبل بل القصد منه، وما هي الكلمات التي قالها من قبل وأجبرته على الاستمرار في قولها لوضع حد لها: غير أن الوقت جاء متأخرا مثل قيامك بالضغط على دواسة المكابح أثناء فترة نزولك التلة ومن ثم اكتشافك أن عمود المكابح معطوب ويا لخوفك: ـ «وفي الختام هناك شيء آخر كذلك الأمر ـ لقد كنت أحاول....» في النهاية كتمها بعد أن شعر بالدم الحار يلفح عروق رقبته ويندفع نحو وجهه فلا يبدو في أية بقعة منه

لا لأنه كان واقفاً وقفة تكشفه بشكل كلي في حال الإبقاء عليها وإنما لأنّ أيّاً من الملابس أو التعابير أو الحديث ما كانت لتحجب كستار من الدخان أيّ شيء عن عيني خاله الثاقبتين المتألقتين.

قال الخال: «أليس كذلك؟» وأردف قائلاً: «نعم. بعض الأمور لا يجب أن تكون قادراً البتّة على تحملها. بعض الأشياء يجب ألا تتوقف عن رفض تحملها ألاوهي الظلم والإهانة والعار والذل. بغض النظر عن حداثة عهدك أو تقدمك في العمر. ليس في سبيل الشهرة ولا طلباً للمال: أو لظهور صورتك في الجريدة أو وضع مالك في المصرف في آن معاً. عليك أن ترفضها فحسب. وهذا هو لبّ الأمر؟».

أجاب وقد تحرك الآن تقريباً قاطعاً الغرفة دون أن ينتظر ارتداء الشحاطة: «من أنا. لم أعد حتى مجرد عضو طري العود في الكشاف مذ كان عمري اثنتي عشرة سنة».

قال خاله: «بالطبع لا. لكن تأسّف على تلك الفترة ولا تشعر بالعيب».

الفصل العاشر

ربما كانت المحاولة بلا انقطاع أو تركيز أو فضول إحصاء عدد الأيام التي مرت منذ أن جلس إلى مائدة الطعام أمراً مرده إلى الانغماس بالأكل، كأن اللقمة بحد ذاتها كانت تذكره في ذلك الحين أن ما انقضى على ذلك ليس سوى يوم واحد بغض النظر عن أنه تناول بين اليقظة والغفلة فطوراً شهيّاً في منزل الشريف في الساعة الرابعة من صباح هذا اليوم: تذكر كيف أن خاله (الجالس إلى الجانب الآخر من الطاولة يتناول القهوة) قال إن الإنسان في هذا العالم لا يأكل بالضرورة على طريقته الخاصة إنما يدخل العالم فعلياً من خلال فعل الأكل فحسب: لا يعبر هذا العالم بل يدخله، يشق طريقه في زحام العالم الخانق، مثلما تخترق عثّة ملابس الصوف بواسطة فعل المضغ والابتلاع الفيزيائي لمادة خيطه ونسيجه، بحيث يحوّل تاريخ الإنسان ويجعله جزءاً من ذاته ومن ذاكرته، أو قد يتخلّى عن طريق العجن، والانغماس فيه، عن الحرف الصغير الحافل بالضرورة الذي يدعوه ذاكرته ونفسه وأناه، إذ يلتهمه ويقوم بقولبته في زحام الدنيا الخانق المجهول الهوية والذي تتبرّد تحته صخرة سريعة الزوال وتتفتّت متحوّلة إلى غبار دون أن تُذْكر ودون أن يُشار إليها طالما أن الأمس لَمْ ينقض والغد لم يأت وربما يكون بمقدار زاهد فحسب يعيش في كهف طعامه ثمار البلّوط وشرابه ماء النبع إظهار الفخار والتباهي بشكل فعلي قد يتوجب عليك العيش في صومعة تأكل ثمار البلوط وتشرب ماء النبع باستغراق لا ينقطع

من تباهيك ونقائك وفخارك الآخر لكي تبقى على تلك السوية العالية من قلة التحمل لتقديسه[1] الذي لا يعرف حداً وسطاً: أكل بثبات ونهم أيضاً وعلي علمه كان مسرعاً جداً منذ أن كان يسمع تلك العبارة لمدة ستة عشر عاماً كما وضع الفوطة ونهض فصدرت صرخة أخيرة من أمه (فكّر كيف أن النساء غير قادرات في الواقع على مقاومة شيء سوى المأساة والبؤس والألم الجسدي؛ وكيف تواجد هذا الصباح وهو ابن السادسة عشر ربيعاً لاينبغي أن يتواجد بعمل لاينبغي أن يقوم به ولو كان في ضعف عمره الحالي ألا وهو: تقصّي الأثر مع الشريف في أرجاء الريف ونبش جثث المقتولين من الساقية: كانت أهدأ من والده بمائة مرة وأكبر قدراً منه بأكثر من ألف مرة، حتى هذه اللحظة كان مقصده المسير إلى البلدة مع خاله والجلوس لمدة ساعة أو ما شابه في نفس المكتب الذي أمضى فيه ما يقارب ربع عمره المنصرم، لقد تجاهلت كلاً من لوكاس بوشامب وكراوفورد جوري معاً وعادت خمس عشرة سنة إلى اليوم الذي كانت تحاول فيه إقناعه بالعجز عن تزرير بنطاله):

«لكن لماذا لا تستطيع الآنسة هابرشام القدوم إلى هنا والانتظار؟».

ردّ الخال: «تقدر. أنا متأكد من أنها تستطيع العثور على البيت مرة أخرى».

قالت: «أتعرف ماذا أقصد. لماذا لا تأتي بها؟ الجلوس أمام مكتب محام حتى الساعة الثانية عشرة ليلاً أمر لا يليق بسيّدة».

قال الخال: «كذلك الأمر لا يليق بسيدة نبش جثة جاك مونتجمري ليلة الأمس. غير أننا في هذا الوقت سوف نوقف لوكاس بوشامب عن الإستنزاف المستمر لكياستها الأرستقراطية. هيا بنا يا تشيك».

أخيراً خرج هو من البيت، لا سائراً من البيت نحو الأكل لأنه أحضره معه من البيت، بعد أن كفّر عن ضلاله عنه لم يستردّه أو يدخل إليه ببساطة أو يستعيده فعليا لبرهة ما بين غرفته والباب الأمامي، أصبح مرة أخرى جديراً بالاستقبال عنده طالما أنه جزء من الأكل والأكل جزء منه،

---

(1) - تعود لفعل الأكل.

من جديد سار مع الخال في الشارع نفسه الذي كانا يسيران فيه، قبل أقل من اثنتين وعشرين ساعة خلت حيث كان الشارع خالياً فساروا وقد تملكهم نوع من الذعر المشوب بالدهشة والقلق: لأن الشارع لم يكن الآن على الإطلاق خاوياً فحسب، بل معزولاً خالياً من الحركة لا حياة فيه يمتد من مصباح إلى المصباح التالي في شارع أشبه بشارع ميت في مدينة منسية لكنها غير مهجورة بل هي ليست منسية في حقيقة الأمر إنما تفسح المجال للناس الأجدر، وتفسح المجال فقط للقادرين على إنجاز الأمور على أكمل وجه، فلا تتدخل ولا تعترض الطريق ولا تقترح ولا تقدم حتى على إسداء النصح (مع جزيل الشكر) لأولئك الذين يقدرون على فعل الصواب على طريقتهم الخاصة غير المتكلفة طالما أن المصيبة مصيبتهم والعار عارهم والتوبة توبتهم، هذه المرة ضحك من جديد إلا أنه استحسن أن يفكر في نفسه: ***لأنهم دائماً يضموننا أنا وألك ساندر والآنسة هابرشام بينهم، بغض النظر عن الخال جافن والشريف المحلّف حامل الشارة***: عندما لاحظ على حين غرة أن ذلك كان جزءاً من تلك القضية أيضاً ــ تلك الرغبة الجامحة بأن يكونوا كاملين لأنه منهم وهم منه، مع عدم التسامح الذي لاهوادة فيه حيال ولو مثقال ذرة أو أقل دون الكمال المطلق ــ تلك الوثبة والقفزة الحماسية شبه الغريزية للدفاع عنهم ضد أي كان وفي أي مكان بحيث يقاوم بغير هوادة طالما أنهم يخصونه وهو لا يريد سوى الوقوف معهم بصمود وثبات: إن لم يكن من العار بدا فليوجد عار أو حد، ولتوجد توبة واحدة طالما أن التوبة يجب ألا تكون بالتأكيد سوى أهم من ذلك كله توبة منيعة دائمة حصينة: شعب واحد قلب واحد وطن واحد:

وهكذا قال فجأة: «انظر» توقف كالعادة لم تكن هناك حاجة إلى المزيد:

قال الخال: «نعم» وأردف بعدئذٍ قائلاً: «آه، أعرف. ليسوا هم المصيبون بل أنتم المخطئون».

ردّ هو: «كنت أنا الأسوأ. كنت إنساناً قويماً».

قال الخال: «لابأس أن تكون مستقيماً. قد تكون على صواب ويكونون على خطأ. لا تتوقف».

قال هو: «ما الذي لا أوقفه؟».

قال الخال: «حتى التّباهي وعزة النفس أمور جيدة. والمهم عدم التوقف».

سأل من جديد: «ما الذي لا أوقفه؟». خطر الآن في ذهنه فقال: «ألم يحن الوقت الذي تتجاوز فيه مرحلة الكشاف الغر أيضاً؟!».

ردّ الخال: «هذا لا يسمى الكشاف الغرّ. هذه هي الدرجة الثالثة. ماذا تسميها أنت؟».

قال: «الكشاف النسر».

قال الخال: «الكشاف النسر. الكشاف الغرّ يعني، لا تقبل. الكشاف النسر يعني لا تقف. ألا ترى؟ كلا هذا خطأ. لا تشغل بالك بالمشاهدة. لاتتقلق حتى على نسيانها. فقط لا تتوقف».

أجاب: «لا. لا داع للقلق بشأن التوقف الآن. يبدو لي أن ما سوف تقلق بشأنه هو أين سنذهب الآن وكيف».

قال الخال: «أجل اسأل. لقد قلت لي بنفسك منذ حوالي خمس عشرة دقيقة مضت، ألا تذكر؟ حول ما سيستخدمه السيد هامبتون ولوكاس كطعم لالتقاط كراوفرود جوري حيث يستطيعون وضع يد هامبتون عليه؟ سوف يستخدمون لوكاس».

تذكر كيف وقف إلى جانب سيارة الشريف في الزقاق الواقع أمام السجن يراقب الشريف ولوكاس يخرجان من باب السجن الجانبي ويعبران الساحة المظلمة متجهين إليهم. كان الظلام مطبقا تماماً لأنَّ أيّاً من ضوء الشارع في الزاوية أو الصوت لا يصلان إلى هذا البعد؛ بعد الساعة العاشرة بقليل وفي مساء يوم الإثنين قبل أن تمتلىء قبة السماء المعتمة بالنجوم فتبدو في الفضاء مثل باقة أزهار عروس على شكل جرس زجاجي تقع البلدة تحته، في الساحة التي كانت أكثر من ميتة: مهجورة: تقدم ليلقي نظره عليها، دونما توقف تاركاً خاله واقفاً على زاوية الزقاق حيث ناداه قائلاً: «أين تذهب؟» إلا أنه لم يُجب، مشى في الصمت المطبق في ساحة البلدة المقفرة وقد تعالى وقع أقدامه واضحاً جلياً في السكون الأجوف، دون أن يسرع ويستوحش أو ينتابه شعور بالعزلة، عوضاً عن ذلك انتابه حدسُ وإدراك

ملاك إقطاعي، أو نائب للملك، لامجرد مالك عادي، مع شيء من التواضع، إذ أنه بحد ذاته ليس صاحب سلطة بل وعاءً للسلطة أشبه بممثل ينظر شذراً من الكواليس أو من وسط الشرفة الداخلية في المسرح إلى المنصة الفارغة التي تنتظر العرض، فيسير على الرغم من ذلك في لحظة معينة ويتخذ وضعيّة في الفصل الأخير من المسرحية في موقع ملفت للأنظار، وهو بحد ذاته غير ذي أهمية والمسرحية أفضل من غيرها لكنها مسرحيّته التي يتوجب عليه اختتامها، وإنهاؤها والفراغ منها كاملة، غير منقوصة، لايمكن العبث بها:

تابع السير إلى الأمام في عتمة الساحة الفارغة متوقفاً حيث يستطيع دون جهد يذكر أن يتأكد أن المستطيل العديم الحياة لا يوجد في أي موضع منه سوى ضوء واحد في المقهى التي ظلت مفتوحة طوال الليل بسبب عربات النقل لمسافات بعيدة وقد قال بعضهم إن الغرض الأساسي لها (أي المقهى)، والسبب الحقيقيّ وراء منح الترخيص بها من قبل البلدة هو إبقاء زميل ويلي أنجرم المناوب ليلاً ساهراً فهو لايبقى هناك رغم أن البلدة سوّرته وعزلته بمكان ضيّق مقفل بمثابة مكتب في الزقاق مزوّد بمدفأة وهاتف بل اعتاد عوضاً عن ذلك أن يؤم المقهى حيث يوجد من يتجاذب معه أطراف الحديث ويمكن أن يتلقى مكالمات هاتفية هناك بالطبع لكنّ بعض الناس وعلى وجه الخصوص السيدات العجائز لا يفضّلن طلب رجل شرطة جالس في مقعد أمامي من ملهى جكبكس[1] ساهر طوال الليل فتمّ وصل هاتف المكتب بجرس إنذار ضخم للتحذير من السرقة على الحائط الخارجي عالي الصوت بما يكفي كي يسمعه الشخص المقابل أو سائق السيارة الجالس في المقهى ويخبره بأنّ الجرس يرنّ، نافذتا الطابق الثاني مضاءتان (خطر له أن الآنسة هابرشام أقنعت خاله بالفعل أن يعطيها مفتاح المكتب وبعد ذلك اعتقد أن هذه فكرة خاطئة، فالخال أقنعها بأخذ المفتاح طالما أنها ماكثة في العربة المتوقفة إلى حين رجوعهم - فيما بعد أضاف إذا

---

(1) - JUKE - JOINT: ملهى الجكبكس: ملهى صغير رخيص مخصص لتناول الطعام والشراب والرقص على أنغام الجكبكس - المورد -

كانت قد انتظرت لأن ذاك كان خطأً بالتأكيد وما حدث بالفعل هو أن خاله أغلق عليها الباب في المكتب كي يفسح وقتاً للشريف ولوكاس يخرجان فيه من البلدة) ولكن منذ أن كانت مصابيح مكتب المحامي لم تدخل في الحسبان لأنها قابلة للإشعال في أي وقت نسي المحامي أو البوّاب أن يطفآها فيه عندما غادرا المكتب وباعتبار أن المقهى مثل مركز توليد الطاقة مؤسسة عامة فكانت المقهى فقط تبقى مضاءة (لم يستطع أن يدرك حقيقة الأمر من هنا لكنه تمكن أن يسمع وفكر في ذلك، فإغلاق ملهى الجكبكس رسمياً طوال اثنتي عشرة ساعة من المحتمل أن يكون أول قرار رسمي صادر عن قائد شرطة البلدة إلى جانب تسجيل مواعيد دورتيه كل ساعة في سجل الدوام الموجود على الجدار عند باب البنك الخلفي منذ الذعر الشامل الذي تسبب به مجنون معتوه في آب الماضي) تذكر ليالي الإثنين العادية المنصرمة التي لم يحصل فيها عنف صاخب ناجم عن فورة الدم والانتقام أو تضامن عرقي أو عائلي أتى هادراً من منطقة بيت فور (أو بيت ون أو تو أو ثري أو فايف من جوار الأروقة المدنية الجورجية ذوات الأعمدة لهذا السبب أو لغيره من الأسباب يقعقع ويقرقع بين قطع القرميد القديمة والأشجار المعمّرة والعواصم الدوريّة[1] فيتركها جميعاً مبتلاة أيّ إبتلاء:

إنها الساعة العاشرة من مساء يوم الإثنين وبالرغم من أن بداية عرض الفيلم على الشاشة قد بدأت قبل حوالي أربعين أو خمسين دقيقة من الآن فإن قلة من الزبائن الدائمين الذين جاؤوا متأخرين كانوا يعبرون عائدين إلى البيت ولا بد أن يكون كل الشباب الذين يجلسون منذ ذلك الوقت يحتسون الكوكا كولا ويتسلون بإدخال الخمس سنتات في جهاز الجكبكس أمام الصيدلية، يتنزهون دون حساب للزمن ودونما إسراع طالما أنهم لا يقصدون مكاناً محدداً باعتبار أن مساء الاثنين هو منتهاهم. بحد ذاته حيث يمشون أثناءه وينقلونه في مشيتهم ذلك معهم (يوم المزاد) إضافة إلى بعض السيّارات

(1) - DORIC = DORIAN = الدوري: أحد أبناء شعب غزا بلاد الإغريق حوالي القرن 12 . ق.م واستقر في دوريس ولاكونيا.

المتأخرة عن الوقت المعتاد والعربات التي انتظر مستأجروها بدء عرض السينما أيضاً أو زيارة صاحب أو عدد من الأصدقاء وتناول طعام العشاء معهم، ومن ثم افترقوا نحو الليل نحو النوم نحو الغد في أرجاء الأرض المظلمة المسوّرة التي تقارب مساحتها ميلاً واحداً، دون أن يتذكر أبعد من ليلة الأمس عندما ظنّ أن الشوارع مقفرة أيضاً إلى أن تسنّى له وقت يستمع فيه إليها للحظة ويتحقق بأنها لم تكن خاوية البتة: هي ليلة من ليالي الأحد لكنها أكثر هدوءا من ليلة الأحد، هو نوع من الهدوء في الحقيقة لا يحصل في أيّ مساء من الأماسي ناهيك عن ليلة الأحد، التي باتت ليلة الأحد في النهاية لأنهم حددوها في التقويم من قبل عندما أحضر الشريف لوكاس إلى السجن: خواء لا يمكن أن تطلق اسم الخواء عليه ما لم تسمّ الميدان الخالي من الحياة قفراً وشاغراً أمام جيش مؤلّل، والدهليز المؤدي إلى مستودع الذخيرة آمناً، وقناة التصريف الواقعة تحت مصارف السّد هادئة ــ ليس إحساساً بالانتظار بل بالتورط في جريمة، وليس إحساساً بالناس ــ نساء وكهولاً وأطفالاً ـ إنما برجال غير متجهّمين إلى حد الرزانة أو متوترين إلى حد الهدوء، جالسين بهدوء غير متكلّمين كثيرا في الغرف الخلفية ولا في قمرات الحمام والمراحيض على وجه التحديد خلف صالون الحلاقة والسقيفة الواقعة خلف صالة البلياردو والتي تكوّمت فيها فوارغ المياه الغازية وتبعثرت فيها كيفما اتفق زجاجات الوسكي بل في مستودعات الخردوات الملحقة بالمخازن والكراجات وخلف ستائر نوافذ المكاتب المنسدلة ذاتها التي ينتمي مالكوها حسبما أقرَّ أصحاب المخازن إلى حرفة صناعية لا تجارية، دون أن ينتظروا أن يقع عليهم حدث ما في لحظة ما لا على التعيين وإنما يترقبوا لحظة يكون اللا اختيار فيها مناسبا فيتخلقون الحدث بأنفسهم، ليستغلوا وينتهزوا لحظة لم تتأخر ستّ أو اثنتي عشرة أو خمس عشرة ساعة بل كانت بدلاً عن ذلك امتداداً للّحظة التي أصابت خلالها الطلقة فنسون جوري، ولم يعد فاصل زمني يفصل بين اللحظتين وعلى ذلك فإن لوكاس بغض النظر عن الأسباب قد مات إذن في اللحظة التي رهن حياته فيها لقاء ما اقترفت يداه، وباتت مهمتهم مجرد إحراقه حيّاً تنفيذاً للرّهان، واستعادة الذكرى مساء هذا اليوم لأن اللحظة ستنقضي

غداً، فلابد أن تستيقظ في الغد الساحة وتعج بالحركة، ويحل يوم جديد وتنقضي تلك اللحظة كأثر من مخلّفات الماضي، ومع انقضاء يوم آخر تزوغ حتى من العيب بحيث أن المقاطعة بأكملها في يوم السبت تنفي نفياً قاطعاً بإجماع لا يمكن اختراقه من القرقعة والخفقان والطنين مرور لحظة كانوا فيها على خطأ: إذ ذاك لم يكن بحاجة لتذكير نفسه في الصمت المطبق الكليّ المطلق بأن البلدة لم تكن ميتة أو منسيّة بل متنحّية تاركة المجال لإنجاز ما يحتم الوضع المحليّ القيام به على طريقتها المحلية الخاصة من غير مساعدة أو تدخل أو حتى نصيحة (شكراً لكم): لثلاثة من الهواة قوامهم عانس بيضاء عجوز وولد أبيض وولد زنجي توصلوا للكشف عن قاتل لوكاس المستقبلي، ولوكاس نفسه لشريف المقاطعة كي يلقي القبض عليه، وعلى هذا النحو وللمرة الأخيرة ذات يوم أخيراً، تذكر خاله بينما وقف حاف القدمين في نشاط مستمر، مثبتاً طرفي القميص غير المزرّر بيديه قبل ثلاثين دقيقة ماضية وعندما كانوا يتسلقون آخر بقعة من التل باتجاه الكنيسة قبل إحدى عشرة ساعة، وعلى ما يجب أن يكون ألف مرة أخرى بعد أن غدا كبيراً بما يكفي ليصغي ويفهم ويتذكر، *ـ ليس الدفاع عن لوكاس، أو عن اتحاد الولايات المتحدة وإنما عن الولايات المتحدة ضد غرباء الشمال الشرقي والغربي، الذين من خلال أسمى الشعارات والمقاصد (يمكننا القول) يحاولون تقسيمها في زمن لا يجرؤ أحد فيه على المجازفة بالتقسيم، باستخدام قوانين فيدرالية وشرطة فيدرالية لإنهاء وضع لوكاس المزري، وربما لا يوجد بين ألف جنوبيّ لا على التعيين واحد يحزن بالفعل أو يعنى فعلياً بالأمر بالرغم من عدم وجود آخر، كذلك الأمر يقوم بنفسه بسحل لوكاس بغض النظر عن المناسبة عدا عن أن لا أحد من التسعمائة وتسعة وتسعين المتبقّين بالإضافة إلى الأول المشار إليه الذين يشكّلون الألف يتردد من جديد في أن يردّ بالقوة (مازال القائم بالسحل واحداً) الغريب الذي أتى إلى هنا عنوة كي يتدخل أو يعاقبه، تقول أنت (بأسلوب ساخر) يجب عليك معرفة السامبو جيداً كي تدعي لنفسك إدعاء هادئاً كهذا بوجود سلبيّته وأنا أجيب لا أعرفه البتة، وفي رأيي لا يعرفه أي رجل أبيض، لكنني أعلم علم اليقين عدم*

معرفة الإنسان الجنوبي الأبيض بذلك، أي ليس فقط التسعمائة وتسعة وتسعين، وإنما الواحد الآخر أيضاً لأنه يخصنا أيضا بل علاوة على ذلك قد لا يوجد ذلك الواحد الآخر في الجنوب، فتجد في النهاية تحالفاً ليس فقط بين الشمال والشرق والغرب والسامبو ضد حفنة من البيض في الجنوب، وإنما اتحاد على الورق بين المنظّرين والمتعصبين وأصحاب الانتقام الشخصي والخاص، إضافة إلى عدد آخر غيرهم. ولدى الاستيلاء على أميال شاسعة من الأرض للنهوض بعبء مبدأ أساسي، وربما كان أولئك يفوقون من ناحية العدد الجنوب الذي سحب مجندين إلى الخدمة كراهية أم طواعية من مناطقكم البعيدة، لا من مناطقكم النائية وإنما من المدن التي يتركّز فيها فخركم الثقافي مثل شيكاغواتكم وديترويتاتكم ولوس أنجلوساتكم[1]، ومن أي مكان آخر يعيش فيه قوم جهلة يخافون من لون أي جلد بشري أو شكل أي أنف بشري سوى جلدهم وأنفهم وهم يستغلّون هذه الفرصة كي يفرغوا من خلال السامبو كل ما لديهم من الخوف والهلع والاحتقار السابق للصينيّيين والمكسيكيّين وسكان الكاريبي واليهود، سوف تجبرنا أنت نحن الواحد من أول الألف لا على التعيين والتسعمائة وتسعة وتسعين من الألف الثاني الذين يلفّهم الحزن لوضع لوكاس المزري، ويثبتون وعليهم أن يثبتوا وهم يثبتون وسوف يثبتون لا محالة (قد لا يكونِ ذلك يومٍ غد) أن ذلك الوضع سوف يلقى حتى يغدو إن لم يكن منسيّاً فمذكوراً بمرارة وألم أقل طالما أن العدالة منحت له من قبلنا من غير أن تُنْتَزَع منّا وتطبّق بالقوّة عليه تحت أسنة الحراب، علىٍ التحالف طوعاً أو كرهاً مع أولئك الذين لا تربطنا بهم أية صلة دفاعاً عن مبدأ نكرهه ونشمئز منه، لقد غدونا في موقعِ الألماني بعد عام 1933 إذ لا خيار سوى أن يكون إمّا نازيّاً أو يهوديّاً أو في موقع الروسي[2] المعاصر (ينطبق هذا الوضع على الأوروبي

---

(1) ـ أورد فوكنر أسماء تلك المدن بصيغة الجمع.

(2) ـ يأخذ بعض النقاد مأخذ التشوش الفكري على فوكنر ويبدو أن المفاهيم السياسية مختلطة في ذهنه ـ المترجم ـ

أيضاً) الذي لا خيار أمامه سوى إما أن يكون شيوعياً أو ميّتاً، في النهاية يجب علينا الاختيار وحدنا دون مساعدة أو تدخل أو حتى (مع الشكر) نصيحة من أحد طالما أننا وحدنا، فنحن قادرون على ذلك إذا ما كانت مساواة لوكاس أكثر من مجرد رهينة داخل متراس حصين من الوارثين الأقربين لنصر عام 1861 ـ الذي فعل أكثر مما فعل جون براون لإيقاع حرية لوكاس في مأزق يتعذر الخروج منه والتي يبدو أنها ماتزال عرضة لكبح مستمر منذ مائة عام بعد استسلام لي[1] وعندما تقول يجب ألا ينتظر لوكاس حتى الغد، لن يأتي ذلك البتّة لأنك لا تنافق في النهاية وبعدئذٍ لن تنافق فيمكننا في ذلك الوقت أن نعيد ولا تعيد أنت إذ نقول تعال إلى هنا وانظر إلينا قبل أن تعقد عزمك وتجيب لا. شكراً الرائحة كريهة إلى حدّ بعيد من هنا ونقول بالتأكيد سوف تنظر على الأقل إلى الكلب الذي تعدّه لحراسة المنازل من اللصوص، شعب مقسّم في زمن مايزال التاريخ يظهر لنا فيه أن التقسيم بمثابة حجرة انتظار الموت وأنت تقول في الحد الأدنى نحن نفنى في سبيل الإنسانية ونجيب عندما يصاب بالبلاء كل شيء عدا ضمير الرفع ذاك وذاك الفعل فما هو ثمن إنسانية لوكاس آنذاك واستدار وبسرعة واجتاز الساحة القصيرة المسافة الخاوية ركضاً عائداً إلى الزاوية التي مضى الخال إليها دون انتظار ومن ثم اجتاز الزقاق أيضاً إلى حيث كانت تجثم سيارة الشريف، راح الإثنان يراقبان الشريف ولوكاس يعبران الفناء نحوهما، كان الشريف في المقدمة ولوكاس يتأخر عنه بحوالي خمس خطوات يسيّره دون إسراع وإنما بتصميم، دون مكر أو تحايل بالأحرى مثل رجلين مشغولين لا متأخرين ليس لديهما متسع من الوقت يضيّعانه، وقد اجتازا المدخل الرئيسي واتجها إلى الجانب الآخر من السيارة حيث فتح الشريف الباب الخلفي وقال:

«اركب» فقفز لوكاس إلى السيارة وأغلق الشريف الباب الخلفي وفتح الباب الأمامي وانسل فيه وهو ينخر، وقد ناءت السيارة تحت وطأته على

---

(1) ـ Lee قائد قوات الجنوب في الحرب الأهلية الأمريكية ـ المترجم.

نوابضها وإطاراتها عندما استلقى على المقعد وأدار المفتاح وبدأ المحرك بالعمل، كان الخال واقفاً حيال النافذة ممسكاً في ذلك الوقت بإطارها بكلتا يديه وكأنه فكر أو تهيأت له على حين غرة نيّة ثانية بأن يوقفها عن الحركة قبل أن تبدأ بالتحرك، قال ما كان هو نفسه يفكر به على مدى ثلاثين أو أربعين دقيقة:

«خذ أحد الأشخاص معك».

قال الشريف: «أنا. علاوة على ذلك برأيي أنهينا ذلك كله ثلاث مرات بعد ظهر اليوم».

قال الخال: «هذه مرة واحدة بالتمام بغض النظر عن عدد المرات التي أخذت فيها لوكاس بعين الإعتبار».

قال لوكاس: «دعني آخذ مسدسي وليمتنع أيّ كان أن يأخذني بعين الإعتبار. فأنا أقوم بذلك»: خطر له كم عدد المرات المحتملة التي طلب الشريف فيها من لوكاس أن يصمت وهذا ما جعل الشريف يمتنع عن تكرار طلب السكوت من جديد: بغض النظر عن ذلك (فجأة) أمره بالصمت، ببطء وتثاقل استدار صارخاً في المقعد مواجها لوكاس، قائلاً بصوت حزين مثقل بالكآبة:

«بعد المشكلة الطويلة العريضة التي تورطت فيها يوم السبت بوقوفك وأنت تحمل نفس هذا المسدس في جيبك على مسافة عشرة أقدام من الحيّز الذي كان يقف فيه أحد أنباء عائلة جوري، تريد أن تحمله في يدك وتتجوّل حول شخص آخر من عائلة جوري. أريدك أن تخرس وتبقى ساكتاً. وعندما نبدأ بالاقتراب من جسر وايت ليف أريدك أن تنبطح على أرض السيارة وتلتصق بها وراء مقعدي وتبقى ساكتاً. هل تسمعني؟».

قال لوكاس: «أسمعك. ولكن لو كان مسدسي معي»، لكن الشريف استدار آنئذٍ إلى الخال:

«لا يهم كم مرة تحسب كرافورد جوري فهو يظل شخصاً واحداً فقط لا غير»، تابع بصوت متنهد عنيد معتدل كأنه يجيب سلفاً على تساؤلات الخال حتى قبل أن يتمكن الخال من الكلام: «من الشخص الذي يصل

إليه؟» فكر في ذلك أيضاً تذكر الضجيج العالي الصادر عن احتكاك إطارات السيارات والعربات بالإسمنت وهي تجمح مبعثرة كيفما اتفق مندفعة بتهوّر مذعور لا نهاية له في كافة الاتجاهات نحو المكان المعزول النائي القصيّ من المنطقة، غير المدرج في الخريطة ما عدا اتجاه تلك الجزيرة الصغيرة في منطقة بيت فور المعروفة بإسم كنيسة كاليدونيا، في طريقها نحو الملاذ:

الآليات القديمة المستعملة المألوفة في البيت حيث النساء والصبايا والأولاد يحلبون الحليب ويقطعون الأخشاب من أجل فطور الغد، بينما يحمل الصغار القناديل ويجلس الرجال والشبان بعد أن يطعموا البغال استعداداً لحراثة الغد في صالة البيت بانتظار طعام العشاء قبيل الشفق: طيور السيد الأمريكي: الليل: النوم: هذا كل ما يمكنه أن يراه على وجه التحديد شرط أنّ خبل القتل من الممكن يأتي بكراوفورد جوري في أيّ وقت من جديد إلى مرمى السلاح ومداه المجدي ـ طالما أن كراوفورد من آل جوري أيضاً ـ لم يصدقّ بالاتفاق مع الشريف طبعاً ـ في هذه اللحظة علم لماذا ترك لوكاس مخزن فريزر حيّاً بعد ظهر يوم السبت، عدا عن الخروج حيّا في زمن ما من سيارة الشريف إلى السجن، آل جوري أنفسهم يعلمون أنه لم يفعل شيئاً وعلى هذا النحو كانوا يحسبون الوقت منتظرين شخصاً آخر لا على التعيين، ربما بلدة جيفرسون بسحله على أرض الشارع، خطر في ذهنه في ومضة، شعور أشبه بالعيب ـ الشخص المقرفص المقطوع اليد القاسي الفظ ذا القميص الأزرق وهو يحاول إزالة الرمل الرطب بالفرشاة من على وجه الميت وعرف على أية درجة من الغيظ يمكن أن يكون العجوز فيبدأ غداً بالتفكير ألا يحمل شيئاً ضد لوكاس بعدئذٍ لأن ابنه شغل كل حيّز من تفكيره ـ تخيّل الليل، في غرفة الجلوس مرة أخرى ومن جديد سبعة من آل جوري في بيت لا نساء فيه منذ عشرين عاماً لأن فوريست جاء من فيكسبريج للمشاركة في الجنازة بالأمس ومن المحتمل أنه ظل هناك هذا الصباح عندما أرسل الشريف في طلب جوري العجوز كي يلاقيه في الكنيسة، في منتصف الطاولة مصباح متّقد بين طاسة السكّر المغلّفة التي تعلوها طبقة متماسكة وأباريق الدبس وصلصة البندورة والملح والبهار الموضوعة في ذات الأوعية المصنّفة التي غادرت فيها رف المخزن. الرجل

العجوز يرأس الاجتماع يده الوحيدة ملقاة على الطاولة أمامه، والمسدس الكبير تحت يده ينطق بالمحاكمة وبحكم الإعدام والتصفية الجسدية أيضاً. على أيّ كان من آل جوري يتخلى عن جوريته بدم أخيه، من ثم الطريق المظلم والشاحنة غير المصادرة هذه المرة لأن فنسون اقتنى عربة نقل جديدة ضخمة يمكن تكييفها لنقل الأخشاب أو الماشية يقودها أحد الشقيقين التوأمين وقد ترجرج جسم العربة حسب غيار السرعة في حينه مثلما يترجرج زند خشبي مربوط بواسطة السلاسل، وهي تغادر كاليدونيا ومنطقة بيت فور بسرعة إلى داخل البلدة المظلمة الصامتة المترقبة وتستمر في إسراعها عبر الشارع الهادىء المؤدي إلى الساحة، ومنها إلى منزل الشريف فيهتز هيكل العربة الخلفي، ويندفع بقوة نحو شرفة منزل الشريف الأماميّة، وربما نحو مقصورة الشاحنة، وينتظر بينما يبادر الشقيق التوأم الآخر من آل جوري إلى قرع الجرس.

قال الشريف: «توقف عن القلق بشأن كراوفورد. لم يفعل شيئاً ضدي. لقد انتخبني. إن مشكلته بالضبط في هذه اللحظة هي قيامه بقتل المزيد من الناس على شاكلة جاك مونتجمري، لأن ما يرمي إليه هو إخفاء سرقته للأخشاب عن فنسون وعن العم صوليووركيت. وحتى لو أنه قفز إلى القدميّة[1] قبل أن يكون لدي الوقت لأتابع ما يحصل لبقي لديه دقيقة أو اثنتان يفتح خلالهما الباب ويستطيع أن يشاهد أين لوكاس بالضبط ـ اللهم إذا قام لوكاس في ذلك الوقت بصعوبة ونجاح بما طلب منه، وهذا ما آمل أن أكون متأكداً بأنه سيفعله من أجل مصلحته هو».

قال لوكاس: «سأفعل. لكن فقط إذا كان معي مسدّ....».

قال الخال بصوت أجش: «أجل إلا إذا كان هناك».

تنهّد الشريف قائلاً: «لقد بعثت الرسالة».

قال الخال: «وأية رسالة يمكنني أن أنقل. على كل حال بإمكاني نقلها. إنها رسالة القيام بتحديد موعد لقاء ما بين المجرم والشرطي،

---

(1) - RUNNIUGBOURD شبه عتبة على كل من جانبيّ السيّارة القديمة (لمساعدة المرء على امتطائها) ـ المورد ـ

بحيث أن أي شخص يوصلها إلى القاتل لن يعرف أنها موجهة إلى القاتل، وبحيث أن القاتل نفسه لن يعتقد في النهاية بأنه غير مقصود بالإبلاغ وإنما هذه هي الحقيقة».

أجاب الشريف: «لابأس. إما أن يتلقاها أو لا يتلقاها، وإما أن يصدقها أو لا يصدقها، وإما أن يكون بانتظارنا في سفح وايت ليف أو لا يكون، وفي حال عدم وجوده هناك سنذهب أنا ولوكاس إلى الطريق الرئيسي ونعود أدراجنا إلى البلدة». في هذه اللحظة سرّع المحرك دون الانتقال إلى وضع الحركة وتركه يهدأ من جديد، أضاء المصابيح. «لكنه قد يكون هناك. لقد أرسلت رسالة أيضاً».

قال الخال: «لِمَ ياسيّد بونز؟».

«لقد اتصلت برئيس البلدية كيّ يخوّل إنجرم إجراء اللاّزم بشأن فنسون، وقد قلت له بثقة من جديد مساءً وقبل أن يغادر ويلي إنني سأنقل لوكاس إلى هوليمانت هذا المساء على طريق وايت ليف المختصر فيستطيع لوكاس بذلك أن يظهر غداً في التحقيق المتعلق بجاك مونتجمري وذكّرت ويلي أنهم لم يأخذوا الحمل كاملاً من وايت ليف، بعد ولابد أن تعبر السيارات بالغيار الأول، وأخبرته ألا يذكر ذلك لأي شخص كان».

أجاب الخال دون أن يترك الباب موصداً من غير إحكام: «أوه. حالياً لا يهم انتماء من أعلن أن جاك مونتجمري حيّاً إلى مقاطعة يوكناباتوفا ــ ولكن فيما بعد».

قال بسرعة تاركاً الباب على مصراعيه الآن: «إننا في أعقاب قاتل فحسب وليس في أعقاب محام ــ لابأس». أردف قائلاً: «لِمَ لا تباشر العمل؟».

قال الشريف: «نعم. اذهب إلى مكتبكَ وابحث عن الآنسة يونيس. قد يكون ويلي قد مرّ بها في الشارع أيضاً وإذا ما فعل ذلك فإنها من المحتمل أن تهزمنا بالوصول إلى جسر وايت ليف في سيارة البيكآب تلك».

بعدئذٍ وصل الساحة ومر في أطرافها إلى حيث كانت الشاحنة الصغيرة خالية رابضة، مقدمتها بارزة في الجانب الآخر من الحاجز الحجري

الخالي، ومن ثم صعد الدرج الطويل الذي يخرج منه أنين ودمدمة مكتومـين إلى المكتب المفتوح بابه، وفيما هو يدخله خطر له دونما دهشـة كيـف أنهـا من المحتمل أن تكون المرأة الوحيـدة الـتي عرفهـا، والـتي كـانت تسـحب المفتاح المعار من القفل بعد قيامها بفتـح البـاب الغريـب مباشـرة، ولا تقـوم بترك المفتاح على سطح الطابق الأول الذي اجتازته وإنما تعيـده إلى حقيبـة اليد النسوية أو حقيبـة الجيـب أو أي شـيء آخـر بوسـعها أن تضعـه فيـه عندما يُعار لها، كما أنها تقوم بالجلوس علـى الكرسـي خلـف الطاولـة ولم تفعل ذلك أيضاً، لم تكن جالسة بثوب قماشي بـالغ الطـول واضعـة القبعـة على رأسها بل كانت ترتدي فستاناً آخر بالضبط مثل الـذي كـانت ترتديـه ليلة الأمس وتضـع حقيبـة اليـد نفسـها علـى حضنهـا وقـد شـبكت فوقهـا القفازين اللذين يبلـغ ثمنهمـا ثمـاني عشـرة دولاراً، إضافـة إلى الحـذاء ذي الكعب الزحاف الذي يبلغ ثمنه ثلاثين دولاراً الثابت على الأرض جنباً إلى جنب أمام الكرسيّ الأمتن والأكثر استقامة في الغرفة، الواقـع قـرب البـاب والذي لا يجلس عليه أحد البتة في الواقع بغض النظر عن ازدحام المكتـب. وتتحرك في النهاية إلى الكرسي المريح الواقع خلف الطاولـة بعـد أن يمضـي الخال دقيقتين كاملتين يؤكد تفسيره للأمر في خاتمة المطاف إنها ساعتان أو ثلاث حتى الآن لأنها وضعت السـاعة ذات المشـبك الذهـبي علـى صدرهـا مفتوحة عندما دخلوا، وبدا أنها تفكر وبأن الشريف في هذا الوقت لا يكـون قد عاد بكراوفورد جوري فحسب لكن من المحتمل أن يكون في الطريـق إلى السجن بصحبته: بعدئذ استوى في كرسيّة المعتاد إلى جانب براد المـاء، وفي النهاية أشعل الخال عود الثقاب في الغليـون المصنـوع مـن كـوز الـذرة وراح يتحدث والغليون في فمه وسط الدخان لا من خلفه فحسب:

«عدا عما أخبرنا لوكاس بـه في النهايـة لـدى قيامـه بمراقبـة مـا جـرى بنفسه مثل صقر أو جاسـوس عـالمي نحـن نعـرف مـا حـدث بسـبب أحـد جوانب هذه القضيّة المتمثل في امتناعه عن إخبارنا بأي شيء يبرر موقفه أو بالأحرى ينقذه، كان كل من فنسون وكراوفورد شريكين يشـتريان الخشـب من عجوز اسمه صـولي ووركيـت وهـو ابـن العـم الأول أو الثـاني أو الرابـع للسيدة جوري أو عمها أو شيء من هذا القبيل، أي أنهما وافقا مع العجـوز

صولي على ألا يدفع سعر القدم اللوحي[1] له إلا عندما يباع الخشب المنشور والذي لا يتم بيعه قبل قطع آخر شجرة، ويقوم كراوفورد وفنسون بتسليمه، ويحصلان على مالهما ومن ثم يدفعان حصـة صولي، وقد استأجرا منشرة وطاقماً لها لقطعه ونشره وتكديسه في المكان المناسب على بعد يقل عن ميـل من منزل صولي دون زحزحة خشبة واحدة قبل قطع كل الأخشاب. في النهاية ـ عملياً عدا عن هذا الجزء لن نعرف شـيئاً قبل أن يضع هامبتون يديه على كراوفورد، سوى أن الأمور يجب أن تكون على هذا النحو وإلا ما الذي كنتم جميعا تفعلونه بنبش جثة جاك مونتجمري من قـبر فنسـون؟ في كل مرة يخطر هذا الجزء في بالي أتذكركم أنتم الثلاثة عائدين وأنتم تهبطون التلة إلى البقعة نفسها حيث سمعه اثنان منكـم أو ربمـا شـاهده واحـد وقـد ركب الحصان إزاء الرجل الذي بعد أن وضع جثّة القتيل أمامه علـى ظهـر البغل قام بتغيير مفاجىء وعاجل في خطتـه بحيـث لم يكـن في القـبر أحـد عندما وصلت مع هامبتون إلى هناك بالكاد بعد انقضـاء سـت سـاعات علـى ذلك...».

قالت الآنسة هابرشام: «لكنه لم يفعل».

سأل الخال: «ماذا؟ أين كنت أنا؟ آه نعم» ـ ذات مسـاء مضـى لوكـاس بوشامب في مشواره فسمع صوتاً ما فذهب ليستطلع حولـه وربمـا كـان مـاراً بالفعل وشاهد أو ربما لديه فكرة مسبقة كانت سبباً لذهابـه في مشـوار أو في ذلك المشوار تلك الليلة وشـاهد شـاحنة بعـد أن لاحظهـا تحمّـل في الظـلام بذلك الخشب المنشور الذي كان الجيران جميعاً على علم بعدم نقلـه إلى أن يتم إغلاق المنشرة بحد ذاتها ونقلها بعيداً في وقت ما فيما بعد وربما يكـون لوكاس قد راقب وسمع وربما واصـل مشـواره إلى هوليمـاونت وجلاسـجو في مقاطعة كروسمان إلى أن تأكد لا ممن كان ينقل بعضاً من ذاك الخشـب كـل مساء أو شيء من هذا القبيل، بكميات ليست كبيرة في ذلك الوقـت، علـى وجه الدقة ليست كبيرة لتلفت نظر من لا يتواجد هناك كل يوم إلى افتقادها (والناس الوحيدون المتواجدون كل يوم هناك والمهتمون إلى ذلك الحد كـانوا

---

(1) ـ BOARD FOOT القدم اللوحي: وحدة قياس تساوي 144 إنشاً مكعباً.

كراوفورد جوري الذي كان ينوب عن نفسه وشقيقه وعمه الذين يملكون الأشجار والأخشاب المنشورة ويفعلون بها ما يشاؤون، أحدهما يتجول في أرجاء الريف وينكب طوال اليوم على أموره الطارئة الأخرى والآخر رجل عجوز مصاب بالروماتزم يبدأ بالعمل وهو علاوة على ذلك نصف أعمى لا يستطيع مشاهدة شيء حتى لو وصل إلى ذلك المكان البعيد عن بيته ـ إضافة إلى طاقم العاملين في المنشرة الذين يعملون مياومة لذا لم يبالوا حتى إذا علموا بالذي يجري أثناء الليل طالما أنهم يقبضون أجورهم كل يوم سبت) بل من طريقة تصرفه بها، ربما كان يعرف بقدر جاك مونتجمري لا أكثر بالرغم من أن معرفة لوكاس عن جاك لا تغيّر في الأمر شيئاً سوى بأن يجري هذا الأخير إلى حتفه والمواراة في قبر فنسون وبهذا من المحتمل أن ينقذ جاك حياة لوكاس. من جانب آخر عندما أخبرني هوب كيف حصل في النهاية على كل هذا من لوكاس في مطبخه هذا الصباح عندما أحضره ويل ليجيت من السجن ونحن نوصلك إلى البيت اتضح جانب واحد لأنني كنت مأأزال أقول ما كنت قلته منذ أن أيقظتموني جميعاً هذا الصباح وأخبرني تشيك بما أخبره لوكاس عن المسدس: لكن لماذا فنسون؟ لماذا يقدم كراوفورد على قتل فنسون ألكي يطمس الشاهد على سرقته؟ وما كانت الأمور تسير بالطبع حسب الطلب طالما أن لوكاس في الحقيقة سوف يموت فور مجيء أول شخص أبيض يشاهده واقفاً فوق جثة فنسون وقبضة المسدس بارزة تحت الجزء الخلفي من معطفه، لكن لِمَ تصفية الأمر بهذه الطريقة، من خلال تحوّل عجيب في جريمة قتل أخٍ لأخيه؟

في الواقع طالما أن لدينا أمراً هاماً بما يكفي للتحدث مع لوكاس بشأنه فقد ذهبت مباشرة إلى منزل هامبتون بعد ظهر هذا اليوم إلى المطبخ حيث كان طباخ هامبتون جالساً على أحد جوانب الطاولة ولوكاس على الجانب الاخر يتناول الخضار وخبز الذرة من قدر يتسع غالونين لا من طبق عادي وقلت: «تركته يمسك بك ـ لم أقصد كراوفورد..».

فقال: «لا. أعني فنسون أيضاً. كان الوقت متأخراً بعدئذ وقد تمّ شحن الشاحنة وإرسالها على جناح السرعة دون إشعال أية أضواء ودون أي أثر فقال لمن هذه الشاحنة الصغيرة؟ وأنا لم أقل شيئاً».

أجبت: «لا بأس. وماذا بعد؟».

قال: «لا شيء. هذا كل ما في الأمر».

«ألم يكن معه بندقية».

أجاب لوكاس: «لا أدري. كان معه عصا».

وقلت: «لابأس. تابع».

فقال: «لا شيء. توقف هناك فحسب للحظة وطوّح عصاه إلى الخلف وقال أخبرني، لمن كانت هذه السيارة الشاحنة وأنا لم أقل شيئاً البتّة ومن ثم طوّح بالعصا إلى الخلف والأسفل واستدار ومن ثمّ لم أشاهده مطلقاً».

قلت: «إذ ذاك أخذت مسدسك».

قال: «ومضيت...».

وأردف قائلاً: «لم يتطلب الأمر تحركاً مني. أتى إليّ، أقصد كراوفورد هذه المرة، إلى منزلي في الليلة التالية وكان ينوي أن يدفع لي لأخبره لمن كانت الشاحنة الصغيرة، وعرض عليّ كمية من المال قيمتها خمسون دولاراً وقلت له لم أقرر بعد لمن كانت الشاحنة الصغيرة وأجاب بأنه سيترك المال لي بأي حال من الأحوال حتى أقرر وقلت آنذاك قررت ما أنا فاعل، وهو الإنتظار حتى الغد - كان ذلك مساء الجمعة — بحثاً عن دليل ما على حصول كل من ووركيت وفنسون على حصتهما من ثمن الخشب المنشور».

قلت: «نعم؟ وماذا بعد؟».

«بعدئذ أذهب وأقول وقلت للسيد ووركيت من الأفضل له...».

قلت: «قل ذلك مرة أخرى. ببطء».

«قلت للسيد ووركيت من الأفضل له أن يعد أخشابه».

«أنت أيها الزنجي الوضيع، تطاولت على رجل أبيض وقلت له بأن أولاد أخيه كانوا يسرقونه - وهو علاوة على ذلك أبيض من منطقة بيت فور. ألم تكن تعرف ما الذي سيحصل لك؟».

أجاب: «لم يكن هناك مناصاً البتّة. لأنني في اليوم التالي — السبت — تلقيت الرسالة...» لم يكن لي بداً بعدئذٍ من العلم بقضية المسدس لأن من

الواضح أن جوري كان يعرف عنه: *ولم يكن وارداً أن تنص الرسالة ثم تعويض مالك المسروق، أنا راغب بالحصول على موافقتك الشخصية، أحضر مسدسك وكن مؤدباً* - على شيء من هذا القبيل فقلت: «لكن ما علاقة المسدس؟».

أجاب قائلاً: «كان يوم السبت».

وأنا قلت: «نعم، التاسع من الشهر. لكن لم المسدس؟».

من ثم أدركت، فقلت: «أعرف. حملت المسدس عندما كنت ترتدي ثياب يوم السبت بالضبط مثلما كان يفعل كاروثرز العجوز قبل أن يهديك إياه».

قال: «باعه لي».

فقلت: «ماشي الحال. استمر».

فقال: «تلقيت الرسالة للقاء به في المستودع أخيراً...».

أشعل الخال عود الثقاب مرة أخرى وراح ينفث الغليون متابعاً كلامه، متحدثاً والغليون في فمه، والدخان يحيط برأسه، ويبدو السامع كأنه يراقب الكلمات:

في النهاية لم يذهب إلى المخزن قطعاً، قابله كراوفورد في الغابة جالساً على ما تبقى من جذع شجرة مقطوعة إلى جانب الطريق وانتظره تقريباً قبل أن يغادر لوكاس البيت على وجه التحديد، وبات المسدس في متناول كراوفورد، وقد خرج قبل أن يبادر لوكاس إلى القول مرحباً، أو هل ابتهج السيد فنسون والسيد ووركيت بالحصول على أي مبلغ من المال أو أي شيء، قائلاً: «حتى عندما تتابع التصويب به من المحتمل ألا تحقق إصابة» وهكذا كان باستطاعتك أن تنهي الأمر بنفسك؛ ذكر لوكاس كيف أن كراوفورد في النهاية راهن بمبلغ نصف دولار على عدم تمكّن لوكاس على إصابة بقية الجذع المقطوع من مسافة خمسة عشر قدماً، فتمكّن لوكاس من إصابته، وأعطاه كراوفورد نصف الدولار وتابعوا سيرهم مسافة ميلين آخرين نحو المخزن، فطلب كراوفورد من لوكاس أن ينتظر هناك، في هذه الأثناء أرسل السيد ووركيت إيصالاً موقّعاً عن حصته من الخشب المفقود إلى

المخزن، ومضى كراوفورد وأحضره، فغدا بإمكان لوكاس مشاهدة الإيصال بأم عينه وقلت: «وأنت ألم تشكّ بأيّ شيء حتى تلك اللحظة؟» قال: «لا. شتمني بشكل تلقائي». في الحد الأدنى يمكنك أن تنهي ذلك، لا حاجة لإثبات أي شجار بين فنسون وكراوفورد أو لإجهاد ذهنك بعمق شديد في تخيّل ما قاله كراوفورد لجعل فنسون ينتظر في المخزن فيرسله على طول الطريق طالما أن الأمر لا يتطلب أكثر من ذلك: «لابأس. أحضرته. إن بقي مُتَمنّعاً عن الإخبار لمن كانت تلك الشاحنة فسوف نعرفها منه بالقوة»، لأن ذلك لا يهم فعليّاً، إلى حد أن لوكاس شاهد فنسون هابطاً في طريق المخزن على جناح السرعة قال لوكاس: لكن من المحتمل أن ما عناه هو أنه كان نافذ الصبر، مشوشاً قلقاً بالغ القلق في آن معاً، ربما كان يفعل بالضبط ما فعله لوكاس، الإنتظار على الآخر بالكلام وشرح قيام فنسون بإنهاء الإنتظار أولاً حسب معلومات لوكاس، وقد استمر في السير والكلام ووصل إلى عبارة:

«على هذا النحو غيّرت رأيك» عندما قال لوكاس أنه تعثّر بالمشي فوق شيء ما، وسقط على وجهه، وفي ذلك الوقت تذكّر لوكاس أنهما سمعا عياراً نارياً وتأكّد أن ما سقط فنسون فوقه كان شقيقه كراوفورد، وبعدئذٍ كان معظمهم هناك قال لوكاس قبل أن يكون لديه الوقت حتى ليسمعهم وهم يجرون عبر الغابة قلت: «أظن أنك في ذلك الوقت تماماً تتأهب لتتعثّر خطاك فوق فنسون، أو سليبورث العجوز وآدم فريزر أم لا؟» لكن في الحد الأدنى لم أقل «لكن لِمَ» لَمْ تقدم تفسيراً في حينه، بحيث لا يترتب على لوكاس قول أيّ شيء لأحد: بذلك كان على خير ما يرام ـ أنا لا أقصد لوكاس بالطبع، بل أقصد كراوفورد لا كمجرد ابن بليّة ـ وهناك كان أمر يحدث من جديد عرفه في هذه المرة، قامت الآنسة هابرشام بما لم يعرفه، لم يكن صوتاً فهي لم تتحرك ولم يحصل قيامها بتناول أيّ مهدئ إلا أن أمراً طارئاً وقع، لم يحصل لها من الخارج إلى الداخل وإنما من الداخل إلى الخارج وكأنها لم تكن مندهشة فحسب به بل سيطرت عليه وتحكّمت به، لكنها لم تتحرك البتة، ولم تأخذ شهيقاً إضافياً، ولم يلاحظ الخال هذا كثيراً بل شخص مختار على الأغلب مصطفىً مميز أو متفرّد من قبل الآلهة لا ليبرهنوا عن أنفسهم لأنهم لم يشكوا بذلك ولكن ليبرهنوا للإنسان عن

طريق تلك الصفة التي يشترك بها مع غيره في الحد الأدنى أن له نفساً تسوّل له في النهاية قتل أخيه الإنسان.

قالت الآنسة هابرشام: «وضعه في الرمال المتحركة».

قال الخال: «نعم. لم يكن الأمر مروّعاً ـ كل ما في المسألة سوء طالع سير عجوز زنجي في حالةٍ أشبه بالمنام ومن ثم الإقدام على ذلك دون التعرّض لعواقب وخيمة بخطّةٍ بسيطةٍ خالية من الأخطاء من ناحية سيكولوجيتها البيولوجية والجغرافية يمكن أن يسميها تشيك أمراً طبيعياً، وقد تم إحباطها هنا قبل أربع سنوات بوقوع ولد غير مدرك لوجوده في هذا العالم في ساقية بحضور ذاك الزنجي السّائر في منامه ونحن لا نعرف ذلك الجزء بأي حال من الأحوال، ولولا وضع جاك مونتيجمري الحالي من المحتمل أننا لن نعرف البتة على الرغم من عدم أهمية هذا الأمر طالما أن الحقيقة تبقى، وإلا ما سبب وجود جاك مونتيجمري في قبر فنسون سوى أنه من خلال شراء الخشب المقطوع من كراوفورد (اكتشفنا ذلك عن طريق مخابرة هاتفية مع الشخص الذي أرسلت إليه كل الأخشاب في ممفيس بعد ظهر هذا اليوم) كان يعلم مصدره أيضاً طالما أن معرفة ذلك لا بد أن تكون منسجمة مع سلوكه وشخصيته وفي حقيقة الأمر عاملاً من عوامل ربحه كسمسار وعندما زلّت قدم فنسون شريك كراوفورد على حين غرّة وأودت بحياته خلف مخزن فريزر في الغابة لم يكن جاك مونتجمري بحاجة إلى كرة العرّاف البللورية لاستقراء ذلك أيضاً، وإذا ما صحّ هذا الحدث للإستفادة منه إلى أبعد حدٍ، أو لمنحنا أنا وهامبتون تحكّماً أكبر بالقضية، وسوف نردّ نحن بالمثل، كان جاك على دراية بتذكار الإنتصار القديم الذي حازه بودي مكّالوم في الحرب أيضاً، وأنا أحب أن أفكر بشأن كراوفورد».

... تكرّر ما حدث في المرة السابقة دون صدور إشارة من الخال الذي أحسّ أو رأى أو شعر (أو مهما يكن الأمر) بما جرى، للحظة توقف وبدا كأنه على وشك الكلام، وفي لحظة تالية نسي الأمر تماماً، تابع الكلام من جديد: «...من الممكن أن يكون جاك قد حدد ثمن صمته وقبضه أو قبض قسطاً منه في محاولة منه إلصاق تهمة القتل بكراوفورد جوري، ربما بعد أن

تم ترسيخ كل اتصالاته للحصول على مزيد من المال أو ربما كان يكره كراوفورد ورغب بالإنتقام أو ربما وهو الصفائي في تخطيطه أحجم عن فكرة القتل وببساطة نبش قبر فنسون ليحمل جثته فوق البغل ويأخذها إلى الشريف لكن مهما يكن الأمر ففي الليلة التي تلت الجنازة قام من لديه سببٌ وجيه لنبش قبر فنسون بنبشه، ولا بد أن يكون جاك علم، كشخص لم يرغب في النهاية نبش جثة فنسون بل لديه سبب يجعله يراقب ذلك الشخص الذي من الممكن أن يكون لديه سبباً كافياً للقيام بالنبش، علماً أن النبش تم خلال فترة ـ قلت أنت أن الساعة كانت العاشرة عندما أوقفت أنت وألك ساندر الشاحنة الصغيرة واحلولك الظلام بما يكفي للقيام بنبش القبور في حوالي السابعة من تلك الأمسية بحيث تبقى ثلاث ساعات ــ هذا ما أقصد بشأن كراوفورد»، قال الخال ولاحظ هذه المرة أنه قد توقفت عن الإستنتاج وجاءت بهدوء دون صوت أو حركة، كانت القبعة على حالها والقفّازات وحقيبة اليد على حضنها مرتبتين بإحكام، حذاءاها منغرزان دونما حراك جنباً إلى جنب وكأنها قد ثبتتهما في رسم تخطيطي بالطباشير على الأرض: «الذي(1) راقب هناك بين الأشواك الواقعة خلف السياج ليشاهد نفسه، لا مجرّد مخدوع من خلال الإبتزاز بالمال وإنما يكابد أصناف العذاب والحيرة من جديد عدا عن العمل الفيزيائي طالما أن أحد الأشخاص علم من قبل أن الجثة لا تتحمّل المعاينة من قبل عناصر شرطة مدرّبين، ولم يعرف بتاتاً كم من الأشخاص غيره قد يعرفون أو يشكّون في عملية إخراج الجثة من القبر الآن بالرغم من أن لديه من يساعده لقاء أجرٍ هنا سواءً كان هذا الأخير على درايةٍ بالملابسات أم لا بحيث أنه انتظر إلى أن أخرج جاك مونتيجمري الجثة وباتت على أهبة الاستعداد للتحميل فوق ظهر البغل (توصلنا إلى معرفة ذلك أيضاً، كان بغل الحراثة الذي يحوزه جوري، البغل ذاته الذي كان يركبه التوأمان هذا الصباح، استعاره جاك بنفسه في وقت متأخر بعد ظهر يوم الأحد ذاك وعندما تحرز من أعاره إياه من عائلة جوري ستكون مصيباً: لقد استعاره من كراوفورد) وما كان

(1) ـ تعود إلى كراوفورد قبل أربعة أسطر.

ليجازف باستعمال المسدّس حالياً مهما يكن بعد الآن أكثر مما كان في مقدوره أن يستعمله سابقاً، وقد دفع على الأغلب لجاك من جديد مبلغ الإبتزاز لقاء شرف استخدام أيّة أداة كانت، قام بسحق جمجمة جاك ووضعه في التابوت، وأعاد ردم القبر من جديد ــ وهنا من جديد كان الإسراع اليائس المقيت، العزلة والنبذ لا بما تنطوي عليه من رعب وإدانة كل إنسان ضده، وإنما بما تتضمنه من الصراع ضد عطالة الأرض المجردة، واندفاع الزمن المريع اللامبالي، وحتى التفوق على تحالف هذه الأشياء في النهاية، بات القبر لائقاً من جديد كي توضع فوقه الورود المبعثرة كما بات الدليل على جريمته الأصلية آخر الأمر مطبوعاً، ولا يرقى إليه الشك ـ هذه المرة تابع الخال استنتاجاته بلا توقف ــ بعدئذ نهض في النهاية والتقط نفساً عميقاً للمرة الأولى منذ اللحظة التي اقترب فيها جاك وهو يحكّ رؤوس أصابعه بالإبهام ـ سمع صوتاً لا على التعيين أرسل به بسرعة بالغة إلى أعلى التل ومن ثم زحف وتسلّل واستقر مرة أخرى كي يلتقط أنفاسه ولكن هذه المرة في غير غضب وخوف ولكن تقريباً بشك لا يصدّق في أن رجلاً واحداً بمفرده من الممكن أن يكون عرضة لكل هذا الحظّ السيّء، كان يراقبكم أنتم الثلاثة تضاعفون عمله ولا تبطلونه فحسب طالما أنكم لم تتوقفوا عند إظهار جاك مونتيجمري بل أعدتم ردم القبر ووضع الزهور فوقه: لم يكن يسمح بالعثور على جثة شقيقه فنسون في ذلك القبر كما أنه لم يجرؤ على السماح بالعثور على جثة جاك مونتيجمري فيه (كما يجب أن يعرف) عندما وصل الشريف في الغد إلى هناك: توقف هذه المرة ليسمح لها بالكلام فقالت: «دفن أخاه في الرمال».

أجاب الخال: «آه. قد تمرّ تلك اللحظة بأي إنسان ببساطة عندما لا يبقى أي شيء تفعلينه مع أخيك أو زوجك أو خالك أو ابن عمّك أو حماتك سوى القيام بالقضاء عليهم. لكن لا تضعيهم في الرمال المتحركة. أليس كذلك؟».

قالت بهدوء وحسم عنيد: «وضعه في الرمل اللّين» دون أن تحرك أو تقلب سوى شفتيها للتكلّم إلى أن رفعت فيما بعد يدها وفتحت الساعة وثبتتها على صدرها ونظرت إليها.

قال الخال: «لم يصلوا إلى سفح وايت ليف بعد. لكن لا تقلقوا، سيكون هناك، قد تصل رسالة إليه لكن لا أحد في هذه المقاطعة من المحتمل أن يتجنّب الاستماع إلى أي شيء قاله ويلي إنجرم بموجب تعهد بالكتمان، لأنه لا يوجد أي شيء آخر كما ترون يستطيع القيام به لأن المجرمين مقامرون والمجرم الهادئ كالمقامر الهاوي لا يؤمن بخطة أوليّة وإنما بالخبطات البعيدة، إذ أن الخبطة البعيدة تُكسَب ببساطة لأنها خبطة ولكن علاوة على ذلك، لنقل أنه عرف من قبل أنه خاب وليس بإمكان وأية إفادة يدلي لوكاس بها حول جاك مونتيجمري أو أي شخص آخر أن تسبّب له المزيد من الأذى بحيث يكون آخر أمل له هو مغادرة البلاد، أو لنقل عرف أنّ ذلك من العبث، أيقن أنه يبدّد آخر مبلغ أو نقود قليلة من عملة ظلّ يسميها الحريّة، لنفترض أنه أيقن تماماً أن شمس الصباح لن تشرق عليه ـ ماذا تنوي أن تفعل بادئ ذي بدء، كفعل أخير وتعبير عن مبادئك التي لا تفنى قبل أن تغادر وطنك أو ربما العالم إلى الأبد. إذا كان اسمك جوري وإن كنت جورياً من حيث الدم والسلوك والتصرّف طوال حياتك وكنت تعلم بل وتعتقد أو حتى تأمل في لحظة معينة في حافلة تتهادى على غيار السرعة الثاني على طول قعر جدول صغير منعزل في منتصف الليل أن القضية والسبب في كل عذابك وغيظك وإثارتك وحزنك وعارك وخيبتك التي لاتعوض هي رجل زنجي وليس أبيضاً والمسدس مازال في يدك وفيه على الأقل واحدة من الطلقات الألمانية الأصلية العشر ـ لكن لاتقلق».

قال بسرعة: «لا تقلق بشأن السيّد هامبتون. من المحتمل ألا يشهر مسدسه، لست واثقاً بالواقع أن لديه مسدساً لأن لديه طريقة ربما لا يحمل بموجبها إلى كل المواقف الطمأنينة، وربما لا يحمل الحد الأدنى من المشاعر الأولية وإنما يحمل في الحد الأدنى إحراجاً آنياً من السلوك الفظّ والعنيف فقط من خلال التحرك ببطء والتنفس بصعوبة، حدث هذا قبل حولين أو ثلاثة في العشرينات، إحدى السيدات من قرية منحنى الرجل الفرنسي بغضّ النظر عن ذكر الأسماء اختلفت حول أمر بدأ (حسبما فهمنا) بشأن مسألة جائزة الكاتو في مسابقة الطعام أثناء سوق خيري أقامته الكنيسة مع امرأة أخرى، كان زوجها ـ السيدة الثانية ـ يمتلك مقطرةً للخمر ظلّت تزود

سكان قرية منحنى الرجل الفرنسي بالوسكي لعدة سنين دون أن ينزعج منها أحد إلى أن تقدمت السيدة الأولى بشكوى رسمية إلى السيد هامبتون تطلب منه فيها الذهاب إلى هناك وتدمير جهاز التقطير وإيقاف العامل الذي يشغّله وبعد حوالي أسبوع أو عشرة أيام من ذلك جاءت إلى البلدة بنفسها وأخبرته أنها ستشكوه إلى حاكم الولاية والرئيس في واشنطن إن لم يفعل ذلك؛ هذه المرة ذهب هوب، وهي لم تقدم له توجيهات واضحة فحسب بل قال أن مسلكاً بعمق الركبة يؤدي إلى المقطرة في أماكن كانت مطروقة لسنين تحت ثقل أباريق سعة الواحدة منها غالون مليئة حتى السدادة بحيث تستطيع أن تتبعه حتى لو لم يكن معك مصباح يدوي كالذي بحوزته ويجدر بالذكر أن المقطرة كانت في موضع جميل كما تشتهي، دافئ محميّ سهل المنال في آن معاً والنار تحترق تحت القدر يزكيها أحد الزنوج الذي لا يعرف بالطبع من صاحب المقطرة ولا من يستفيد منها ولا أي شيء عنها حتى قبل أن يلاحظ جسامة هامبتون أو يشاهد شارته المميزة في النهاية: ذكر هوب أنه قدّم له الشراب أولاً وبعدئذٍ أتاه بماء في قرعوش من إحدى السواقي وجهّز له مكاناً مريحاً للجلوس إزاء جذع الشجرة، وسعّر النار لكي يجفّف قديمه المبلّلتين وهو ينتظر مجيء صاحب المقطرة، كانت الجلسة مريحة حسبما قال هوب، كان كلاهما عند النار في الظلمة مستريحين يتحدثان عن هذا الأمر أو ذاك والزنجي يسأل من وقت إلى آخر إن كان يرغب في قرعوش آخر من الماء إلى أن قال هامبتون راح الطائر المحاكي يصدر جلبة مقيتةً- إذ أنه في النهاية فتحَ عينين طارفتين في ضوء الشمس وهناك كان الطائر المحاكي على غصن لا يزيد ارتفاعه عن ثلاثة أقدام فوق رأسه وقبل أن يشحنوا المقطرة ليأخذها ذهب أحد الأشخاص إلى أقرب بيت وعاد بلحاف مدّه فوقه ووسادة وضعها تحت رأسه وقال هوب أنه لاحظ في الوسادة غطاءً جديداً عندما أخذها واللحاف إلى مخزن فارنر لكي تعاد مع جزيل الشكر لمالكها أيّاً كان وعاد إلى البلدة. ومرة أخرى....».

قالت الآنسة هابرشام: «لست منزعجة». أجاب الخال: «طبعاً لا. لأنني أعرف هوب هامبتون ....».

قالت الآنسة هابرشام: « نعم وأنا أعرف لوكاس بوشامب».

قال الخال: «أوه».

بعدئذٍ قال: «نعم».

من ثم أردف قائلاً: «بالطبع».

تابع القـول: «لنطلـب مـن تشـيك أن يوصـل الغلايـة بمـأخذ الكهربـاء ونتناول بعض القهوة أثناء انتظارنا، فما رأيكم؟».

قالت الآنسة هابرشام: «سيكون هذا أمراً ساراً».

الفصل الحادي عشر

في خاتمة المطاف نهض وتوجّه إلى إحدى النوافذ الأمامية، وراح يراقب الساحة اليوم لأنه إذا كان الإثنين فهو يوم المزاد العلني على المواشي والتجارة، بينما السبت يوم المذياع والحافلة بالتأكيد؛ يوم الإثنين يأتي معظم الرجال بالسيارات إلى المدينة ويوقفون السيارات والشاحنات على أطراف الساحة ومن ثم يتجهون رأساً إلى مخازن بيع الحبوب والماشية ويبقون إلى أن يحين موعد الرجوع إلى الساحة حيث يتناولون طعام الغداء ومن ثم يعودون إلى مخازن بيع الحبوب والماشية وينتظرون إلى أن يحين أوان الرحيل فيصعدون سياراتهم وعرباتهم الشاحنة ويسعون إلى منازلهم قبل حلول الظلام. أما في يوم السبت، فيجيء الرجال والنساء والأطفال أيضاً علاوة على المسنين والرّضّع والأزواج حديثي العهد الراغبين في استخراج تراخيص للأعراس المزمع إقامتها في كنائس الريف في اليوم التالي ليتسوّقوا ما يحتاجونه في أسبوع من السلع الضرورية والأطعمة الشهيّة كالموز وعلب السردين التي قيمتها خمسة وعشرون سنتاً، والكعك والفطر المصنّعين آلياً، والملابس والجوارب والعلف والسماد ولوازم المحاريث: أمور لا تستغرق وقتاً طويلاً من أيّ منهم، ولا تتطلب وقتاً على الإطلاق من بعضهم بحيث أن بعض السيارات لا تهدأ البتة في واقع الأمر وتنضم إليها بظرف ساعة سيارات أخرى كثيرة في حركة متواكبة مطّردة على غيار السرعة الثاني على الأغلب بالضبط بسبب كثافتهم على استدارة الساحة

مراراً وتكراراً وهم يخرجون منها إلى نهاية الشوارع السَكَنيّة الكثيفة الأشجار حيث تستدير وتعود أدراجها ويمضون في حركة دورانية حول الساحة كأنهم أتوا أبداً من الأحياء المكتظة والمخازن الواقعة على تقاطع الطرق والمزارع المتوحدة من أجل غرض أوحد هو الاستمتاع بالرواح والغدوّ والتحرك في الزحام والتعارف ونعومة الشوارع والأزقة المطروقة الشبيهة بقماش الزفر إلى جانب استمتاعهم بالنظر إلى البيوت الصغيرة الأنيقة حديثة الطلاء وسط ساحاتها الأنيقة الصغيرة ومساكب الزهر وتزيينات الحدائق التي قاموا بالتجمّع والتجمهر فيها مثل السردين والموز في السنوات القليلة الأخيرة، وبالتالي تنطلق أجهزة الراديو بأعلى صوت لها عبر مكبرات الصوت المشحونة حتى يتسنّى الاستماع إليها وسط صوت دمدمة العادمات وتشفيط الإطارات وصرير علب السرعة والزمامير المتلاحقة، بحيث أنك لا تستطيع قبل مسافة طويلة من الوصول إلى الساحة آخر الأمر، أن تقول أين يبدأ مذياع وأين ينتهي الآخر بل لا تستطيع أن تجهد نفسك في تمييز المادة المسموعة التي كان الناس يصغون إليها أو السلعة التي كانوا يحاولون بيعها لك.

من جانب آخر بدا هذا اليوم شبيه بيوم من أيام السبت إذ نهض الخال بدوره من وراء الطاولة على الفور واتجه إلى النافذة الأخرى أيضاً، فتسنّى لهم أن يشاهدوا لوكاس قبل أن يصل إلى المكتب بالرغم من عدم حلول الموعد بعد، وقد استمر هو في الوقوف (هكذا خيّل إليه) لوحده على النافذة ينظر نحو الأسفل إلى الساحة المزدحمة المكتظة بالناس ازدحاماً لم يتذكّر له مثيلًا من قبل ـ الجو مشمس صاح معتدل مفعم برائحة شجر الخرنوب المزهر الآتية من ساحة دار الحكومة، الأرصفة مضجرة مزدحمة عاجّة مكتظة بالناس بيضاً وسوداً وهم يؤمون البلدة وكأنهم متفقون على القيام جمعاً على أن يلتقطوا ويخرّجوا لامن رصيدهم وإنما من مدى ذاكرتهم ذاك السبت الذي حلّ منذ سبعة أيام مضت وحرمهم منه رجل زنجي عجوز أقحم نفسه في موضع حملهم على الاعتقاد فيه أنه قتل أحد البيض ـــ أيام السبت والأحد والاثنين مضت وكأنها لم تكن، طالما لم يبق أثر يدل عليها، رغم أنها في الأسبوع المنصرم: فنسون وشقيقه كراوفورد الراقد في قبر

انتحاره (طوال الأسابيع المنصرمة لابد أن يكون الغرباء قد تساءلوا عن شريف مقاطعة يوكناباتاوفا وسجنها حيث استطاع رجل محتجزٌ بتهمة القتل الحصول على مسدس «لوجر» ولو لم يكن فيه سوى رصاصة واحدة، ولهذا السبب لن يكون بمقدور أحد في مقاطعة يوكناباتاوفا على مدى أسابيع عدة أن يخبره) جنباً إلى جنب قرب شاهدة ضريح أمهما في ساحة كنيسة كاليدونيا وجاك مونتيجمري هناك في مقاطعة كروسمان حيث يحتمل أن أحدهم طالب به لذات السبب الذي دفع أحدهم للمطالبة بكراوفورد، أما الآنسة هابرشام فهي جالسة في صالتها الآن تصلح جواربها ريثما يحين موعد إطعام الدواجن، وألك ساندر هناك في الساحة يرتدي قميص الأحد الخفيف وبنطالاً ضيقاً ومعه حفنة من الفول السوداني والموز أيضاً، هو بدوره وقف على النافذة يرقب الحشود البشرية المتراصة عديمة الإقبال والإسراع، ويشاهد حافة قبعة ويلي إنجرم تبرق بوميض كليّ، إضافة إلى متابعة الحركة والضجيج، وأجهزة الراديو والسيّارات فوق ذلك كله أجهزه الجكبكس في الصيدلية وصالة البليياردو والمقهى ومكبرات الصوت الهادرة فوق مخزن الأدوات العسكرية والبحرية، وفوق محليّ الأعلاف لا من فوق جدران حانوت مبيع تسجيلات وموسيقى صحائفية[1] فحسب (بحيث تتردد أصداؤها) كما شاهد أحد الأشخاص واقفاً على مقعد في باحة دار الحكومة يخاطب آخر بواسطة خطم أشبه بفوهة بندقية مثبتة بلولب إلى أعلى السيارة، عدا عن مشاهدة من يجرون في الشقق السكنية حيث كانت ربات البيوت والخادمات تحضّرن الأسرّة وتكنسن وتعددن العدة لطهو طعام الغداء فلا يشعر رجل أو امرأة أو طفل أو مواطن أو ضيف أو غريب بالرهبة في لحظة صمت داخل حدود البلدة الأساسية المتحدة؛ إضافة إلى مشاهدة السيارات لأنه بصريح العبارة لم يشاهد الساحة على الإطلاق: كتلة كثيفة غير ممكن اختراقها من القبّعات والقلنسوات تتحرك على خطّين في زحف حلزوني حول الساحة وسط رائحة حادة غير مرئية

---

(1) - SHEET MUSIC الموسيقى الصحائفية: موسيقى مطبوعة على صحائف عريضة غير مجلدة - المورد -

من أول أكسيد الكربون والزمامير الصاخبة المتداخلة مع القرقعة الخفيفة لرفارف السيارات، التي تتهادى جميعاً في الشوارع المؤدية إلى خارج الساحة بينما الخط المعاكس الآخر كان يتهادى في بطء سيّارة تلو الأخرى إلى الساحة؛ وعلى هذا النحو اندمجت في فسيفساء متشابكة في حركة متناهية الضآلة بحيث من النادر أن تكون حريّة بكلمة أنك تستطيع أن تعبر الساحة ماشياً فوقها ـ أو تجتاز أطراف البلدة فوقها كذلك الأمر أو تجتازها على صهوة جواد، وليكن الحصان هاي بوي الذي لا تشكل قفزة طولها خمسة أو ستة أقدام من قمة رأس إلى قمة رأس أخرى تليها من خلف قبعة معترضة أمراً لا يذكر بالنسبة له أو لنقل فوق قمم رؤس ثابتة تم ركزها إلى جانب سطح أملس من ألواح خشبية متتابعة تشكل ما يشبه الجسر، وإذا لم يكن الحصان هاي بوي فليكن أي حصان مدرّب على الإسراع أو أي حصان بسرعة سير واحدة: رفٌّ يصعب التحكم به على ارتفاع سبعة أقدام في الفراغ يطير ويمضي بسرعة الصقر أو النسر: شعر كأن زجاجة مياه غازية كاملة قد انفجرت في معدته وهو يفكر بالضجيج الضخم والباهر والعظيم الذي يحدثه الحصان في أي اتجاه على جسر مصنوع من ألواح الخشب أو متقلقل يبلغ طوله ميلين عندما قال الخال على النافذة الأخرى فجأة:

«لا يحب الأمريكي شيئاً بالفعل قدر حبّه لسيّارته: لا زوجته ولا ولده ولا بلاده ولا حتى اعتماده المصرفي في المقام الأول (لا يحب اعتماده المصرفي بالواقع تقريباً بالحد الذي يطيب للأجانب أن يفكروا فيه لأنه سيصرفه كاملاً أو يصرف معظمه على أي شيء تقريباً إلا إذا كان عظيم القيمة إلى حد بعيد وإنما سيّارته. لأن السيّارة غدت الرمز الوطني للجنس بالنسبة لنا. فنحن لا نستطيع الاستمتاع بشيء إلا إذا امتطيناه وركبناه، وهكذا فكامل جذورنا الاجتماعية ونشأتنا وسلوكنا تأبى ما هو سرّي أو مكتوم. بالتالي نطلّق زوجتنا اليوم لننزع عن خليلتنا عار الخليلة على أن نطلق زوجتنا غداً لكي نتخلّص من خليلتنا وهكذا دواليك. نتيجة ذلك باتت المرأة الأمريكية فاترة وباردة جنسياً، سلّمت دافعها الجنسي إلى السيارة لا لأن لمعتها وآلاتها وقابليتها للحركة تعمل قوّاداً يوصلها إلى العبثية والعجز

(بسبب فستان خلعته عليها الجمعية الوطنيّة للخياطين) عن المشي لأنها لن تعاملها بخشونة أو تشعّث شعرها، وتجعلها متسخة غير مرتبة بتاتاً. علاوة على ذلك من أجل التقاط أي شيء أو إمساكه إلى الأبد كان على الرجل الأمريكي بموجب ذلك أن يجعل السيارة مكان الزوجة. وهذا ما يدفعه إلى استئجار منزل بحجم جحر الفأر وبالرغم من اضطراره إلى ذلك فهو لايمتلك واحدة فحسب بل يجددها في كل عام بعذرية بدائية، دون أن يعيرها لأي كان، دون أن يدع يد أيّ كان تقع على الخصوصية السرّية الأخيرة العفيفة دوماً الخليعة لدوّاساتها وعتلاتها، دون أن يذهب بها بنفسه إلى أي مكان وإذا ما فعل ذلك فهو لن يذهب إلى حيث يتغيّر لونها بفعل الاحتكاك والتلطّخ فيمضي صباح الأحد برمّته في غسلها وتلميعها وصقلها لأنه بذلك يداعب جسد المرأة التي تمنّعت عنه في سريرها منذ وقت طويل».

قال هو: «هذا ليس صحيحاً».

أجاب الخال: «لقد تجاوزت سن الخمسين. أمضيت السنوات الخمس عشرة في وسط تلك السنين أتلمس تحت تنانير النساء. وحسب تجربتي هذه كانت قلة منهنّ مهتمات بالحب أو بالجنس. لقد كنّ طامحات إلى الزواج».

قال هو: «مأأزال غير مقتنع».

قال الخال: «هذا صحيح. لا تقتنع. وعلى وجه التحديد عندما تتجاوز سن الخمسين، ابق مصراً على عدم اقتناعك». كان ذلك عندما شاهدوا لوكاس يجتاز الساحة، من المحتمل في الوقت نفسه ـ بدت القبّعة مطوية وبدت ومضة ضئيلة ضارية من المسواك المذهب المائل وقال:

«أين تظن يكون مسواك أسنانه كل هذا الوقت؟ لم أشاهده إطلاقاً. بالتأكيد تناوله معه بعد ظهر ذلك اليوم، يوم السبت عندما لم يكن لابساً تلك البدلة السوداء فحسب وإنما كان السدس معه؟ وبالتأكيد لم يخرج البتّة من البيت دون المسواك».

قال الخال: «ألم أقل لك ذلك؟ كان هذا أول شيء قام به عندما توجّه السيد هامبتون إلى منزل سكيبورث حيث كان سكيبورث قد قيّد لوكاس إلى

رجل السرير ـ أعطى هامبتون المسواك وقال له أن يحتفظ بـه إلى أن يطلبه منه».

قال هو: «أوه. إنه آت إلى هنا».

قال الخال: «نعم. لننتظر ونتأمل. أوه» قال بسرعة: «إنه رجـل أنيـق، فهو لا يذكرني بوجهي أنني كنت على خطـأ؛ سـوف يسـألني عـن المبلـغ الذي يدين به لي باعتباري محامياً له».

هو من على كرسيّه خلف مبرّد الماء والخال من وراء الطاولة سمعا بعدئذ الدمدمة والقعقعة الرقيقتين لدرجـات السـلم ومـن ثـمّ سمعـا وقـع خطـوات لوكاس المطّردة رغم عدم الإسراع أطل لوكاس هذه المرة ولم يكن مرتدياً ربطة عنق أو ياقة باستثناء زرّ لكنه كان يرتدي صدريّة بيضـاء تقـادم العهـد بهـا غير مغبرّة كثيراً لأنها كانت ملطخة تحت المعطف الأسود وأنشوطة مذهبـة لسلسلة الساعة. الوجه نفسه الذي شاهده لأول مرة عندما صعد من السـاقية المتجمدة والماء يقطر من جسـده ذلـك الصبـاح قبـل أربـع سـنوات منصرمـة والذي لم يطرأ عليه أيّ تبدّل منذ ما يقارب عصـراً بكاملـه ـ لـدى اجتيـاز الباب، ركّز وضع المسواك على إحدى جيوب المعطف العليا ثم قال مخاطباً الجميع:

«أيها السادة» خاطبه قائلاً: «أيها الشاب» بلهجة لطيفة مثخنة بالعناد أو بالأحرى بعدم اللباقة: في حالة أشبه بالابتهاج التام، أزاح القبعة المائلـة بزهوّ: «لم تعد للسقوط في الساقية من جديد أليس كذلك؟».

قال هو: «صحيح تماماً. إنني أرجيء ذلك حتى يكون لديك المزيـد مـن الجليد».

قال لوكاس: «أهلاً وسهلاً بك متى حللت دون انتظار الجليد». «اجلس يا لوكاس» قال الخال لكنه كان قد جلس قبل ذلك، تناول الكرسـي المتـين الموضوع إلى جانب الباب الـذي لم يسبق لأحـد أن اختـار الجلوس عليـه سوى الآنسة هابرشام، واضعاً يده على خاصرته كأنـه يـأخذ وضعيّـة أمـام الكاميرا، رافعاً حافة القبعة نحو الأعلى إلى الخلف عبر ساعده، مستمراً في النظر إليهما معاً، عاد إلى القول: «أيها السادة».

قال الخال: «لم تأتِ إلى هنا لأخبرك بماذا تفعل وها أنذا أدلك بأي حال من الأحوال».

نظر لوكاس إلى الخال نظرة خاطفة بعينين طارفتين نصف مفتوحتين.

نظر إلى الخال: «لا يمكنني القول أنني فعلت» من ثم قال بابتهاج: «لكنني دائماً مستعد للأخذ بالنصيحة المناسبة».

قال الخال: «اذهب وقابل الآنسة هابرشام».

نظر لوكاس إلى الخال. طرفت عيناه خطفاً مرتين في هذا الوقت».

قال: «لست مجرد زائر».

أجاب الخال: «ولم تكن مجرد رجل معرض للسحل في أي حال من الأحوال. ولست في حاجتي لأقول لك كيف كنت موشكاً على ذلك».

قال لوكاس: «لا. لا أعتقد أنني كنت كذلك. بِمَ تريدني أن أخبرها؟».

قال الخال: «لا تستطيع ولا تعرف كيف تقول شكراً جزيلاً. لقد رتّبت هذا الأمر أيضاً. قدّم لها بعض الزهور».

قال لوكاس: «زهور. ليس لديّ زهور أتحدث عنها بعد وفاة موللي».

قال الخال: «حتى الزهور أيضاً. سأخابر البيت. لدى أختي باقة ورد جاهزة. سيمضي تشيك في سيارتي لتأخذ باقة الورد ومن ثم يوصلك إلى باب منزل الآنسة هابرشام».

قال لوكاس: «لست بحاجة للتوصيل لأنني أستطيع الذهاب مشياً بمجرد حصولي على الزهور».

قال الخال: «يمكنك أن تلقي الزهور بعيداً. لكنّي أعرف أنك لن تقدم على هذه الفعلة ولن تقدم على الفعلة الأخرى بذهابك مع تشيك بالسيارة».

قال لوكاس: «حسناً. إن لم يكن هنالك أمراً آخر يرضيك» (عندما عاد أدراجه إلى البلدة ووجد في خاتمة المطاف مكاناً آخر على نهاية ثلاثة صفوف من المحلات التجارية المتلاصقة أوقف السيارة فيه أخيراً وتسلّق السلالم من جديد كان الخال يشعل عود الثقاب ويدنيه من الغليون

ويتحدث من خلال الدخان: «أنت وبوكرت ت.واشنطن، على العكس هذا خطأ، أنت والآنسة هابرشام وألك ساندر والشريف هامبتون، وبوكر ت.واشنطن لأنه تصرف في النهاية مثلما توقع الجميع منه بحيث لم يكن هنالك سبباً فعلياً يدفعه إلى ذلك بينما أنتم جميعاً لم تفعلوا ما لم يتوقع أحد منكم فحسب بل إن سكان بلدة جيفرسون أو مقاطعة يوكناباتاوفا قاطبة هبّوا في إجماع فعّال لمنعكم لو أنهم عرفوا في الوقت المناسب ولا بد أن يتذكر البعض (هذا إذا ما أقدموا على ذلك) ولو بعد عام من الآن بشيء من الاستهجان والنفور ليس فقط أنّكم كنتم أغوالاً[1] أو تحديتم لون جلدكم لأنهم يمكن أن يغضوا الطرف عن كل من هذين الأمرين على حدة وإنما قيامكم بانتهاك حرمة أحد قبور البيض لإنقاذ زنجي وضيع وعلى هذا النحو كانت لديكم كافة المبررات لفعلتكم. فقط لاتتوقفوا.....».

وهو: «ألا تظن إمكانية أن يختبئ شخص ما من جديد خلف شجيرة الياسمين في حديقة الآنسة هابرشام حاملاً المسدس متربصاً بها مترقباً حتى يسير لوكاس صاعداً درجات السلم باعتبار أن الوقت هو بعد ظهر يوم السبت. علاوة على ذلك فلوكاس لا يحمل مسدسه اليوم عدا عن ذلك فإن كراوفورد جوري.....».

تابع الخال الكلام: «لِمَ لا، ما تكشّف في باحة كنيسة كاليدونيا للحظة أو لحظتين يوم السبت الماضي كان كراوفورد في إثره وسوف يحمل لوكاس صبغته إلى حيث يتجنب إنسان أكثر حكمة حملها إلى عشرة آلاف فوقف كمن سيحمل مشعلاً سبق أن خلص به من شرٍّ محدق عشرة آلاف مرة في إثر ما كان لوكاس بوشامب يبحث عنه للحظة أو ما يقاربها والموجود في كنيسة كاليدونيا المحسوب عليها أيضاً، لأن مقاطعة يوكناباتاوفا تلك تمنعك أنت وألك ساندر والآنسة هابرشام مساء السبت الماضي عن عمل مصيب، إن حياة لوكاس من حيث التنفّس والأكل والنوم لا أهمية لها تماماً كعدم أهمية حياتك أو حياتي إلا أن حقّه غير الممكن تحدّيه بالعيش في سلام وطمأنينة هو المهم في الحقيقة هذه الأرض ستغدو أكثر راحة بعدد أقل

---

(1) - GHOUL مفردها غول: كائن خرافي شرير ينبش القبور ويحيا على الجثث.

بكثيرٍ من أمثال بوشامب وستيفنس وماليسون من كافة الألوان إذا وجدت أخيراً طريقة تخلو من الألم. الطمس غير ممكن للذاكرة غير القابلة للطمس لا لطمس الجثث الخرقاء التي تشغل الأمكنة فحسب ـ إنه وعي الذاكرة الأزلي الصعب محوه الذي كان حيّاً ذات يوم ومستمراً إلى الأبد على مدى عشرة آلاف سنة مليئة بعشرة آلاف ذكرى عن الظلم والمعاناة، كثيرون منا لا بسبب الحيّز الذي يشغلونه لكن بسبب رغبتنا ببيع الحرية فوراً بأي ثمن مبهرج في سبيل ما ندعوه حريّتنا التي هي قانون دستوري تشريعي لمتابعة كل شخص شرطه الضروري للسعادة والقناعة بغض النظر عن الأسى والتكلفة حتى لصلب شخص ما لا نحب شكل أنفه وسحنته وحتى هذه الأمور من الممكن استيعابها إذا ما كانت قلةً قليلة من الآخرين تعتقد أن حياة إنسان ما ذات قيمة ببساطة لأن له الحق بالاستمرار بالتنفس بغض النظر عن الخضاب الذي تتضخم به رئتاه أو الهواء الذي يستنشقه الأنف وترغب بالدفاع عن ذلك رئتاه أو الهواء الذي يستنشقه الأنف وترغب بالدفاع عن ذلك مهما كان الثمن وهذا أمر لا يحتاج للكثيرين وقد كفى ثلاثة أشخاص لذلك الأحد الماضي ومن الممكن أن يكفي شخص واحد وبوجود عدد كافٍ ممن يرغبون بأن يكونوا أكثر من مجرد أناس يشعرون بالعار والأسى لن يتعرض لوكاس لغبة الحاجة لإنقاذ حياته دونما تحذير: وهو: «قد لا يكون هنالك داع لثلاثة أشخاص في مساء آخر. فقد يكفي لذلك شخص واحد ونصفا شخص» خاله: «قلت لا بأس أن تكون فخورا. لا بأس أن تتباهى أيضاً. لا تتوقف فحسب» .....جاء إلى الطاولة وألقى القبعة عليها وأخرج من جيب معطفه الداخليّة «جزداناً» له أبزيمٌ أكسبه تقادم العهد جمالاً كالفضة القديمة يقارب حجمه حجم حقيبة يد الآنسة هابرشام تقريباً وقال: «أعتقد أنك قد أخذت «كمبيالة» صغيرة مني».

أجاب الخال: «لماذا؟».

قال لوكاس: «للمرافعة في قضيّتي. حدّد كم تبلغ تكاليف أتعابك في حدود المعقول، سأدفع أجورك».

قال الخال: « لا تدفع لي فأنا لم أفعل شيئاً».

قال لوكاس: «أرسلت إليك. وكلّفتك. بكم من المال أنا مدين لك؟».

قال الخال: «لست مديناً بأيّ مبلغ. لأنني لم أصدقك. فهذا الصبي القابع هناك هو السبب في سيرك حيّاً هذا اليوم».

تطلّع لوكاس إليه حاملاً «الجزدان» في يد ورافعاً اليد الأخرى ليفتح «الجزدان» ـ نفس الوجه الذي لم يحصل فيه أيّ تغيير أو بالأحرى رفض أن يقبل التغيير؛ في هذه اللحظة فتح الجزدان: «لا بأس. أدفع له».

قال الخال: «وأنا أحتجزكما معاً. أقبض عليك أنت بتهمة رشوة صبيّ قاصر وألقي القبض عليه لأنه مارس مهنة المحاماة من دون ترخيص».

التفت لوكاس إلى الخلف نحو الخال، وراح يراقبهما يتبادلان النظرات بعدئذ رفّ لوكاس عينيه مرتين وأردف: «ماشي الحال. أدفع التكاليف إذن. حدد أتعابك في حدود المعقول ولنضع حداً لهاذ الأمر».

قال الخال: «أية تكاليف؟ أجل لدي كلفة جلوسي هنا يوم الثلاثاء الماضي في محاولة تسجيل كل الأشياء المختلفة التي أخبرتني بها مؤخراً بطريقة جعلت السيد هامبتون يقتنع بما يكفي لإطلاق سراحك من السجن وعلى هذا النحو كان القلم يزداد سوءاً كلما حاولت الكتابة، وكلما ازدادت الكتابة صعوبة ازدت انزعاجاً إلى أن وقع قلم الحبر السائل الذي يخصّني فوق ريشته على الأرض كالسهم عندما عدّت لأتناوله. بالطبع الورقة من مخصصات المقاطعة أما قلم الحبر السائل فهو لي وكلّفني وضع ريشة جديدة له مبلغ دولارين، أنت مدين لي بدولارين».

قال لوكاس: «دولارين» رف عينيه مرتين من جديد. أعاد ما فعل مرة أخرى: «دولارين فقط؟» هذه المرة رفّ عينيه مرة واحد، من ثم غيّر تنفسه:

لم تصدر تنهيدة، بل صعدت زفرة، وضع إصبعيه في «الجزدان»: «يبدو لي هذا الأمر مريعاً فأنا رجل فلاح وأنت رجل قانون وفي حال عرفت عملك أم لا أعتقد أن إقناعك بخلاف ذلك لا علاقة له بعربتي الحمراء حسب ما تقول الأغنية في الصندوق الموسيقي: أخرج من «الجزدان» فاتورة «مجعلكة» مهترئة كروية لا تكبر حبّة زيتون ذابلة حجماً وفتحها بحيث يمكن قراءتها ووضعها على الطاولة وأخرج نصف دولار من الجزدان وعدّه على المكتب ومن ثم عدّ على المكتب أربعة قطع من فئة العشر سنتات واحدة تلو

الأخرى وقطعتين من فئة الخمس سنتات بعد أن أخرجها من «الجزدان» وأعاد عدّها من جديد بسبّابته، حركها جميعاً القطعة تلو الأخرى بمسافة نصف بوصة، تحركت شفتاه تحت الشاربين، ظل «الجزدان» مفتوحاً في اليد الأخرى، من ثم التقط قطعتين من فئة العشر سنتات وقطعة من فئة الخمس سنتات ووضعها في اليد التي تحمل «الجزدان» وأخرج من «الجزدان» ربع دولار ووضعه على المكتب ونظر إلى النقود لحظة خاطفة ومن ثم أعاد وضع القطعتين من فئة العشر سنتات ومن فئة الخمس سنتات على المكتب ورفع نصف الدولار وأعاده إلى «الجزدان».

قال الخال: «ليس هذا المبلغ سوى ست قطع نقدية صغيرة».

قال لوكاس: «غير مهم» رفع ربع الدولار من جديد أسقطه وأغلق عليه «الجزدان» وقد لاحظ هو أثناء مراقبته للوكاس أن «الجزدان» مؤلف من قسمين مختلفين أو ربما أكثر على الأقل، وجزء ثان تقريباً بعمق كوع مفتوح تحت أصابع لوكاس ولبرهة ظل لوكاس واقفاً إزاءه بالضبط كأنك تنظر من علٍ إلى انعكاس صورتك في البئر وبعدئذ أخرج من ذلك الجزء كيس تبغ مربوط متّسخ مصنوعٍ من القماش منتفخ بادي الصلابة أحدث على طاولة المكتب صليلاً كثيفاً غير مدوّ.

قال لوكاس: «هذا يثبت صحة الفاتورة. أربع قطع نقدية صغيرة. كنت أرغب في أخذها إلى المصرف ولكنك تستطيع أن تريحني من الذهاب. هل ترغب في عدّها؟».

قال الخال: «نعم: لكن باعتبارك دافع النقود لا بد لك من عدّها».

قال لوكاس: «خمسون سنتاً».

قال الخال: «هذه تجارة» فكّ لوكاس أنشوطة الكيس وألقى السنتات على طاولة المكتب وعدها قطعة قطعة مزيحاً كل واحد منها بسبابته فوق كتلة النقود من فئة العشر سنتات والخمس سنتات الصغيرة الأول، وهو يعد بصوت عال، بعدئذ أغلق الكيس بحركة خاطفة وأعاد وضعه داخل معطفه وأزاح كومة النقود مع الفاتورة «المجعلكة» باليد الأخرى عبر الطاولة إلى أن أوقفتها النشّافة أخذ محرمة بلون الموز من جيب معطفه الداخلية مسح يديه

أعاد المحرمة إلى موضعها من جديد ووقف بعناد وهدوء غير ناظر إلى أي منهما وقد تعالى دويّ مطرد من أجهزة الراديو وهدير مستمر من أبواق السيارات وغيرها من أصوات صخب المقاطعة العارم في يوم السبت أثناء فترة بعد ظهر يوم مشرق.

قال الخال: «ماذا بعد الآن؟ فيمَ انتظارك؟».

أجاب لوكاس: «أنتظر نسختي من إيصال الاستلام....».

❑ ❑

لمحة عن حياة المؤلف

ـ 1897 ولادة فوكنر في نيو ألبانيا: مسيسيبي للأبويين موراي ك ومود بطلر فوكنر.

ـ 1902 الانتقال إلى أكسفورد ميسيسبي.

ـ 1981 الانتقال إلى تورنتو للتدريب في القوى الجوية الملكية؛ والحصول على رتبة ملازم.

ـ 1919 تسجيل فوكنر في جامعة ميسيسبي.

ـ 1922 ـ 1924 فوكنر في أكسفورد. القيام بأعمال عجيبة، آخرها العمل مسؤولاً عن مركز البريد في الجامعة. الاستقالة من العمل عام 1924.

ـ 1924 نشر أول كتاب لفوكنر «الإله فون الرخامي» الذي يضم عدة قصائد.

ـ 1925 يمضي ستة أشهر في نيو أورليانز، ينتج في أثنائها ستة عشرة قصة تحت عنوان «أقاصيص فكاهية» في صحيفة تايمس بيكون الصادرة في نيو أورليانز (صدرت إحدى عشرة واحدة منها تحت عنوان «مرايا شارع تشارتز 1953» صداقة مع شيرود أندرسن ومناقشات حول موضوع الكتابة. في حزيران أبحر فوكنرْ إلى أوروبا وعاد في أواخر العام.

ـ 1926 نشر كتاب «شيروود أندرس وغيره من مشاهير الكريبولين*» يتضمن محاكاة ساخرة لأسلوب أندرسن أدّى إلى قطع العلاقة بين الإثنين. كما تمّ نشر رواية «أجر الجنود» التي نالت تقديراً متوسطاً من النقاد وسقطت في التوزيع.

---

* ـ الكريبولي هو الأمر بأي المتحدر من أصل إسباني أو لأب إسباني خاصة.

ـ 1927 نشر رواية «البعوض».

ـ 1929 نشر رواية «الحرم» في حزيران و «الصخب والعنف» (تشـرين)، أولى روايات يوكناباتاوفا. الزواج من أستيلا أولدام فرانكلين.

ـ 1930 نشر رواية «بينما أحتضر».

ـ 1932 نشر مجموعة شعرية بعنوان «الخليـط». بـدء العمـل في كتابـة سيناريوهات سينمائية في هوليود.

ـ 1933 نشر مجموعة شعرية بعنوان «غصن أخضر».

ـ 1934 نشر رواية «ضوء في آب» و «الذي لا يقهر».

ـ 1936 نشر رواية «أبشالوم! أبشالوم».

ـ 1939 نشر رواية «النخيل البري».

ـ 1940 رواية «القرية».

ـ 1942 رواية «أهبط يا موسى».

ـ 1948 رواية «غريب في المقبرة».

ـ 1950 التوجه إلى استوكهولم، لاستلام جائزة نوبل للآداب عن عام 1949.

ـ 1951 رواية «صلاة جنازة الراهبة».

ـ 1955 رحلة إلى اليابان للمساهمة في مؤتمرات وإلقاء محـاضرات في ناجـانو وأماكن أخرى. ينال جائزة بوليتزر وجائزة الكتاب الوطني علـى كتابـه «حكايـة خرافية».

ـ 1956 ألبير كامو يترجم روايـة «صـلاة جنـازة لراهبـة» ويقتبسـها للمسرح ويبدأ عرضها في باريس.

ـ 1957 يمضي فصلين دراسيين كاتباً مقيماً في جامعة فرجينيا.

ـ 1962 وفاة فوكنر إثر نوبة قلبية.

المؤلف والرواية

كتب فوكنر عن جزء من البلاد كثيراً مما اجتذب اهتمام القراء في كافة أرجاء العالم؛ فالجنوب يتمتع بمصادر خاصة به من الإثارة العميقة، وسرعان ما غدا مؤلفنا «كاتب الجنوب» عن سابق إصرار وتصميم. ونجح علاوة على ذلك في تجاوز التسجيل السطحي لحياة الجنوب كمنطقة متفرّدة تاريخياً، إلى تقديم تحليل عميق لقضايا إنسانية عالميّة.

وقد تكون أهم مزاياه القوة في التركيز، والمقدرة على إيصال عالمه النثري إلى مستوى من التجسيد التخيّلي يضفي واقعية أصدق من الواقعية الطبيعية الوصفيّة. وهو مثل بلزاك بالغ الاهتمام بالتفاصيل الدقيقة للعالم، يتمتع الشخوص الذين ترسمهم مخيلته بكثافة وحيويّة تجعلهم مقنعين تماماً.

وعلى القارىء أن يأخذ بعين الاعتبار أن فوكنر يرى الزمن جزءاً لا يتجزأ من شبكة الانفعالات الإنسانية، وقد تداخل كلياً وتكامل مع الأدوات اللغوية من أسلوب ووتيرة نثرية وإيقاع درامي. فيمكن وصف الزمن الفوكنري، بالتالي، على أنه عملية مدّ متتابعة تتراوح فيها حركته من الماضي إلى الحاضر. ومن الحاضر إلى الماضي. ويأخذ الماضي شكل الزمان والمكان الأسطوريين أحياناً، فنرى في روايتنا وصفاً للحقول الموجودة حول بلدة جيفرسون يذكرنا بحنين الإنسان إلى جنّة عدن.

كما تمتلئ لغة فوكنر بلحظات الثبات، أو برصد الزمن في حالة سكونية كأنه لا يتحرك أماماً أو خلفاً، بل يبقى على حاله: وتحفل روايتنا بكلمات

مثل: ثبات، ساكن، متجمد، متوقف، عديم الحركة، لا حراك فيه وغيرها من التعابير التي تدل على البراءة الأزلية الموجودة لدى بعض الشخصيات: والثبات يأخذ عدة أبعاد في أعمال فوكنر. فقد يكون بين الشخوص بحد ذاتهم أو بين الإنسان والطبيعة حوله. كما تتجلى تلك الخاصية السكونية العذْنية في تجسيد الشخصيات والوصف: والبطل عند فوكنر غالبا ما يعبر عن الثبات مقابل الضعف.

تنطوي روايات فوكنر من جانب آخرعلى الكثير من التوتر. فشخوصه مخلوقات مشدودة، مهووسة بعزلتها في العالم، في منتهى الحيرة، ساعية لإثبات ذواتها قبل أن يطبق الموت عليها. في هذا الصدد تغدو عقدة الماضي والحاضر الدالة على كل من «أعباء» التاريخ والنضال من أجل التعبير عن الذات أداة لتصنيف شخصيات فوكنر. ويبقى بالتالي النضال ضد تهديد الزمن، لوضع حد له ومنعه من تشويه المثال نموذج الصراع الذي يتكرر دوماً.

من مزايا شخوص فوكنر الأخرى هي أنهم، نساءً كانوا أم رجالاً، يسبغون غلالات على الأحداث دونما تفكير أو مسؤولية. وهذه النزعة مثال على الاستجابة لعبء الماضي من الناحية الأخلاقية وبشيء من الهروبية. يورد فوكنر بنجاح المفارقة بين الكليشية السائدة ومحاولة المجازفة

بتغييرها. فصورة الزنجي في الجنوب الأمريكي، هي أقرب إلى الكليشية التي تشكل الهيكل الأساسي والمادة الدرامية في رواية «غريب في المقبرة»: لوكاس بوشامب ـ الزنجي والإنسان ـ يشكل تحدياً جلياً للبطل الشاب تشارلز ماليسون وللسواد الأعظم من أهل بلدة جيفرسون. في النهاية يتوجب على تشارلز تحقيق إنسانية لوكاس المتعارضة مع الافتراضات المجردة الناجمة عن «زنجيته»، والتي تشكل جزءاً من التراث الثقافي الذي ورثه. خلف هذه العلاقة، تبدو رغبة الحشد في تنفيذ فكرة معممة راسخة قوامها عقاب الزنجي، أزمة بالغة الحدة. ودور تشارلز لا يثبت براءة لوكاس من جريمة القتل فحسب. بل يؤكد أن الفكرة السلفية المغلوطة لا قيمة لها: وبإنجاز ذلك ينحل الحشد (الذي يجسده فوكنر بالوجه) ويتلاشى، وتنتصر حقيقة الإنسان على الإفتراض التجريدي.

وقد تستعير الشخصية الفوكنرية رؤيا مبسطة للماضي، منحية جانباً الأخطاء الجسيمة. وتستريح بثقة على الأمل بالإستقرار والإستمرار.

ويبدو عمل فوكنر في الغالب مستودعاً من الاستقرار: والآنسة هابرشام العجوز في روايتنا خير مثال على ذلك.

علاوة على ذلك تتواصل عملية التشابك المتصلة في عمل فوكنر. شجاعة وبأس وقناعة راسخة يظهرها أناس عاديون. وتسود روح الإستعداد لتحمل المسؤولية، على الأغلب عندما يتعاقب الخير والشر ويتبادلان مواضعهما. كما تظهر البطولة في أبسط صيغها من خلال عمل يومي مفيد، يتم إنجازه على أكمل وجه، وفي بعض المواضع ــ كما هو وارد في روايتنا ــ يسود نوع من البطولة الهادئة التي يظهرها شخص عادي.

المحامي جافن ستيفنس من الشخصيات الأثيرة لدى مؤلفنا. ومن مزاياه أنه يتحدث كثيراً، على الأغلب، في وضع أشبه بوضع الكابتن أودن الذي «يحاضر حول الملاحة بينما السفينة تشارف على الغرق». والسؤال الذي يطرح نفسه هو أين يقف فوكنر على وجه الدقة من بلاغة وخطابة ستيفنس؟ من الواضح أنه معجب بكثير من أفكاره، إلا أنه يحس بأن إظهار تلك الشخصية كمجرد رجل حكمة يلغي أي حضور له، كشخصية من لحم ودم. وبالتالي يتنحى ستيفنس عمليات عن مسؤولية الفعل في الرواية. ويتولّى بطولة الرواية الفتى اليافع تشارلز ماليسون، وصديقه الزنجي ألك ساندر، والعانس العجوز هابرشامز التي يمكن اعتبارها بطلة بكل ما في الكلمة من معنى لأنها تعرف تماماً ماذا تفعل وسبب قيامها بذلك.

إن اهتمام فوكنر بشخصية الزنجي تنتشر في رواياته، وخاصة تلك التي كتبت في الأربعينات وذلك لعدم الإستقرار الضارب جذوره عميقاً، والعنف غير المألوف الذي يأخذ شكل توكيد الذات العلاقة بين الزنوج والبيض. هذه العلاقة لا تنفصل عن ذلك إطلاقاً، لأنها على صلة أكبر بمسألة البلاد ككل لا من الناحية الرمزية وإنما كمشكلة اقتصادية وأخلاقية وعرقية.

هذا التحدي يتجلى من خلال شخصّية لوكاس بو شامب، الذي يمثل إحدى نتائج «إثم» كارونترز إدموندز. إن خطته ذات الطراز النادر وموقفه العدائي المتصلب، الاستفزازي تجاه البيض يتجسد في رواية «غريب في المقبرة» التي تشكل مزيجاً غريباً من أكثر روايات المغامرة نجاحاً في الأدب الحديث ومن أكثر الأعمال استخداماً للغة المباشرة.

روايتنا هذه إذن. في آن معاً، قصة مغامرات فيهـا ــ جريمـة قتـل، وتهديـد بالسحل، ورحلة متفردة في الليل محفوفة بالمخاطر إلى مقبرة، وسباق ضـار مـع الموت الخ. وموعظةٌ أو نقاشٌ مطـول. يضـع فوكـنر لوكـاس إزاء الفتـى الأبيـض تشارلز ماليسون؛ ويتحدى لوكاس ماليسون إن كان قادراً مدى حياته على تغيير قناعاته التقليدية عما يجب أن يكون الزنجي عليـه وأن يعامله بـدلاً عـن ذلـك على أنه مجرد إنسان. فيبدأ التنافس بين الإثنين، منـذ أوّل حادثـة تلـت وقـوع تشارلز في الساقية المتجمدة، حيث يقدّم لوكاس الطعام لتشارلز في منزله.

عندما يمنح تشارلز لوكاس بعض النقود لقاء «خدماته»، يرفض لوكاس الهبة ويعتبرها تعدّياً على امتيازه كإنسان ذي مركز اجتماعي.

كما يظهر لوكاس التحدي ذاته لكلّ سكان المنطقة الذين يتمتعون فيما بينهـم «لابد أن يُقرّ أنّه زنجِيّ وضيع».

في المخزن الريفي، يجعل هدوءه الاستفزازي جيرانه البيض يشـتاطون غيظـاً واستياء يصل حدّ الاستعداد للقتل.

أما تشارلز ماليسون فلا يستثيره الغيـظ النـاجم عـن الكبريـاء المجـروح قَـدَرَ محاولة حلّ لغز عدم مقدرته على تأكيد ذكوريته ودمـه الأبيـض. وعندمـا يقتـل أحد أبناء عائلة جوري ، يبدو الحدث كافياً لحث جميع البيض في البلدة علـى إثبات أن لوكاس «زنجي وضيع» فتحتشد الجمهرة أمام السجن للقيـام بواجبهـا وأخذ ثأرها. وهذه هي فرصة ماليسـون الأخـيرة. وأكـثر مراحـل الصراع حسـماً لفرض نفسه كإنسان أبيض على لوكاس الزنجي.

يستأجره لوكـاس للذهـاب إلى المقبرة ليثبـت أن لوكـاس لم يرتكـب جريمـة القتل. لقد عرف لوكاس جيداًمن يستأجر، لأنه لو لجأ إلى الشريف أو المحـامي لأضاعوا الوقت في الحيثيات والتفاصيل ولما وجـد لديهـم الحمـاس الكـافي الـذي يتوفر في فتى يافع فيتنطّع للمهمّة تحت جنح الظلام كلّ مـن تشـارلز، والآنسـة هابرشام العجوز (إحدى أفراد «الفئة الأرستقراطية» الـتي ترتـدي فسـطاناً قطنيـاً زهيد الثمن) وصديق تشارلز الفتى الزنجي ألك ساندرز وسبب محاولـة اسـتقصاء الحقائق تلك هو كون عملية سحل لوكاس سـلوكاً بشـرياً يبعـث علـى العـار، لا مجرد عملية اعتداء عنصري. وللمغامرة ملابساتها التي تزيد البيـض عـاراً ــ لأن جوري قتل على يد أحد أخوته لابيد زنجي. هذه الأحداث مجتمعة، تجري في

جوّ يذكرنا «بهكلبري فنّ»* وسط مفارقات توم سويريه**، معقدة إلى حد يفوق الوصف، إلى حد أن جميع البيض المحتشدين يهربون إبّان براءة لوكاس كأنهم يعلنون موقفاً يتجاوز الإقرار بالخطأ إلى إظهار عار الإثم والغضب الناجمين عن وجود إنسان بينهم على استعداد لقتل أخيه عن سابق إصرار وتصميم.

وتشكل مداخلات ستيفنس البليغة معظم أجزاء الكتاب ترافقها في معظم الأحيان لحظات من النثر الرفيع الذي يفوق حدود القصور. الناقد «إرفن هو» يوضح إشكالية حضور ستيفنس في الرواية قائلاً: «ما من رواية لوكاس بوشامب شخصية رئيسية فيها يمكن إطلاق إسم عمل فاشل عليها، وما من رواية جافن ستيفنس ناطق بأفكارها يمكن اعتبارها عملاً ينقصه النجاح». والسؤال الملح هو هل ستيفنس ناطق فكري أم لا. وذلك لأن صورته ليست ملغية ولأنه من الناحية الاسمية مسؤول عن المرافعة في قضية لوكاس. والمقولة الرئيسية للرواية محتواة في الصراع بين لوكاس وتشالرز لإعادة اعتبار وضع الزنوج ــ للانتقال من النمط والكليشية إلى الإنسانية. ويظهر فوكنر بحدة التباين بين الأفعال والكلمات؛ فيورد الكثير من الكلمات ويتم تنفيذ المهمات بهدوء وشجاعة خاليين من أية استعراضية بحيث أن التباين بين الجانبين لا يحتاج للتوكيد.

لابد من التأكيد على أن إطناب ستيفنس يغلف بديهيات راسخة في ذهن فوكنر. والفصول الثماني الأولى من الرواية تعرّفنا بذلك بأناقة وستيفنس علاوة على ذلك «مثقف» درس في هارفرد وجامعة هايدلبرج. ولديه استعداد لإنجاز المهام. أما الفصول الأخيرة في الرواية فتمثل بداية مشكلة اعترضت فوكنر في رواياته الأخير تتمثل في المجازفة بإظهار المقولات المباشرة والفصاحات المنبرية. والرواية مهمة أيضاً لأنها نشرت قبل سنتين من استلام فوكنر جائزة نوبل في الأدب عام 1950.

وتتعلق قضية «الصوت» وقوته المتصاعدة بدور جافن ستنفنس ــ الشخصية التي لا يكتنفها أي غموض ـ في نثر فوكنر في الخمسينات. فمعالجة فوكنر في بعض المواضع تدل على دور كبير يقوم به، إلا أنه يبدو في مناسبات أخرى عرضة للهجوم ـ بل أكثر من مجرد شخص مضحك. بدءاً من الفصل الثامن في

---

* ـ رواية من تأليف مارك توين عن تحرير الزنوج ـ المترجم ـ

** ـ رواية من تأليف مارك توين عن تحرير الزنوج ـ المترجم ـ

الرواية، يأخذ على عاتقه بالتدريج مهمة الراوي ويبلغ «رسالتها». لكنّنا نتأكد سلفاً أن مصير الرواية في أيادٍ أخرى. وعلى ضوء اضطرار ستيفنس للانصياع في المسؤوليات الجسام في الرواية للنساء والصبية، تغدو أهميته موضع شك طالما أنه يعلن عن هزيمته أمام تشارلز.

أما الآنسة هابرشام فهي عانس في السبعين من عمرها، تلعب دوراً مفصلياً في روايتنا، بعد انقضاء أكثر من قرن على ظهور الهابرشام الأصليين في المقاطعة. إذ أن دكتور صاموئيل هو أول شخص يحمل اسم هابرشام جاء إلىالمقاطعة حوالي عام 1800، مع الكساندر هولستون ولويس ميرتيير.

أما (البطل) الذي يفوق الجميع أهمّية في روايتنا فهو مقاطعة يوكناباتاوفا التي تضفي على الرواية جواً من عوالم السحر غير البعيد عن الواقع. تبدو مقاطعة يوكناباتاوفا، ميسيسبي، وعاصمتها جيفرسون. منطقة حقيقية وأسطورية في آن معاً.

ومما يجعل فصل الواقع عن الأسطورة أمراً بالغ الصعوبة هو أن فوكنر وصف بدقة المواقع الجغرافية، ورصد تاريخ وحياة سكان شمال منطقة الميسيسبي بتفصيل باهر. ومن المجدي في اعتقادنا النظر إلى مقاطعة يوكناباتاوفا وسكانها كعالم خيالي قائم بحد ذاته، أكثر منه تاريخاً واقعياً لشمال الميسيسبي يعود إلى زمن الهنود التشيكاسو وينتهي في الوقت الحاضر.

تبلغ مساحة مقاطعة يوكناباتاوفا 2400 ميلاً مربعاً، يقطنها 15.611 نسمة، فيها الدلتا الخصبة، وريف رملي، وأحراش صغيرة، وجيفرسون بسجنها، وساحة البلدة، والمنازل القديمة المشرفة على التصدع. ومنطقة بيت فور، وموقع الرجل الفرنسي العجوز، والطرقات المغبرّة وصور كثيرة أخرى.

تعاقبت على يوكناباتاوفا عدة أجيال من الهنود والعبيد، وكبار المزارعين، وجنود الحرب الأهلية، والسيدات العجائز من الطبقة الراقية، والجنود المتقاعدين من الحرب الأهلية أولاً، والحرب العالمية الأولى ثانياً، والحرب العالمية الثانية أخيراً، والمستثمرين، والأجراء، والباعة الجوالين، والموجهين الدينيين والمحامين والأطباء. والمزارعين، والطلبة الجامعيين وغيرهم.

هذا الريف الأسطوري الذي يشكل جزءاً من الجنوب الأمريكي، متميز عن كافة أرجاء الولايات المتحدة، غرباً، وشرقاً، وشمالاً. لأن الجنوبي القاطن في

مقاطعة يوكناباتوفا يحمل إرثه من الإثم، ونصيبه من تـراث مؤلم مضطـرب بـدأ بالعبودية، ويستجيب لهما على طريقته الفردية الخاصة.

أخيراً بالإمكان إيراد بعض مصادر فوكنر الأسـلوبية. ففوكـنر يديـن لجويـس بالمونولوج الداخلي وتيار الوعي. والكلمـات المنحوتـة المركبـة. في بعـض المقـاطع يتدخـل فوكـنر بشـكل خـاص إذ يعـير صوتـه البلاغـي إلى إحـدى الشـخصيات فيشكل ما يشبه الكورس. وهو في هـذه الروايـة كغيرهـا يبـدو حرّيفـاً في أسـلوبه القائم على المزج بين البلاغة الرفيعة و «البلاغة الشعبية». ويمكننا أن نورد قـول أحد النقاد عن فوكنر: «في نثر فوكنر صوت موغل في القدم كبوق الصيّاد». وهـذا وصف مقنع، لأن لغـة فوكـنر وعالمـه النـثري يسـتثيران المـاضي، أو بـالأحرى، يربطان الماضي بالحاضر؛ إذ يشعر المـرء لـدى قـراءة فوكـنر بالانـدمـاج في تـاريخ طويل من الحيرة والمعاناة والألم المقرونة بالتحمل والأثرة والمحبة.

وتعود صعوبة روايتنا هـذه وروايـات فوكـنر الأخـرى إلى مصـادر نـثر فوكـنر المتشـابكة والمتنوعـة. فنـثر فوكـنر أقـرب إلى التقـاليد الأدبيـة الأقـدم، منـه إلى «الواقعية الجديدة». وتشكل الخيالات الحسية البالغة الغرابة لتشارلز جروكديـن براون، وإدجار ألان بو، وأجروس بيرس جزءاً لا يتجزأ من تـراث فوكـنر. كمـا يحضر كلٌّ من مجاز هو ثرن وقصصه العاطفية من الطراز القوطي. وهنـالك أيضـاً شخصيات كوبر الإيجابية البريئة، وحكايـاه المطوّلـة. وفوكـنر مـن جـانب آخـر يشكل صـدى لِملْفِـل: كـلا الكـاتبين يستطيعان خلـق رؤيـة للـبراءة الصافيـة في التفاؤل والتطلع للأمام والتخلص من التقاليد الموروثة، كما يستطيعان خلق رؤيـة كابوسيّة ناجمة عن التشكيك الشخصي والأعماق الإنسانية الدفينة. وكان فوكـنر أيضاً على درايـة بالدرامـا اليعقوبيـة والروايـة الروسـية والروايـة الحديثـة الـتي ابتدعها كل من جيمـس وكونـراد وجويـس. ولا يخلـو تـراث فوكـنر مـن بعـض التضارب والتعقيد ما بين الأدبين الأوربي والأمريكي ـ وكان كاتبنا مدركـاً لهـذه المسألة.



المراجع الإنكليزية:

HOFFMAN, FREDERICK J. WILLIAM FAULKNER. NEW HAVEN: COLLEGE AND UNIVERCITY PRESS, 1966.

O' CANNOR, VAN, «WILLIAM FAULKNER». MODERN AMERICAN NOVELISTS. ED BY VAN O' CONNOR.

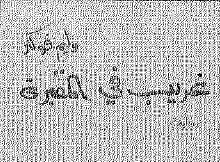
NEW YORK: THE NEW AMERICAN LIBRARY, 1974.

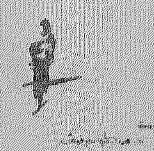
المراجع العربية:

ملجيت، مايكل. (فوكنر). ترجمة: غالب هلسا. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1976.









غريب في المقبرة

نجح وليم فوكنر، باستخدام المصادر الخاصة للإثارة العميقة التي يتمتع بها الجنوب الامريكي في أعماله الروائية، واجتذب اهتمام القراء في كافة أرجاء العالم، وقد تجاوز التسجيل السطحي لحياة الجنوب كمنطقة متفردة تاريخياً إلى تقديم تحليل عميق لقضايا إنسانية عالمية..

... ومن بين أهم مزاياه كروائي: القوة في التركيز والمقدرة على إيصال عالمه النثري إلى مستوى من التجسيد التخيلي يضفي واقعية أصدق من الواقعية الطبيعية الوصفية...

... ويلاحظ القارىء أن فوكنر يرى الزمن جزءاً لايتجزأ من شبكة الانفعالات الإنسانية، إذ يتداخل كلياً ويتكامل مع الأدوات اللغوية من أسلوب، ووتيرة نثرية وإيقاع درامي..

.. تظهر البطولة عند فوكنر في أبسط صيغها، من خلال عمل يومي مفيد، وفي هذه الرواية يسود نوع من البطولة الهادئة التي يظهرها شخص عادي...